الزهراني

تاريخ المدينة المنورة

المسمى

نصيحة المشاور وتعزية المجاور

لابن فرحون

للإمام الفقيه أبي محمد عبدالله بن محمد بن فرحون المالكي

٦٩٣ - ٧٦٩هـ

قابل أصوله الخطية وعلق عليه

حسين محمد علي شكري



شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون : ٥٥٦٩٧٦ - ٥٥٦٩٧٨
فاكس : ٧٩١٢٩٨ /٠١كود بيروت : ٠٠٩٦١١
ص.ب : ٣٨٧٤ -١١ رمز بريدي ٢١٥٠ ١١٠٧
بيروت - لبنان



مقدمة

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد، وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله المنعم المتفضل علينا بجزيل النعم والكرم، والهادي إلى الصراط المستقيم.

أما بعد،

فهذا كتاب نفيسٌ يتعلق بتاريخ مدينة المختار، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم، الموسوم بـ«**نصيحة المشاور وتعزية المجاور**» للإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن فرحون المالكي، وهو كتاب موسوعي يتطرق لذكر جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية إضافة إلى التراجم لرجالات تلك الفترة التي من خلالها نتعرف على جوانب تلك الحياة بجميع تفصيلاتها، وهذا الأسلوب المتميز حاول تقليده السخاوي في «التحفة اللطيفة» حيث إنه اقتبس منه تراجم عديدة ونقل معظمها نصاً بكامل تفصيلها مما سيراه القارئ هنا حين عزوت إلى مصادر الترجمة وبينت النقل.

كما أنه بدأ كتابه هذا بمسألة فقهية رد فيها على معترض، وبيَّن فيها أقوال الأئمة والحكم الشرعي في تلك المسألة المعترض عليها، ثم ذكر نبذة مختصرة عن أحوال النبي ﷺ وأخلاقه وشمائله، ثم استهل كتابه بذكر من أدركه من مشايخ الحرم النبوي الشريف، ثم من أدرك من خدام الحرم، ذكر من خلال تراجمهم أهم الأحداث التي عاصرت تلك الشخصيات وشاهدها وكان أحد أطرافها.

ولقد شرح الله صدري لبذل الجهد المقل في خدمة هذا الكتاب وإخراجه حين طالعت منه نسخة مصورة عن النسخة الأصلية لهذا الكتاب

والمحفوظة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وسعيت في الحصول على نسخة أخرى لهذا الكتاب خاصة وأنني وجدت أن هذه النسخة غير تامة وليست قديمة فناسخها ـ في غالب الظن ـ هو السيد إبراهيم حمدي الخربطلي أحد أمناء هذه المكتبة السابقين، فعثرت على نسخة أخرى بمكتبة آل هاشم مكتوبة بخط جيد من قبل صاحب هذه المكتبة السيد جعفر هاشم، ثم ظفرت بنسخة ثالثة بخط المحدث العلامة الشيخ عبد الستار الدهلوي محفوظة بمكتبة الحرم المكي الشريف، وظهر لي أن النسختين الأخريين مقابلتان وعليهما بلاغات المقابلة.

فاستعنت بالله العلي العظيم في نسخ المخطوطة المحفوظ أصلها بمكتبة آل هاشم لوضوحها، ومن ثم مقابلتها على النسخ الخطية الأخرى وإخراج النص الصحيح قدر الإمكان منها.

ثم قمت بعزو التراجم إلى المصادر، وتبيين نقل هذه المصادر عن أصل هذا الكتاب، ولم أهتم بذكر فروق النسخ إلا في نطاق ضيق جداً، واجتهدت حسب الإمكان في ذلك والطاقة مع اعترافي بالعجز وقلة البضاعة، لكن كان الأمل في الله والرجاء في إخراج هذا العمل دأبي وشغلي.

والله أسأل أن يمن عليّ بالقبول، وأن يجعل هذا الجهد القليل ذا أجرٍ كثير عنده، وأن يرزقني الهمة في خدمة مدينة المصطفى ﷺ.

إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه المفتقر إلى رحمة مولاه

حسين محمد علي شكري

حامداً ومصلياً بالمدينة المنورة

في غرة رمضان سنة ١٤١٦هـ

وصف النسخ الخطية المعتمدة

ذكرت فيما سبق أنني قد حصلت على ثلاث نسخ لهذا الكتاب وهي كما يلي:

١ ـ **النسخة (أ)**: وهي بخط المحدث الشيخ عبد الستار بن عبد الوهاب الدهلوي المكي، والمحفوظة بمكتبة الحرم المكي تحت رقم (٢٨٩٩) دهلوي، وعدد أوراقها (١٢٠) ورقة، وتمتاز هذه النسخة بوجود بلاغات في الهامش، ولم يُذكر تاريخ نسخها.

٢ ـ **النسخة (ب)**: وهي بخط السيد جعفر بن حسين هاشم، والمحفوظ أصلها في مكتبة آل هاشم بالمدينة المنورة، وعدد أوراقها (٩١) ورقة، وهي أيضاً نسخة مقابلة كما يظهر ذلك من وجود لفظة (نسخة) في الهامش، وتاريخ نسخها ١٢٩٨هـ.

٣ ـ **النسخة (ج)**: وهي في غالب الظن بخط الشيخ إبراهيم حمدي أحد أمناء مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، وأصلها محفوظ بالمكتبة المذكورة تحت رقم (٩٦/ ٩٠٠)، وهي نسخة ناقصة لم يتمها الناسخ، وعدد أوراقها (١٣٩) ورقة.

وقد علمت أنه توجد نسخة بدار الكتب المصرية بمكتبة الشيخ محمد محمود التركزي ولكني لم أتمكن من الحصول على نسخة مصورة منها.

ترجمة المؤلف(*)

اسمه

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي القاسم فرحون بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي الأصل، المدني المولد والمنشأ.

مولده وعلمه

ولد بالمدينة المنورة سنة ٦٩٣هـ، قرأ القرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه والتفسير، وفقه الحديث ومعانيه.

قال عن نفسه: «لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أحفظه».

وكان ـ رحمه الله ـ بارعاً في علم العربية حتى إن إمام عصره وشيخ وقته الشيخ أثير الدين بن حيان قال عندما وقف على كلامه في إعراب «بانت سعاد»:

«ما ظننت أنه يوجد بالحجاز مثل هذا الرجل»، واستعظم علمه.

وقال هو عن نفسه: «اشتغلت في علم العربية وأنا ابن ثمان عشرة سنة».

كان صبوراً على السماع والاشتغال، وظل أكثر من خمسين سنة متصدراً للاشتغال بالحرم النبوي الشريف، ومدرساً للمالكية.

شيوخه

قرأ القرآن الكريم على الشيخ أبي عبد الله القصري، والحديث على والده والشيخ محمد بن حريث البلنسي ـ خطيب سبته وفقيهها ـ وكذلك قرأ على كلٍ من:

(*) مصادر الترجمة: «التحفة اللطيفة» للسخاوي ٢/ ٨٥ (٢٢٤٠)، «الديباج المذهب» لابن فرحون، ص١٤٤؛ «شجرة النور الزكية» ٢٠٣ (٧٠٠)، «الدرر الكامنة» لابن حجر ٢/ ٣٠٠ (٢٢٢٨).

الشيخ عز الدين يوسف الزرندي المدني، والشيخ محمد بن أحمد المطري، والشيخ شرف الدين الزبير الأسواني، والشيخ سراج الدين الدمنهوري، والشيخ محمد بن جابر الوادي آشي، والشيخ قطب الدين أبي المكارم المصري، والشيخ زين الدين الطبري، والشيخ رضي الدين الطبري، وغيرهم.

وقد خرج له شرَف الدين بن سكن المصري فهرسة كبيرة مشتملة على شيوخه ومروياته.

مؤلفاته

١ ـ الدر المخلص من التقصي والمخلص: وهو جمع لأحاديث الكتابين.

٢ ـ كشف الغطا في شرح الموطا: يقع في أربعة مجلدات.

٣ ـ شرح «مختصر التفريع» لابن الجلاب النيلي، وسماه: «كفاية الطلاب في شرح مختصر الجلاب».

٤ ـ نهاية الغاية في شرح الآية.

٥ ـ العُدة في إعراب العمدة.

٦ ـ التيسير في علمي البناء والتغيير.

٧ ـ شفاء الفؤاد في إعراب بانت سعاد.

٨ ـ المسالك الجلية في القواعد العربية.

٩ ـ شرح «قواعد الإعراب» لابن هشام.

١٠ ـ نصيحة المشاور وتعزية المجاور: وهو آخر كتبه تأليفاً.

أقوال العلماء فيه

قال عنه السخاوي في «الضوء اللامع»: كان من الأئمة الأعلام، ومصابيح الظلام، عالماً بالفقه والتفسير، وفقه الحديث ومعانيه.

وقال عنه أثير الدين بن حيان عندما طالع كلامه على إعراب بانت سعاد: «ما ظننت أنه يوجد بالحجاز مثل هذا الرجل».

وقال عنه برهان الدين بن فرحون في «الديباج المذهب»: «.. كان كهفاً لأهل السنة يذُب عنهم، ويناضل الأمراء والأشراف».

محنته ووفاته

كان ـ رحمه الله ـ من المكثرين للحج، فقد حج خمساً وخمسين حجة، وقد قال في آخر حجة له: هذه حجة الوداع، فلما أحس بالمرض أمر بحفر قبره في بقعة مخصوصة، وأوصى أن يعتق عند قبره عبيد، وأن يتصدق على الفقراء بصدقة واسعة، وأوقف أوقافاً كثيرة على الفقراء.

وقد تسبب وقوفه في وجه الشيعة الإمامية وإنهاء سلطتهم القضائية ووقوفه ضدهم، أن رُصِدَ في السَّحَر بطريق الحرم فطعن طعنة أريد بها قتله، فصرف الله عنه شرها وعافاه منها، وقد صور معاناته من تلك الطعنة في آخر هذا الكتاب بقصيدة مؤثرة.

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة تسع وستين وسبعمائة توفي رحمه الله ودفن بالبقيع.



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أذلَّ بالعلم رقاب أهل الجهل، وكسر بصدمته كلَّ بارد الشَّكل سخيف العقل، وجعل اليد العليا لمن اتَّبع هدي المصطفى ﷺ، وشرَّف وكرم، أحمده على ما خوَّل من النِّعم، ودفع من النِّقم، وأصلِّي على خير أنبيائه صلاة دائمة بدوامه، كفيلة بفضله وإنعامه. وبعد؛

فإنَّ الله تعالى رفع أهل العلم بما علَّمهم، وشرَّفهم بما وهبهم، من معرفة كتابه وسنَّة نبيه ﷺ، ثمَّ عظَّم لهم الأجر بما سلَّط عليهم من جهلة النَّاس، نعوذ بالله من الوسواس الخنَّاس، تجدهم يحرصون على هضم جانب العلماء ولو تمكنوا لأبادوهم عن آخرهم بسعيهم عليهم وتوقُّع هلاكهم، كلُّ ذلك لأجل قيامهم عليهم بالحقِّ عند خلافهم الشرع، وما هذه إلا بليةٌ، وفتنةٌ جاهليةٌ، قدَّرها الله تعالى على العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

قال عليٌّ رضي الله عنه:

كلُّ امرئٍ قدرُه ما كان يُحسِنُه ... وللرِّجالِ على الأفعالِ أسماءُ
وضدُّ كلِّ امرئٍ ما كان يجهلُه ... والجاهلون لأهل العلمِ أعداءُ

في أبيات له رضي الله عنه.

هذا في زمانه، ولا شكَّ أنَّ زمانه خير من زماننا، ومن زمان مَنْ قبلنا، لكنَّ جهل زماننا مركبٌ من جهلين: يجهلون، ويجهلون أنَّهم يجهلون.

إذا كنتَ لا تدري ولم تكُ بالذي ... تسائلُ ذا علمٍ فياضيعةَ العمرِ
ومن أعظمِ الأشياءِ أنَّك جاهلٌ ... وأنَّك لا تدري بأنك لا تدري

تراهم لباسَ الفضلاء يلبسون، وبالحدسِ والتخمين يفتون، ويقولون ما لا يفعلون، ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]؟!.

واعلم ـ أرشدنا الله وإياك ـ أنَّ من سعى على العلماء بجهل وعناد ليخملَ ذكرهم، ويسقطَ كلمتهم وأمرَهم ونهيهم، فهو بلا شكَّ إلى الكفر أقربُ منه إلى الإيمان، ويكفيه ذلك عند الله هوان، وأمَّا من ظنَّ في نفسه أهلية الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر ـ ولم يره الناسُ لذلك أهلاً ـ فلا يترك قوله أصلاً، حتى يظهر حجته، ويبدي صفحته، فإمَّا أعذر فنجا، وإما أسرَه الحقُّ فارتدى، وما أحقَّه بالتعزيرِ والهوان الشديد.

قال مالكٌ رحمه الله: لا خيرَ فيمَنْ يرى نفسَه بحالةٍ لا يراه النَّاسُ لها أهلاً.

وقال: ليس كلُّ مَنْ أحبَّ أن يجلس في المسجد للحديثِ والفُتيا جلس، بل حتى يشاور أهل الصَّلاحِ والفضل، وعلماء تشير إليه جهة المسجد، فإنْ رأوه أهلاً لذلك جلس، وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أنّي أهلٌ لذلك[١].

ولما بلغني عن بعض المتعصِّبة من المتفقِّهة، وعن جماعة من أهل الشَّرِّ متعددة، إنكارهم وضعَ حجرٍ أو أحجارٍ بالمسجد الشريف وُضِعت علماً على موضِع حاكم، أو مفتٍ، أو عالم ولم أر معه صواباً، ولا كان لفضوله يستحق جواباً، أردتُ أن أُبدي ما عنديَ في ذلك.

وما ذكره الرُّواة عن الإمام مالك رضي الله عنه، ليكون عدَّةً لأهل العلم إذا عوندوا، وحجةً لهم إذا بوحثوا، وأُضيف إلى ذلك شيئاً من أحوال مَنْ كنتُ في زمانه من المشايخ الصلحاء، والأكابر العلماء، والخدام الأرِقّاء، وأُسمي مَنْ حضرني اسمه، وشيئاً من كراماته ليحيى بها ذكره، وينشر بها علمه، وألحق بذلك أشياء حسنة من تاريخ مَنْ كان قبلنا من الثقات يرتاح إليها مَنْ سمع لها، ولم يقف على صحة نقلها، فيجدها هنا وعسى أن يقف على ذلك مُنصِف، فيتَّصف بأخلاقهم السَّنية، ويتأدَّب بآدابهم العلية.

---

(١) «ترتيب المدارك» ١٢٧؛ «الديباج المذهب» ص٢١.

قال علماؤنا رضي الله عنهم: يستحبُّ اتِّخاذ موضع من المسجد للقاضي والعالم والمفتي، حتى إليهم ينتهي المستفتي، وبذلك قال علماء الحنفية.

قال مؤلفِ «الاختيار في شرح المختار»: ويجلس للقضاء جلوساً ظاهراً في المسجد؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان يفصل بين الخصوم في المسجد، وكذا الخلفاء الراشدون من بعده، ودُكَّةُ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مسجد الكوفة إلى الآن معروفة.

قال ﷺ: «**إنما بُنيت المساجدُ لذكرِ اللَّهِ تعالى وللحكم**»، ولئلا يشتبهَ على الغرباء مكانه. انتهى كلامه.

ونقل القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ عن ابن المنذر أن مالك بن أنس كان له موضع في المسجد، قال: وهو مكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو المكان الذي كان يوضع فيه فراش النبي ﷺ إذا اعتكف، كذا قال الأويسي.

ونقل أهل السِّير[١]: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا اعتكفَ في رمضان طُرِحَ فراشه وراء أسطوانة التوبة، وروى الطبرانيُّ في «معجمه» عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ ذلك ممَّا يلي القبلة يستندُ إليها.

وفي كتاب «إقليد الإقليد المؤدِّي إلى النَّظرِ السَّديد» من كلام الشَّيخ الإمام الحافظ أبي بكر محمد بن أحمد بن حمزة: إنَّ اتِّخاذَ العلماءِ المصاطب والمنابرَ جائزٌ في المسجد للتَّعليم والتَّذكيرِ، وهم أحقُّ بها.

وممَّا رويته بسندي إلى الزُّبير بن بكَّار قال: حدَّثني محمد بن إسماعيل قال: رأيت طِنفَسَة كانت لعبد الله بن الحسن بن الحسين تطرح قبالة المنبر على مرمر كان هناك، قال: فحبس عبد الله بن الحسن سنة أربعين ومائة، وبقيت الطِّنفَسة بعده أياماً، ثمَّ رفعت، ثمَّ إن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أيام كان والياً على

(١) انظر ذلك في «سبل الهدى والرشاد» ٨/ ٤٣٩، وانظر الحديث في «سنن ابن ماجه» ١/ ٥٦٤ (١٧٧٤).

المدينة عام خمسين ومائة، عمل المرمر في جوانب المسجد حتى ألحقه بالسواري، فسأله أبو مودود عبد العزيز بن أبي سليمان أن يدع له مُصلًى، فتركه.

قلتُ: وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ التابعين فمَنْ بعدهم كان لهم من المسجد أماكن يختصون بها، ويحافظون على بقائها برسمها؛ لتكون باسمهم، لفضلهم وعلمهم.

وروينا بالسَّندِ الصَّحيح إلى ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا اعتكف يطرح له وسادة، ويوضع له سرير من جريدٍ فيه سعف يوضع له فيما بين الأسطوانة التي وجاه القبر وبين القناديل، وكان رسول الله ﷺ يضطجع عليه.

قال أبو وجزةَ السَّعدي، وهو يذكر السَّرير، ويمتدح آل الزبير لقربهم منه محلاً:

وإذا غدا آلُ الزُّبيرِ غدا النَّدى ... وإذا انتدوا فإليهم ما يَنتدي

وإذا هُموا راحوا فإنهمُ هُموا ... أهلُ السَّريرِ وأهلُ صدرِ المسجدِ

قلت: وهذا يؤيِّد ما نحن بصدده، ويزيد في عدده ومدده.

قال القرطبي في تفسير «سورة المجادلة»: القاعدُ في موضع من المسجد إذا قام لغيره، وكان قيامه في موضع مثل الأول يسمع فيه كلام الإمام لم يكره له ذلك، وإن كان أبعدَ من الإمام كُرِهَ له ذلك، لأنَّ فيه تفويت حظِّه من القرب، وإذا أمر إنسان إنساناً أن يبكِّر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم المأمور من المكان.

وروي أنَّ ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلسٍ له في يوم الجمعة فيجلس فيه، فإذا جاء قام له منه. قال: وعلى هذا مَنْ أرسل بساطاً أو سجادة تبسط له في موضعٍ من المسجد.

روى مسلم(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(١) كتاب السلام «باب إذا قام من مجلسه ثم عاد» ٤/ ١٧١٥ (٣١/ ٢١٧٩).

«إذا قام أحدكم» وفي حديث أبي عَوانة: «**مَنْ قام من مجلسِه ثمَّ رجع إليه، فهو أحقُّ به**».

قال علماؤنا: هذا يدلُّ على صحةِ القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه، لأنَّه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبلَه أحرى وأولى، وقد قيل: إنَّ ذلك أولى، وقد قيل: إنَّ ذلك على النَّدب، لأنه موضعٌ غير مُتملَّكٍ، لكنَّه يختصُّ به إلى أن يفرغ غرضه منه، فصار كأنه تملَّكَ منفعته، إذ قد منع غيره من مزاحمته.

وقال في «الإقليد»: وما في جوامع مصر من ذلك مما لم ينكره أهل العلم، دليلٌ على ذلك، فأمَّا ما وضع منها لطلب الأجرة كالمعلمين، فلا يكونون أحقَّ بها، بل ينبغي إزالتها، وكذلك إن وضع للعالم في الموضع حصير فهو أحق بذلك الموضع، وإن تأخَّر حتى سبقه غيره، ويراعى في ذلك حقُّ مَنْ يقصد العلماء فيجدهم في مكانهم.

وفي «الموطأ»(١): أنَّه كانت طِنفَسة توضع لعليٍّ(٢) بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الجمعة تحت الحائط الغربي، فإذا غشيها الظِّلُّ، يخرج عمر رضي الله عنه فيخطب، وهذا يرسخ ما تقدَّم.

قال الباجي ـ رحمه الله ـ في كلامه على حديث صفوان مع السَّارق لردائه: قال ابن القاسم في «العُتبية»: فمَنْ سرق من بسط المسجد التي توضع فيه في رمضان؛ فإن كان عندها صاحبُها قُطِعَ.

قلتُ: وهذا يدلُّ على أنَّ السَّلف كانوا يضعون البُسطَ في المسجد في رمضان، ليحفظوا بها أماكن صلاتهم.

قال القاضي أبو بكر في قوله عليه الصلاة والسلام: «**مِنى مناخُ مَنْ سبق إليه برحله**»(٣)، دليلٌ على ما يفعله الصوفية اليوم من تقديم سجاجيدهم إلى المسجد ليحفظوا أماكنهم للصَّلاة.

---

(١) باب وقت الجمعة، ص٢٣، حديث (١٣).

(٢) في النسخة المطبوعة: «لعقيل بن أبي طالب».

(٣) رواه الترمذي ٣/ ٢٢٨ «باب أن منى مناخ من سبق» (٨٨١)، وأبو داود ٢/ ٥٢١ «باب تحريم حرم مكة» (٢٠١٩). ولم ترد في هذه الروايات لفظة: «برحله».

وعن مالك ـ رحمه الله ـ أنه كان يقول: إذا ارتسم موضعٌ من المسجد برجلٍ فهو أحقُّ به. وعلى هذا أكثر العلماء.

قال صاحب «الإقليد»: وممَّا يدل على ذلك العامود المخلَّق الآن في المسجد النَّبويِّ، وعنده كان جلوس النبي ﷺ، ومن كان له موضع من المسجد معلومٌ يجوز أنْ يخرق الصُّفوف إليه إذا تأخَّر.

ونقل القاضي عياض في «المدارك» أنَّ سحنون إمام المالكية في زمانه لمَّا ولي القضاء، وكثر عليه الناس، أمر ببناءِ بيتٍ في المسجد لنفسه يحكم فيه، فكان لا يحضر عنده إلا الخصمين، ومَنْ يشهد بينهما.

وقال في «الإكمال» عند قوله ﷺ: «**إذا قام أحدُكم من المسجدِ، ثمَّ رجع إليه فهو أحقُّ به إذا قام لحاجةٍ**»: اختلف في معناه؟

فقال محمد بن مسلمة: يحمل الحديث على مجلس العالم إذا قام لحاجته، فهو أحقُّ به، واختلف في مَنْ رسم من العلماء والقراء موضعاً من المسجد للتدريس والفتيا.

فحُكي عن مالك رحمة الله عليه: أنَّه أحقُّ به إذا عُرِفَ به.

قلتُ: وممَّا يقوي ذلك ما كان في زمانه ﷺ، من أمر الصُّفَّة وأهلها، واختصاصهم بها، وكانت في أواخر المسجد.

وممَّا يرسخ هذا وضعُ أزواجه ﷺ ورضي الله عنهن أخبيتَهن بالمسجد حين أردن الاعتكاف، ولم ينكر عليهن ﷺ وضعها، وإنما خشي عليهن الغيرة التي بينهن من الحرص على القرب منه، فلا تَسْلَمُ لهن نية الاعتكاف.

فقال ﷺ: «**آلبِرُّ تُرَوْنَ بِهِنَّ؟**»[1]، فمنعهن جميعهن.

ومما امتاز به العلماء ما نقله الشَّيخُ أبو الحسن اللخمي، عن ابن حبيب، قال: وأرخص مالك ـ رحمة الله عليه ـ للعالم[2] إذا كان مجلسه في مؤخَّر المسجد، أو وسطه أن يصلّي في موضعه مع أصحابه وإن تقدَّمتهم الصفوف.

قلتُ: وإنما قال ذلك مع قوله ﷺ: «**خيرُ صفوفِ الرِّجال أوَّلُها وشرُّها**

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف، البخاري ٢/ ٦٦ «باب اعتكاف النساء» (٢٠٣٣).

(٢) في (ب): «العالم أو المدرس».

آخرُها»(١)، لأنَّه إذا تقدَّم عن الجماعة وتركهم لم يسهل عليه تخْلِيفَهُمْ، وإنْ ذهب هو وهم إلى الصَّفِّ المتقدم قبل الصَّلاة انقطع اشتغالهم، وإن اشتغلوا فيه شوَّشوا على المصلّين، وإن تقدَّموا بعد إقامة الصَّلاة كان سعيهم من آخر المسجد إلى أوله عَمَلٌ والإمام يصلِّي، وربما فاتتهم الركعة الأولى، فأرخص لهم في ذلك.

ومما تترشح به مسألتنا ما ورد في «صحيح البخاري» في حديث الوليدة(٢) التي اتُّهمت بالوشاح.

فقالت عائشة رضي الله عنها: كان لها خباء في المسجد، أو حِفشٌ، وهو البيتُ الصَّغير.

وفي البخاريِّ(٣) أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام ضرب لسعدٍ خيمةً في المسجد، حين أُصيب يوم الخندق في أكحلِه ليعوده من قرب.

ومن ذلك أيضاً بناء المقصورة في أيام عبدِ الملك، والمتولِّي على عمارتها عمر بن عبد العزيز، فاقتطع لها قطعةً من قِبلة المسجد لمَّا أراد حفظ والي المدينة من الغيلة.

وقد ذكر ابن رُشْدٍ في «البيان والتحصيل»(٤) أنَّ مروان بن الحكم فُعِلَ معه كما فُعِلَ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأراد اليماني قتله في صلاة الصبح، فأمر بمقصورةٍ يصلِّي فيها ويتحصَّن بها، فلمَّا دعت الضَّرورةُ إلى قطع جانب المسجد جاز ذلك للحاجة إليه، ثمَّ لم تزل حتى احترقت بحريق المسجد في ليلة الجمعة أوَّل شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وستمائة، ومنها بقيت أثراً إلى الآن(٥).

ومن ذلك بناء القبة التي في صحن المسجد الشريف، عمَّرها الإمام

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة ١/٣٢٦ (١٣٢).
(٢) انظر الحديث في كتاب الصلاة «باب نوم المرأة في المسجد» (٤٣٩).
(٣) كتاب الصلاة «باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم» (٤٦٣).
(٤) «البيان والتحصيل» ١/٢٩١.
(٥) يعني في عهد المؤلف.

الناصر لدين الله(١) لحفظ حواصل الحرم، والمصحف الكريم العثماني، وعدة صناديق كبار مُتَقدمة التاريخ صنعت بعد الثلاثمائة، وكانت عمارتها سنة ست وسبعين وخمسمائة، وجميع ما فيها سالم إلى اليوم، وقد سلمت من الحريق ببركة المصحف الكريم، ولكونها متوسطة في المسجد، ومن ذلك الدُّكَّة الخشب التي يُبلِّغ عليها المؤذِّنون خلف الإمام.

ومما يشيد بناء هذه المسألة ويقوّي أركانها، إباحةُ العلماء المالكيين التعزير في المسجد الشريف، وإنَّما ذلك تيسيرٌ للحُكَّام لئلا يتكلفوا الخروج عند إقامة الحدود، مع العلم بما يجب للمسجد من التنزيه عما هو أقل من هذا، مثلُ رفع الصَّوت بالعلم، بل أدنى من ذلك، حتى قيل: لا توقد فيه النار، لكنَّهم راعوا المصلحة العامة، ورأوا أنَّ المسجد بُني للشَّرع وأهله، ولم يُبْنَ لغيره.

ثم يرجع الكلام مع هذا الذي تصدَّى للإنكار والإفتاء، هَلَّا أنكر غير مجلس الحكام من مجالس لغيره نصبت، ومتكآت خصّصت، وبالفضّة بيضت، ودكاك عند الأبواب، ومواضع من المسجد محجزة، وخلوات مبتدعة؟

لو تكلم في جميعها لساعده الخَلْقُ، وشكره الحقُّ، بل تكلَّم بالهوى، ومَن اتبع هواه فقد غوى. ثمَّ إنَّه لم ينكر الحجر المرآة الذي عن قريب وضع، وأُثبت في الحائط من داخل المسجد وجصص، وهو من البدع المنكرة، يستدعي شروراً متعددة، ومنكرات متجددة، ولا يسع ذكرها هنا لكثرة تعدادها.

ثمَّ هذا الحجر الذي وقع فيه الكلام، وَضْعُه متقدِّم، وُضعَ في زمن غير هذا الزمن، فإنْ خفي عليه ذلك، فليسأل عن ذلك مَنْ سبقه من أهل ذلك الزمان الذي هو خير الزمَنَين، وأعدل القرنين، وإنَّما غُيِّر اسمه، ورفع

---

(١) هو: الناصر لدين الله: أحمد أبو العباس بن المستضيء بأمر الله؛ ولد سنة ٥٥٣هـ، وكانت فترة ولايته ٤٧ سنة، وهو أول من كسى الكعبة ديباجاً أسود. انظر ترجمته في «تاريخ الخلفاء» ص٤١٣ ـ ٤٢٢.

عَلَمه، لمَّا ذهب أهله، ومَنْ كان يجلس عنده، ويستند إليه، مثل القاضي سراج الدين[1]، ومثل الشيخ عبد العزيز الجبرتي[2] الذي كان للقرآن تالياً، كان يجلس إليه إذا دخل المسجد سحراً فيرفع صوته بالقراءة بحسن نيةٍ، وأداءٍ حسن عن رَوِيّة.

وإنَّما العلة في هذا المنكر، غمة من العلم وأهله، وما وهبوا من بذله ونشره، ورأى أنَّ رفع أهل العلم عيب فيه، وعلم على كونه ليس من أهله.

وفي مثل هذا أنشد بعضهم:

إذا محاسني اللّاتي أُدِلُّ بها صارت ذنوباً فقل لي كيف أعتذرُ

وأما أحقُّ شيءٍ بالإزالة ما أحدث بالمنارتين الشماليتين، قُدِّم باباهما على بابيهما الأصليين، وجعل ما بين البابين في كلِّ منارة خلوة اقتطع بها جانبٌ من المسجد كبير، لا شكَّ في تحريمه ووجوب تغييره، وقد تساهل مَنْ كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة، عملت وقايةً من الشمس إذا غربت، فكانت بدعةً وضلالةً يصلِّيْ فيها الإمامية من الشيعة، لأنها قطعت الصفوف، واتَّسمت بمن ذكر من الصنوف، فغلبت المفسدة بها، وندم على ذلك من وضعها.

ولقد كنتُ أسمعُ الشريفَ عزاز[3] يقف على بابها، ويؤذِّن بأعلى صوتِه من غير خوفٍ ولا خجل: (حيّ على خير عمل)، وكانت مواطن تدريسهم وخلوة علمائهم، حتى قيض الله لها مَنْ سعى فيها، فأصبحت ليلةً مخلعةً أبوابُها، معوجَّةً أخشابُها، متَّصلةً صفوفُها، وأدخل بعضها في الحجرة الشريفة، وجعل فيها الباب الشامي، وكان في ذلك مع زيادة الرواقين الذين زادهما الملك الناصر جملة مصالح ودفع مفاسد، فلذلك سكت أهل العلم، ولم يعدوا ذلك من تحجير المسجد وتضييقه.

---

(١) هو: عمر بن أحمد بن الخضر بن ظافر القاضي سراج الدين؛ ولد سنة ٦٣٥، وكان فقيهاً فاضلاً صالحاً، تولى الخطابة بالمدينة أربعين سنة، توفي بمصر سنة ٧٢٦هـ. انظر ترجمه في: «التحفة اللطيفة» (٢/ ٣٢٨)، «الدرر الكامنة» (٣/ ١٤٩).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» (٢/ ١٩١)، «المغانم المطابة»، الورقة ٢٥٢/أ.

(٣) في «أ»: «عزار».

ولقد كان في وسط المسجد سقاية يحمل إليها الماء من العين، بناها شيخ الخُدَّام في ذلك الوقت، وأوقف عليها أوقافاً من ماله، وكانت متقدِّمة على النخل، تقديرها خمسة عشر ذراعاً في مثلها، وجعل في وسطها مصرفاً للماء مرخماً، ونصب فيها مواجيرَ للماء وأزياراً، ودوارق وأكواباً، حجرها بالخشب والجريد، وجعل لها غلقاً من حديد، واستمرت السنين العديدة، فكثر الشرُّ فيها والتزاحم عندها، وصار يدخلها من يتوضأ فيها، وربَّما يزيل عنه فيها الأذى من استقربَ المَدَا.

ثمَّ تعدى الحال في شرِّها إلى أن تُضورب عليها بالسلاح، وطلب الخدَّام شريفاً أسَاءَ على أهل الحرم، فسلَّ سيفه على الناس، وغلقت الأبواب، واحتمى بالسكين حتى جاءت رُسل الأمير فأخرجوه، وذلك كلُّه بسبب السقاية ومن فيها.

فلما غلبت مفسدتها على مصلحتها، أزيلت عن اجتماع من القاضي شرف الدين الأميوطي[1]، والشيخ ظهير الدين[2]، فانظر هذا التحجير الكثير في وسط المسجد كيف اغتفر للمصلحة حتى كثرت المفسدة، وتعدت فأزيلت.

وممَّا أدركتُ من البدع التي أراح الله منها، ما كان يفعله الشرفاء من آل سنان وغيرهم، كانوا إذا أظل الحاجُ يسارعون إلى الحجرة بصناديق وكراسي ينصبونها حول الحجرة الكريمة يتخذونها مقامات، يجلسون عليها للتزوير عند الصندوق الذي قابل رأس النبي ﷺ واحداً، وعند المسمار الذي في الرخام اليوم واحداً، وعند أبي بكر الصديق رضي الله عنه واحداً، وعند بيت فاطمة رضي الله عنها واحداً، وعند المحراب الذي في الحجرة واحداً، لا يقدر أحد أن يشاركهم في مناصبهم، ولا ينفصل عنهم الزائر إلا بشيء، وإن كان معه شمع أو ماء ورد، أو هدية أو نذر، فهم الآخذون له يجعلونه في صناديقهم بدعاً مقرونة بجاه الولاة من الشرفاء.

---

(١) هو: محمد بن محمد بن إبراهيم شرف الدين الأميوطي؛ ولد سنة ٦٧٤هـ، ولي القضاء والإمامة والخطابة بالمدينة إلى أن توفي سنة ٧٤٥هـ. ترجمته في: «الدرر الكامنة» (٤/ ١٥٩).

(٢) هو: مختار الأشرافي، ظهير الدين شيخ الحرم.

لم يزل كذلك حتى قويت السنة وأهلها، واتفقت الجماعة كلها على قاضيها وشيخها، فزال ذلك ببركة نبينا ﷺ، وإنما ذلك بسبب اجتماع الكلمة، وحسن النية، وفَّقنا الله لما يرضيه، ورضّانا بما يقضيه، وزال ببركة الاجتماع، أشياءُ كثيرة من هذه الأنواع، منها:

أني أدركتُ قُرّاءَ الإمامية وأئمتها إذا دخل شهر رمضان، أخذوا من القبة شمعاً وشمعدانات على عددهم ينصبونها بعد صلاة الآخرة في مجالسهم، ويدعون في كتبهم، ويرفعون أصواتهم حول الروضة، والناس في الصّلاة لا يعلمون صلاتهم من رفع أصواتهم، ولا يسمعون قراءة إمامهم لكثرة قُرائِهم، ويجتمع عليهم من الناس خَلقٌ كثير، ويتخللون تلك الأدعية بسجداتٍ لهم مؤقتة. ولم يزالوا كذلك إلى أن اجتمعت الكلمة، وظهر الحق، فمنعوا من ذلك إلا في بيوتهم ومجالسهم، فانحسمت المادة، وزالت تلك العادة.

ولقد أدركت جماعة من المجاورين والخِدَّام لا يقرؤون كتبهم، ولا يسمعون حديث نبيهم إلا في خفية، حتى قدم الصاحب ابن حَنّا[1] رحمه الله تعالى، وأقام بالمدينة فَكَثّر من قراءة المواعيد، وقام على آل سنان والقياشين، فهابوا مكانه من السلطان، وأذعنوا واستعملوا التقية حتى رجعوا فيما زعموا كلهم سُنَّة.

وكان يأتيه من الينبع قوافل بالدقيق والقمح والأرز، وأنواع الحبوب، فيعطي منه الخدام والمجاورين، ويُمد رؤوساء الإماميين وكبار الشرفاء المقيمين، حتى أشهدوا على أنفسهم أنهم سُنَّة، ولا يحكمون بأحكام البدعة، وكان الحكّام منهم والفقهاء منهم، ولم يزالوا كذلك حتى سافر الصّاحب عنهم، فرجعوا إلى حالهم، ولكن بعد هضم جانبهم وكسر شوكتهم، فاستمرت المواعيد والقراءات والاستماعات والسماعات، وذهب

(١) هو: أحمد بن محمد بن علي بن حسن، زين الدين بن الصاحب محيي الدين: جاور بالمدينة سنة ٧٠١هـ، وكان فقيهاً ديّناً رئيساً وافر الحرمة، أزال كثيراً من البدع بالحرمين، وتوفي بمصر سنة ٧٠٤هـ. ترجمته في «التحفة اللطيفة» (٢/ ١٤١)، «الدرر الكامنة» (١/ ٢٨٣).

ببركة إقامته كثير من البدع المؤسّسة في المسجد الشريف منها: صلاة الرغائب التي روي أنَّها تصلَّىٰ ليلة أول جمعة من شهر رجب.

أدركتُ القاضي سراج الدين الآتي ذكره يصلّيها في جماعة في الروضة المشرفة بلا نكير، ولا معارض، وسنده في ذلك ما رواه فيها وأخذ به كثير من الصوفية، وقد نص العلماء على أنها من البدع وإن كانت من فضائل الأعمال المسندة لحديثٍ ضعيف[1]، لكنه عارض العمل به بقوله ﷺ: «**لا تخصُّوا ليلة الجمعة بقيام، ولا يومَه بصيام**»[2]، ورحمه الله وجزاه خيراً.

وفي إقامته بالمدينة توفيت زوجته في شهر رجب، وهي بنت الشيخ ابن أبي حمزة، وقيل: إنها ورثت سرَّ الشيخ والدها نفعنا الله به، وحُملت من المدينة إلى عم رسول الله ﷺ سيد الشهداء، ودفنت عند شهداء أحد رضي الله عنهم، وقبرها معروف يزار للبركة - رحمها الله -.

وأما الصاحب زين الدين، فكانت وفاته بمصر سنة أربع وسبعمائة، وكان في الزمن الأول مقرئ الحَرَم ورئيسه، الشريف الموصلي محمد بن سعيد[3]، فبلغني أنَّ شريفاً سمع يوماً أنَّ سعيد يقرأ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١].

فضربه برجله وقال: قم يا عدو الله، كم تكذبُ على الله، وخوَّفه بالقتل حتى دخل على بعض الشرفاء فأمنه منه، وتوفي محمد بن سعيد بمصر سنة تسع وتسعين وستمائة.

فنحن اليوم في عافية، ونعم من الله متتالية، ببركة هذا النبي الكريم

---

(١) انظر كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني على حديث صلاة الرغائب في «تبيين العجب بما ورد في شهر رجب»، ص٥٢ وما بعدها.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٢/٨٠١، قوله ﷺ: «لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام... الحديث». ورواية المصنف للحديث على سبيل الاختصار.

(٣) وقع في جميع النسخ العبارة كما يلي: «... مقرئ الحرم ورئيسه الشريف الموصلي ومحمد بن سعيد...»، لكن السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٢/٤٨٠ ذكر أن الشريف الموصلي هو محمد بن سعيد، ونقل طرفاً من هذه القصة عن ابن فرحون، وسياق العبارة يؤكد ذلك وأن الواو زائدة.

ﷺ، لو سلمنا من البَغْضاء التي يتحملها بعضنا في بعض، أزالها الله بالاجتماع والموافقة على الكلمة السنية، والشريعة العلية.

وإنما ذكرتُ هذه البدع ـ وإن لم تكن مقصودنا استرسالاً عند ذكر ما ابتدع، لمصلحة ليعلم أنَّ الحقَّ يدوم بدوام الباعث عليه، ويزول بزواله، ولو طال زمانه وكثر اتباعه، ويعلم أنَّ للاجتماع أثراً، وللتفريق أشراً، ولقد كان الأولى بالنَّاس اليومَ إنكارُ البدع المتعلّقة بِالصلاة التي هي عمادُ الدِّين.

فمن ذلك:

ما أحدث في الصفوف من التقطيع، وتقديمُ من هو أهلٌ للتقديم، وتأخير من هو أهلٌ للتأخير، وتأديبُ مَنْ صلّى وحده مع القدرة على الدخول في الصَّفِّ.

قال ابن حبيب من علمائِنا: أدركتُ بالمدينة رجالاً موكَّلين بالصفوف، فإذا رأوا رجلاً يصلِّي خلفَ الصَّفِّ وحده وفي الصَّفِّ له مدخلٌ، تركوه حتى يفرغ من صلاته، ثمَّ ذهبوا به إلى الحبس، ومذهب أحمد بن حنبل بطلان الصَّلاة، ولقد رأيتُ عن يمين الإمام وشماله أهلَ الصناعات الدنية، كالدباغ والحداد والجزار، ومن اشتهر منهم بقلَّةِ الدِّين، وذلك يتكرر منهم كثيراً، ويليه أيضاً من جهة الفقراء من لا يفهم صلاته، ولا يعقل ما وجب عليه منها وفيها، ويُتْرِكُ الفقهاء والقُراء في أطراف الصفوف، وخلف تلك الجلوف.

وقد قال ﷺ: «**لِيَلِيَني منكم أولو الأحلام والنُّهى**»(١).

قال القاضي أبو بكر بن العربي: ينبغي أن لا يصلي خلف الإمام إلا مَنْ يصلح للاستخلاف، لما يتوقع من حاجة الإمام مَنْ يستخلفه، أو يردُّ عليه، أو يصلح صلاته.

قال: ولو سبقه من ليس هو كذلك أقيم، وقُدِّم إلى الأَمام مَنْ هو أحقُّ.

وأغربُ من هذا كلِّه أنَّه يأتي عاميٌّ أو جاهلٌ إلى مكان عالم أو فقيه له يصلِّي فيه نحو العشرين سنة، أو أكثر منها فيجلس فيه، فإذا قيل له: هذا موضع فلان، يقول: ليس في المسجد موضع لأحد، وأنا وهو في ذلك

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة «باب تسوية الصفوف وإقامتها» ١/ ٣٢٣ (١٢٢).

سواء، أين هذا المتعرض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من هذه المنكرات الخفيات؟

ومن ذلك ما يقع عند فتح أبواب الحرم الشريف في السَّحَر لصلاة الصبح من الزحمة والجري العظيم، وقلّة الأدب في تلك الحضرة الشريفة، وفي ذلك الوقت المبارك، والمضاربة والمشاتمة حتى إنَّهم ليقتل بعضهم بعضاً من شدَّة الخنق، ولقد أراد تكروريّان أن يقتتلا بالسكاكين في الروضة لأجل ذلك، وهذه المصيبة العظيمة تدفع بأيسر شيء، وهو لو كان قَوَمَةُ المسجد وأصحاب النوبة يفتحون للأول فالأول من الناس، ما حصل هذا البلاء العظيم، ولكنهم يتركون الناس على الأبواب حتى تضيق أنفسهم، فيدخلون دفعة واحدة يحطم بعضهم بعضاً، وإثم ذلك على من منعهم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]!

ومن ذلك السجاجيد التي يؤبدونها في المسجد ليلاً ونهاراً، ولقد كنت أعرف خُداماً موكلين بالسجاجيد كريحان الموصلي(١)، إذا وضع أحد سجادته ـ وما كان أهلاً لذلك ـ أخذوها ورموها، ومتى غلبوا عليهم وكثروا، جمعوا السجاجيد وأخفوها حتى يحترق عليها صاحبها، فيردونها عليه ويتوبونه، ولقد أحرقت مرة على باب النساء، وما زالوا على سائر الأزمان يهتبلون بذلك اهتبالاً عظيماً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الشيخ أبو عبد الله القصري(٢) رحمه الله: رأيت في المنام كأن ناراً استعرت في الروضة وهي تعمل في السجاجيد، وأنا أصيح: والله يا رب ما سجادتي من تلك السجاجيد، وكان يحكي هذه الرؤيا في الميعاد، وكان رضي الله عنه يقول: إذا جئت إلى الروضة ولم أجد لي فيها مدخلاً فرحت وسررت لما أرى من الحرص على الخير، وكان ـ رحمه الله ـ يقصد طرف الصف من جهة المنبر حتى يرفع البساط، ويصلي على الرمل.

ومن ذلك: علو الرّمل في الروضة، ووضع بعضه على بعض، ولقد

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» (١/ ٣٥٢).

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن غصن الأنصاري القصبري.

كنت دائماً أرى الشيوخ من أهل الخير ينفضون الرمل من الروضة ينسفونها نسفاً بالمساحي حتى يعلو ما حول المحراب من الرخام محافظة على قرب مقام المأموم من الإمام في العلو، وبالغوا مرة في الحفر، فوجدوا يداً مقطوعة مكفنة مدفونة في الروضة، كأنها قُطِعت ظلماً، فأراد مَنْ هِيَ منه أن تكون بحضرة النبي ﷺ جهلاً منه وقلة يقين بالله، فإن الله تعالى يعلم من ظَلم فيكافيه، ومن ظُلم فيجازيه، ومرة وجدوا إصبعاً مدفونة تحت الشباك.

وما زال العلماء والأئمة يتحرجون من كون الحضرة منخفضة انخفاضها اليوم، فمن قائل بالكراهة، ومن قائل بالمنع، وقد اعتبرتها اليوم بالذراع فو-جدتها ذراعاً بالرمل والبساط الذي علا عليها وعلى ترخيمها، وفي المذهب قولان في صحة صلاة الإمام والمأموم، وعلى هذا يجب القول بالمنع. وأما في أيام القاضي سراج الدين فمن بعده إلى أيام شرف الدين، فإنهم كانوا يرفعون مقام الإمام بشيء من الرمل حتى تزول الكراهة والمنع.

ولما قام في ذلك شرف الدين الأميوطي - رحمه الله -، وأراد إزالة الخشب وما حوله وطمس المقام أو رفعه، قام في وجهه الخدام وكرهوا أن يتغير مقام النبي ﷺ، واستعانوا على القاضي بالأشراف، فكف وانتقل عن المحراب، وصار يصلي إلى الإسطوانة التي تقابل إسطوانة الوفود، ولزمها إلى أن مات رحمه الله.

ثم ان الخدام رفعوا الرمل الذي كان يرتفع به المقام فنزل بزواله، ثم جعلوا الرمل على الترخيم الذي حول المحراب، فارتفع مقام المأموم وانخفض مقام الإمام واتضع، وصار من الفقهاء من يدفع الكراهة بما يحصل من القرب إلى مقامه ﷺ وموقع قدميه.

ويقول: في هذا من الفضل ما يوازي لي ما في ذلك من النقصان.

وهذه، والله أعلم، نزعة صوفية لا علمية ولا عملية.

وكذلك كل من رأيت بحث في هذه المسألة لا يصوب الانخفاض إلا لمعنى ليس من الشريعة، وما أقربَ قولهم إلى قلوب العامة وضعفة الفقهاء، وأسرعه إليها.

إذ يقال: ما يدنيني من محل كان الرسول الله يصلي فيه ويجلس عليه،

ويمَسُّ جبهتَه ويديه، أحق بأن أمرّغ وجهي عليه، وأملأ محاجري من تراب قدميه، وهذا حق وكلنا نقول به ونحبه، لكن الخير كله في اتباع سنته، وما أمر به، وما حضّ عليه، وهو ﷺ لم يكن موقفه من المأموم أخفض ولا أعلى، بل كان هو وأصحابه في الموقف سواء، فمن خالف سنته بالهوى فقد غوى، بل التمادي على المكروهات والبدع الموضوعات يعظمها ويصيرها كبائر، فمن قدر على التغيير والإزالة فلم يفعل، يخاف عليه أن عمله لا يقبل، وأن الله تعالى عن ذلك منه يسأل، ثم إن القيام في ذلك صار جانباً عن هذه المعاني، بل داخله حظُّ النفس والتعصب في صورة التعبد والتقرب، أعاذنا الله من حظوظ أنفسنا، وهدانا لما فيه صلاح ديننا، وألف بين قلوبنا، برحمته وكرمه.

ثم مع ما في المقام الشريف من الكراهة في الانخفاض أضف إليه كتابة القرآن العزيز في قِبلة الإمام والمأموم، ولا خلاف بين الناس في كراهة هذا حتى قيل ببطلان صلاة من قرأه واشتغل به مع التزويق العظيم والتذهيب الأنيق الذي يشغل المصلّيَ، ولو كان بالولاية متحليّاً، ألا ترى كيف ردّ رسول الله ﷺ الخميصة لما خاف أن يشغله عَلَمُها في الصلاة؟ وقال:

«ردوا هذه الخميصة على أبي جهم، وائتوني بأنبجانية أبي الجهم فإن عَلمَهَا كاد يفتني في صلاتي»(١).

وهذا إنما هو تعليم للأمة وتحذير لهم من أن يكون مثل هذا في الجملة من السُنّة.

وانظر إلى فعل أبي طلحة رضي الله عنه لما كان يصلي في حائطه، فطار دُبْسي، فطفق يتردّد يلتمس مخرجاً، فأعجبه ذلك فجعل يتبعه بصره ساعةً، ثم رجع إلى صلاته، فإذا هو لا يدري كم صلى!!

فقال: لقد أصابتني في مالي هذا فتنة فجاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام (٣٧٣)، ومسلم في المساجد، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام (٥٥٦).

وقال: يا رسول الله هو صدقة لله فضعه حيث شئت[1].

وفي «الموطأ»[2] أيضاً: أن رجلاً من الأنصار كان يصلي في حائط له بالقُفِّ ـ واد من أودية المدينة ـ في زمان التمر والنخيل قد ذللت، فهي مطوقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبه ما رأى من ثمرها، ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلى!!

فقال: لقد أصابتني في مالي هذا فتنة.

فجاء عثمانَ بن عفان ـ وهو يومئذٍ خليفة ـ، فذكر له ذلك.

وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الخير، فباعه عثمان بن عفان رضي الله عنه بخمسين ألفاً، فسمي ذلك المال: الخمسين.

وكم مثل هذا أثبتته السُنَّة خوفاً من مثل هذه البدعة.

قال أبو الحسن اللخمي في «التبصرة»: قال مالك رحمة الله عليه: كره الناس ما فعل في قبلة المسجد بالمدينة من التزويق؛ لأنه يشغل الناس في صلاتهم، وأرى أن يزال كل ما يشغل الناس عن صلاتهم وإن عَظُم ما كان أنفق فيه.

قلت: وإنما زخرف المساجد مَنْ زخرفها لمعنى قصدوه، لا للزخرفة، لأن الوقت كان من الكفر والجاهلية قريباً، فما كان يقوم للمسجد من التعظيم والتفخيم قبل ما صنع فيه ما يقوم له بعد ذلك، فأرادوا ذلك المعنى.

ومما يدل عليه: أن جامع بني أمية لما بني على هيئته اليوم بالفسيفِسَاء وولي عمر بن عبد العزيز، كره أن يكون المسجد على هيئة تشغل المصلي، فَأَمَرَ بأن تستر القبلة والجدار بالقباطي، ثم قدم الشام راهبان فسألوا عن الكشف حتى ينظروا إليه، فأرسلوا إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يسألونه في ذلك، فأذن لهم، فلما رأوه استعظموا ذلك، ودخل عندهم من مُلكِ الإسلام رهبة وعظمة، فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز.

---

(١) الموطأ «باب النظر في الصلاة إلى ما يشغلك عنها» (٢٢٠).
(٢) باب «النظر في الصلاة إلى ما يشغلك عنها» (٢٢٣).

فقال: أرى ما هناك يغيظهم ويكبتهم، ارفعوا القباطي فرفعوها.

وأما ما يتأوله بعض الناس أن الزخرفة مأذون فيها من قوله عليه الصّلاة والسّلام:

«لا تقوم الساعة حتى تزخرف المساجد»[1].

فهو غلطٌ بيّن، لأنه ﷺ عدَّ هذا من الأشياء التي تدل على فناء الدين وذهاب من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فقال: **«من أشراط الساعة أن تزخرف المساجد كأنها البيع والكنائس»**[2].

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذهب الرجال العاملون بعلمهم ... والمنكِرون لكل أمرٍ منكَر

وبقيت في خلف يزيّن بعضهم ... بعضاً ليدفع معور عن معور

وما أشين البدعة في مثل هذه الحضرة التي عُرض على النبي ﷺ تزيينها ورفع جذوعها.

فقال: **«بل عريشٌ كعريش أخي موسى»**[3].

أما ما فُعِل من ذلك لضرورةٍ أو لعذرٍ مَا، فيكاد أن يُغْتَفر منه شيء مَا وجد مبتدعه لبدعته عذراً إن خفف من ذلك قدراً، وإنما الميزان القويم، والقسطاس المستقيم، في اتباع هذا النبي الكريم، فالناس اليومَ في جانب عن سنته واتباع ملته وطريقته، وما أحق المجاورين له بالأدب معه، والسؤال عن أحواله وأقواله فيتبعونها، خصوصاً قَوَمَةَ مسجده الشريف، وخُدَّامَه، ويعلمون أن من خدمته ﷺ تعظيم العلم وأهله ورفع منزلتهم والقيام بحقهم، والتغافل عن زللهم والشفقة على ضعيفهم، لأن منزلتهم من النبي ﷺ رفيعة، ونسبتهم إليه عظيمة، إذ جعلهم الوارثين له، ولا ميراث لهم إلا ما حملوه من سنته وشريعته.

وفي الحديث أن أبا هريرة رضي الله عنه دخل السوق فقال لأهله:

---

(١) روى أبو داوود ٣١١ (٤٤٩) قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد».

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٢٤٤ (٧٤٠)، ورواية الحديث هنا بالمعنى.

(٣) سنن الدارمي ١/ ٢٣ (٣٨).

أراكم هاهنا وميراث رسول الله ﷺ يُقْسَم في المسجد؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا شيئاً.

فقالوا: يا أبا هريرة، ما رأينا ميراثاً يقسم!

قال: فما رأيتم؟

قالوا: رأينا قوماً يذكرون الله عزّ وجلّ، ويقرؤون القرآن، وينشرون العلم.

فقال: ذلك ميراث محمد ﷺ.

فواجب إذاً تعظيمهم وتوقيرهم، وما أحق من إلى الرسول ﷺ انتمى بهذا المعنى، فإن سر المخدوم يسري إلى خادمه فيتأدب بآدابه، ويشكر الله تعالى إذ جعله على بابه ومن حُجَّابه، وأن أَهَّلَهُ لنسبة الخدمة، وكفى بها من نسبة، فيقال: خادم النبي ﷺ، ويُمثل نفسه الغوية بين يديه ﷺ، فيرضى لها من الأدب ما يعلم أنه يرضاه لو رآه، وأين القلب الصافي، والعقل الوافي، الذي ينظر الأولياء بهما في هذه المعاني.

تنبيه

حكى لي الشيخ الإمام العلامة أقضى القضاة جمال الدين محمد بن أحمد المطري[1] أنه كان بالمدينة الشريفة رجل صالح عظيم القدر من أرباب القلوب يقال له: الزجَّاج، وكان شيخاً لجمال الدين وللشيخ محمد بن إبراهيم المؤذن[2]، وكانا بعد موت والديهما مؤذنين متواخيَين في رئاسة الأذان، يتعاقبون في الوقت.

قال لي: فكنا نجيء إلى باب المسجد في السّحَر للدخول لأجل الأذان، فنجد الشيخ قاعداً على الباب في ذِكرٍ وقراءة.

قال: فأدق الباب، فيقول لي صاحب النوبة: من هذا؟

(١) ترجمته في: «لحظ الألحاظ» ص١١٠، «الدرر الكامنة» ٣/ ٣١٥، «الأعلام» ٥/ ٣٢٥، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤١٣.

(٢) هو: محمد بن إبراهيم بن محمد الجمال أبو عبد الله الكناني؛ ولد سنة ٦٢١، وكان شيخاً صالحاً خيّراً فاضلاً، رئيساً بالحرم، توفي سنة ٧٢٧. انظر ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٠٧، «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٤/ب.

فأقول له: محمد. فيفتح لي، ثم يجيء صاحبي فيفعل معه مثل ذلك، ثم كذلك لثالثنا، وكان اسمه عبد الرحمن، من قرابة الشيخ محمد بن صالح[1] نائب الإمامة والخطابة.

قال: فخلا الشيخ بي وقال لي: يا محمد، أنت تتصور ما أنا وأنت فيه كل ليلة؟

فقلت له: لا علم لي.

فقال لي: صدقتَ، لو علمت لظهر عليك أثره. ثم قال لي: أحضر عقلك وانظر إلي كيف أبقى بعدك محجوباً عن الدخول، وأنت مأذون لك دوني، فتدخل وتجتمع بمحبوبك وتخلو به وتتلذذ بمناجاته، وأنا مطرود وراء الباب مبعود! يا بني هذا حال الآخرة، لا يفعل بك مثل ما هو اليوم يفعل بي.

قال: فوجدت بذلك مَوعظةً عَظيمةً كنت عنها غافلاً.

فانظر إلى هذا الشيخ كيف نبه على هذا الكيف، وحال من انتمى إلى هذا المحل يجري هذا المجرى، أليس هو ﷺ يسمع من يُسلم عليه؟

فإذا وقف أحدنا بين يديه كوقوف المملوك بين يدي المالك، وقد خالفه في أمره له ونهيه، وارتكب من الأخلاق السيئة ما لا يرضى به، أليس جديراً بأن يُعْرِضَ عنه، ويَغْضَبَ عليه، ويقول له بلسان الحال: أنت لا تصلح لقربي، ولا أن تكون في زمرتي، ولا أرضى أن تكون معي، بأي وجه تأتي إليَّ وأنت المسيء إلى جيراني وأحبابي، ومن هو منتمي إلى سنّتي؟

فما الجواب يا ضعيف الرأي، وقد أخرك عملك، وجنى عليك خُلُقك؟

ولا أقول هذا لغيري حتى أبدأ بنفسي، ولهذا أمثال في شريعته ﷺ يشهد لما ذكرته.

---

(١) هو: محمد بن صالح بن إسماعيل الشمس بن التقي الكناني: ولد سنة ٧٠٣، تولى الخطابة والإمامة، وكان عارفاً بالقراءات، توفي سنة ٧٨٥. انظر ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٨٤، «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٥٧.

قال علماؤنا رحمهم الله: إذا أكرى رجل داره لرجل، فظهر منه دعارة، أو فسق، أو شرب خمر، أو سرقة، أو شبه ذلك مما يؤذي الجيران، فإن الحاكم يَكُفُّ أذاه عن رب المنزل وعن الجيران، فإن كَفَّ وإلا أُخرج منها ولزمه كراؤها، فإن جاء من يكتريها، وإلا تركت خالية ووزن كراءها.

وكذلك لو كانت الدار ملكه، وظهر منه شيء من ذلك عاقبه الحاكم على ذلك، فإن لم ينته أخرجه الحاكم منها وباعها عليه ليستريح جيرانه من ضرره.

وفقنا الله للأدب في هذه الحضرة الشريفة، ورزقنا حسن جواره ﷺ وشرف وكرم.

فاحذر أن يُمحى اسمك من جيران المجاورين، وأن تُحبطَ خدمتك لهذا النبي الكريم ﷺ، وأن تُنفى عن هذا المحل الأسنى إن لم يكن حساً فبالمعنى، فيجب على كل من انتمى إلى هذا الجناب الكريم أن يتخلق بأخلاقه ﷺ، ويعامل جيرانه بما يرضيه من احترام الكبير والصغير، والشفقة عليهم والعفو عن المسيء.

فمن أخلاقه ﷺ: **الحلم والاحتمال، والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكره.**

ولما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أُحُد، قيل له: يا رسول الله لو دعوتَ عليهم.

فقال: **«إني لم أبعث لعاناً، ولكن بعثت داعياً ورحمة لهم، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».**

قال القاضي عياض[1]: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل [ودرجات الإحسان][2] وحسن الخُلق، وكرم النفس وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم.

---

(١) الشفاء: ١/١٠٦.

(٢) ساقطة في جميع النسخ، وما أثبته من «الشفا».

فقال: «اللهم [اغفر أو][1] اهد»، ثم أظهر سبب تلك الشفقة عليهم والرحمة.

بقوله: «لقومي»، ثم اعتذر عنهم بجهلهم.

ولما قال له الرجل: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. لم يزده في جوابه أن بين له ما جهله، ووعظ نفسه وذكرها بما قال له.

ومن عظيم عفوه وصفحه: عفوه عن اليهودي الذي سحره، وعفوه عن اليهودية التي سمته في الشاة، وكفه عن المنافقين مع علمه بنفاقهم وسوء نياتهم، وعفوه عن الأعرابي الذي جبذه بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البُرد في صفحة عاتقه الشريف، ولما أَظهرهُ الله على قريش، لم يشكّوا في استئصال ساقتهم، وإبادة خضرائهم، فعفى عنهم.

وقال ﷺ: «ما تقولون إني فاعل بكم»؟

فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا فأنتم الطُلَقَاءُ».

وروي[2] أن أعرابياً جاء يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال له: «أحسنت إليك»؟

فقال الأعرابي: لا، ولا أجملت.

فغضب المسلمون وقاموا، فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئاً.

ثم قال ﷺ: أحسنتُ إليك؟

قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي منك شيء، فإن

---

(١) ساقطة في جميع النسخ، وما أثبته من «الشفا».

(٢) الشفا: ١/١٢٣. قلت: قال الخفاجي في «الشرح» ٢/٧٥: هذا الحديث رواه البزار عن أبي هريرة بسند ضعيف، وكذا ابن حبان وغيره ولم يسموا الأعرابي اهـ.
وقال ٢/٧٨: وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبي هريرة وابن حبان في «صحيحه» وابن الجوزي في «الوفا» اهـ.

أحببت فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك.

قال: نعم.

فلما كان الغدُ أو العشي جاء فقال ﷺ: «**إنّ هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟**».

قال: نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال ﷺ: «**مثلي ومثل هذا، مثل رجل له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجَّه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار**».

ولما كذبه قومه، ناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال: مُرني بما شئت، إن شئتَ أطبقت عليهم الأخشبين؟.

فقال ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً**».

وقال له جبريل عليه السلام: إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أؤَخرُ عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم**».

ورفقه عليه الصلاة والسلام بالأعرابي الذي بال في المسجد، وقال لأصحابه: «لا تزرموه».

وأما حسن عشرته وأدبه فقد انتشرت به الأخبار الصحيحة.

وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه في وصفه عليه الصلاة والسلام: كان أوسع الناس صدراً، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.

ومن ذلك قصته ﷺ مع قيس بن سعد، لما زار سعداً وأراد الانصراف، قرب سعد حماراً ووطاء عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ.

ثم قال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ.

قال قيس؛ فقال لي رسول الله ﷺ: «اركب»، فأبيت.

فقال لي: **«إما أن تركب، وإما أن تنصرف»**، فانصرفت.

وفي رواية أخرى: **«اركب أمامي، فصاحب الدابة أولى بمقدمها»**.

وكان رسول الله ﷺ يُؤلفهم، ولا ينفرهم، ويُكرم كريم قوم ويُولّيه عليهم.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما كان أَحدٌ أحسن خُلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أَحدٌ من أصحابه وأهل بيته إلا قال: «لبيك».

وكان يُمازح أصحابه ويُخالطهم ويُحادثهم ويداعب صبيانهم ويُجالسهم، ويُجلسهم في حجره، ويُجيب دعوة العبد والحر والأمة والمسكين، ويَعُودُ المرضى في أقصى المدينة.

ولقد قال يوماً: **«أينَ فلان»**؟

فقيل: مريض.

فقال ﷺ: **«نذهب إليه لنعوده»**.

فقيل له: بعيد منزله.

فقال ﷺ: **«منه كان يأتينا»**.

وكان ﷺ يَقبل عُذر المُعْتذر.

وقال أنس: ما التقم أحدٌ أُذُنَ رسول الله ﷺ فيُنَحِي رأسه، حتى يكون الرجل الذي يُنَحِّي رأسه، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يده، حتى يرسلها الآخر، ولم يزل على خُلُقٍ عظيم، ولم يرىٰ مُقدماً ركبتيه بين يدي جليس له، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمُصَافحة، ولم يُرَ قَطُ ماداً رجليه بين أصحابه حتى لا يُضَيقَ بهما على أحد، حتى إنه يوماً أراد أن يمُد رجله لتعب لحقه، فتلطف إلى جلسائه، فمد رجله الكريمة.

وقال لهم ﷺ: **«ما تشبه هذه؟»**.

فدارت أذهانهم إلى وجوه المشابهة، فلما أعيوا وقد استراح، مد الأخرى وقال: «هذه»، يعني ﷺ أنه لا يشبهها إلا الأخرى، فحصل مقصوده مع بقاء حسن الأدب معهم ﷺ.

وكان ﷺ يُكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويُؤثره بالوسادة، ويَعْزِمُ عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويُكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز، فيقطعه بنهي أو قيام، ويُروىٰ: بانتهاء.

ويُروى أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته، وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته، وكان أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً، ما لم ينزل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب.

وكان ﷺ يفلي ثوبهُ، ويحلبُ شاته، ويَرقعُ ثوبه، ويَخْصِفُ نعله، ويخدم نفسه، ويقمُّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف الناضح، ويأكل مع الخادم ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق.

وقال أنس رضي الله عنه: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفّ، قَطُّ، ولا قال لي في شيء صنعتُه: لَمَ صنعتَه، ولا لشيء تركتُه: لَمَ تركتَه؟

وكان ﷺ قد وسع الناس بسطه وخُلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء.

وكان دائم البشر سهل الخلق، لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مزّاح، ولا يَجْزِ بالسّيِئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ﷺ، ولو تُتُبِّع هذا لملأ الصُحف فصوله وأبوابه، وأعجز الكتاب تدوينه وكِتَابه، فحقٌّ على جميع أمته؛ العامي والشريف، والقوي منهم والضعيف، خصوصاً مَنْ جاوره وخدم ضريحه، أن يقتبس من أخلاقه، ويتأدب بآدابه، ويروض نفسه الغَوية على اتباع سنّته العلية، ولو أن يَكُف يده إذا غُلِب على لسانه، ويعظِّم من تفقه في دينه، واتبع سُنّة نبيه محمد ﷺ وسَنَن آله وصحابته، وإذا رأى من حملة القرآن والعلم أحداً سُرَّ به وبرؤيته، وسأل من دعوته، ولا يسيءُ الظن بأحدٍ بأدنى هفوة أو زلة، فإن الإنسان ليس بمعصوم ولو حاز كل العلوم.

فصل

ولقد أدركتُ من الخدام الصالحين، ومن المجاورين العالمين العاملين، أقواماً على الخير متعاونين، وعلى البر متظاهرين، وبسنته ﷺ عاملين، رحمهم الله أجمعين.

فأول مَنْ أدركتُه من مشايخ الخدام بالحرم الشريف ممن عقلْتُه العزيزي، عزيزُ الدولة[1]، وفي أيامه غُرِسَ كثير من النخل الذي بالمسجد اليوم، وكان منه شيء قبل العزيزي ومات أكثره.

وإن قلت: كيف فعل ذلك وهو من البدْع المنهي عنها، وكيف ترك ورأيه في ذلك؟

قلت: المسألة مُختلفٌ فيها، فمنهم مَن منع، ولا يكون الإنكار سمحاً إلا في مسائل الإجماع فيها، وأما حكم ثمره؟ فقد سئل مالك ـ رحمه الله ـ عن شجرة نبتت في صحن المسجد، أو المقبرة، أو محجة الطريق؟

قال: أكلها حلال لجميع المسلمين.

وكان كثير الخير والبر، وقف من النخيل شيئاً، وحرَّر من الأرقاء جمعاً غفيراً، وكان العزيزي ـ رحمه الله ـ يوالي الأشراف، ويحسن إليهم إحساناً كثيراً، حتى اتُّهم بمذهبهم، لكثرة اختلاطه بهم، وقضاء حوائجهم، كنتُ إذا مررت عليه مع جماعته ذاهباً إلى سيدي الشيخ أبي محمد البسكري وهم جلوس بين باب النساء وباب جبريل صفّاً واحداً، أقول بأعلى صوتي: السّلام عليكم، فيردُّون كلهم حتى تسمع لهم لُجةً عظيمة، ثم ينادوني، ويقولون: خذ جزاء تحيتك، فيعطيني كل منهم على قدره، وأول من يبدأني الشيخ رحمه الله، وأحياناً يذهب بي إلى بيته ويخرج الكيس من خَرَزَة حَجَرِ

---

(١) ترجمته في: «المغانم المطابة»، الورقة ٢٤١/أ.

أعرف اليوم مكانها من البيت، فيعطيني ويبرُّني ويفرح بي. جزاه الله خيراً، وأعظم له أجراً، توفي عزيز الدولة سنة سبعمائة.

ثم خلفه في المشيخة شبل الدولة كافور المظفري[1] المعروف - بالحريري - رحمه الله، كان من أحسن الناس شكلاً، وأتمهم كمالاً، وكان مهيباً قد ملأ قلوب الشرفاء رُعباً، كان إذا انكسر قنديل، أو وقع تجصيص يصيح حين وقعته صيحة يغلب بها، يرجف أهل المسجد من قوتها وعظم مبلغها.

وكان يقول: إنه تَوْأَمُ، مات أخوه بعد أن ولدتهما أمهما، وكان له على الأميرين سلار وبيبرس[2] الجاشنكير دلّية بتربية، حتى إنهما لما حجَّا والوه بأحسن الموالاة، فكلمهما في بناء المنارة التي بباب السلام اليوم، فأنعما، ثم إنه خشي أنهما يشتغلان بملكهما عن ذلك، أو يستثقلان النفقة على عمارتها، فقال: أنا لا أطلب منكما مالاً، عندي من قناديل الذهب والفضة ما يقوم بها وزيادة، فأنعما له بإرسال الصنّاع، وشرع هو في تحصيل الحجر والمؤنة بينما يأتي الحاج، فحمل من الحجر ما يحتاج إليه من أنواعه كلها، فكانت كالجبال فيما بين بابي الرحمة والسلام، وأمر بالحفر لها في مكانها اليوم، فلم ينزلوا إلا قليلاً إذ وجدوا باب مروان بن الحكم أسفل من أرض المسجد بقدر قامةٍ، ثم وجدوا برنية فخار ملأى بدراهم مظفرية قد استحالت صفتها من طول مكثها، ثم وجدوا تحصيب المسجد في أيام مروان بالرمل الأسود يشبه أن يكون من جبل سلع، وذلك تحصيب عام في سائر مسجدهم القديم، لأنهم لما أسَّسُوا الرواقين اللذين زادهما الملك الناصر شمالي الروضة المقدسة في سنة تسع وعشرين وسبعمائة، وجدوا ذلك التحصيب، فوقفتُ عليه فوجدته يشبه ما وجدوا في أساس المأذنة، وسُمكه نحو ذراعين بالعمل أو أكثر، ثم إنهم نزلوا في الأساس حتى بلغوا

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٦١ (٦٧٦)، وذكره في: «التحفة اللطيفة» (٢/ ٣٩٠) نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) وقعت العبارة في جميع النسخ ما صورته: «الأمير بن سلال وبكير بن سكبد ربكيد»، وقد صححتها من: «التحفة اللطيفة»، و«الدرر الكامنة».

الماء، وكان بعض المؤرخين يذكر أن هناك مأذنة مشرفة على دار مروان فهدمها غَيرةً على أهله من مُؤذنها، فلم يجدوا لذلك صحة ولا أثراً البتة[1].

وكان الحريري ـ رحمه الله ـ مباشراً ذلك كله مجتهداً بنفسه وماله وخدامه، ثم إنه أمر من كان بالمدينة يتعانىٰ البناية كالشيخ إبراهيم البنا والشيخ علي الفراش، وغيرهما ممن ليس له في البناية كبير قدم أن يحفروا الأساس، فحفروا إلى أن ظهر الماء، وأخرجوا منه شيئاً شرب منه الشيخ، وشرب الناس منه، يرون ذلك بركة ومسرة وتفاؤلا بتمام العمل، ثم دَكّوا الأساس، فلما جاء الموسم وحضرت الصناع والمعلمون، كان فيهم المقدم عليهم في البناية والهندسة والدراية.

فقال للشيخ: لمَ استعجلتَ علينا؟. لا نبني على هذا حتى تنقضه جميعه، فإن لا نأمن عاقبته، وألحَّ في نقضه، فألحَّ الشيخ في تركه على حاله فرجع إلى مصر من حينه، وقال: أنا أخشى من الدرك، وما يلحقني في صنعتي من العيب، فقال الشيخ لمن كان معه من المعلمين: اعملوا عملكم والله تعالى يتممه ببركة هذا النبي الكريم، فعملوها على ما هي اليوم عليه، وعمَّ نفعها وعظم أجرها، وصارت في صحيفة مَنْ سعى فيها، والعملُ اليوم عليها لأنها متوسطة المدينة حتى إن رئيس المؤذنين محمد بن إبراهيم[2] قال لي رحمه الله: لو تُركت لي هذه المأذنة لكفت المدينة، وهو الحق، فإن المدينة من جهة الشمال قليلة العَرْض، وإنما امتدادها وقوة عمارتها وكثرة أبياتها من جهة الغرب، وكانت عمارتها في سنة ست وسبعمائة.

وإنما ذكرت حكاية المأذنة، لأن ذكرها مما نحن بسبيله من المحدثات في المسجد للمصلحة العامة للمسلمين.

ومما للشيخ الحريري من الآثار الحسنة: تبطيل الطوف بالشعل من جريد النخل، وتبديلها بالفوانيس التي يطوفون بها اليوم كل ليلة بعد صلاة

---

(١) ذكر هذه المأذنة ابن النجار في «تاريخه».

(٢) هو محمد بن إبراهيم العسقلاني، وقد تقدمت ترجمته.

العشاء الأخيرة، وذلك أنهم كانوا قبل الحريري وصدراً من ولايته يأخذ عبيد الخدام وبعض الفراشين شُعلاً من سعف، فيطوفون بها عِوَضَ الفوانيس يَجْرُون بها كأشد ما يكون من الجري، فإن وصلوا باب النساء خرجوا بها، وخبطوا بما بقي معهم منها، فكانت تسود المسجد وتسود بابه أيضاً، وفيها من البشاعة ما لا يخفى، فأمر بالفوانيس عوضاً، وترتبت في صحيفته رحمه الله تعالى، وكان يوالي المجاورين ويحسن إليهم ويقضي حوائجهم.

وسيأتي فعله مع المجاورين حين أمر الأمير منصور بإخراجهم وارتحالهم بأولادهم وعيالهم، ومناقبه كثيرة، وحسناته عديدة. توفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة.

ثم خلفه في المشيخة سعد الدين الزاهري[1]، ولم يمكث إلا قليلاً نحو سنتين، وكان قد عَمِي وكفَّ بصره، فلم يقم بوظيفة المشيخة على ما ينبغي، فلما حج الملك الناصر[2] الحجة الثانية وهي سنة تسع عشرة وسبعمائة وقدم المدينة زائراً ودخل الحرَم، فوجده أعمى، فعظم ذلك على السلطان فعزله، ثم وَلَّى في الحين ظهير الدينْ مختارَ[3] الأشرفي رحمه الله، وكان له هيبة وصَولة مع زمانه بالنسبة إلىٰ من قبله، فقام بالمشيخة أحسن قيام، وأدخل الرعب في قلوب الشرفاء والأمراء، واستخلص من أيديهم أوقافاً وأملاكاً كانوا هم وآباؤهم فيهما كالمارستان اليوم، والفرن الذي أمامه، والحوش الذي بإزائه، ودار المدرسة الشهابيَّة، ونخيل وغير ذلك.

ولأجل هيبته عَزَّ المجاورون والخدام، وقويت حرمتهم، ولم يزل كذلك حتى حج النائب أرغون[4]، وشكوا عليه ما يلقون من الشيخ، فكأنه تكلم عليه بحضرتهم كلاماً غض من صولته، ورده عن شدته، ولم يمكث بعد ذلك إلا قليلاً حتى توفاه الله إلى رحمته.

---

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ١/ ٣٩٤ (١٤٨٦).

(٢) هو الناصر محمد بن قلاوون.

(٣) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٤٥ (٩٣٨).

(٤) هو: أرغون الدوادار، أحد مماليك السلطان منصور، اشتراه ورباه مع ابنه الناصر محمد. انظر ترجمته في: «الدرر الكامنة» ١/ ٣٥١ (٨٧٣).

وكان من المجاورين من يركن إلى الأمراء ويجتمع بهم في منازلهم، ويطلعهم على أحوال الخدام والمجاورين، فأقسم فيهم أن من طلع القلعة منهم لم يكن له وظيفة ألبتة، فانكف الناس، وأخرج جماعة من الأسباع واستبدل بهم.

وأخرج جماعة من الفراشين وقطع معلومهم، حتى غابوا في الهند سنين عديدة، مثل ياقوت الصالحي، وبُرْدَة الحريري، وسعيد التاجي، وغيرهم من أهل الأخبار، وكان يجلس قريباً من الأسباع، فأيُّ من غاب عن وظيفته، أُخِذَ قسط ذلك اليوم في حينه، وبذلك انضبطت الوظائف، وصار ليس له مخالف، وعمرت الأوقاف في أيامه، وكان له منه نصيب وافر، ولما توفي والدي رحمه الله في أيامه حفظ علينا وظائفه، ورفق بإخوتي رحمه الله. توفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة.

ثم خلفه في المشيخة ناصر الدين نصر[1] عطا الله، وكان قبل ذلك من إخوان المجاورين وأحبابهم، مواخياً لجمال الدين المطري لا يخرج عن رأيه ولا مشورته، وإن كان الشيوخ كلهم بهذه المنزلة معه، فكان هذا له أعظم وبه أبر، وكان من أحسن الناس صورة وأكملهم معنى، وكان يحفظ القرآن، كثير الصيام، مهيباً في جماعته من غير ضرر[2] ولا تهديد، ولا وعد ولا وعيد، وجد الأحوال[3] بعد الظهير[4] متمهدة فزادها تمهيداً، ومع ذلك فإذا قام في أمرٍ تمَّمه، لا يرجع عن رأيه فيه لأحد، ولو قام في ذلك وقعد، وكانت مدة ولايته أربع سنين. توفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة.

ثم خلفه في المشيخة عز الدين دينار[5]، فكان رحمه الله ذا حشمةٍ

---

(١) ذكره في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٩٣ (١٠٧٨)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٦١ (٢٩٧١) نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) في (ب)، (ج): «ضرب»، وما أثبته كما في (أ)، و«التحفة اللطيفة».

(٣) في: «التحفة اللطيفة» لفظة: «الأموال» بدلاً من «الأحوال».

(٤) يقصد ظهير الدين مختار الأشرفي المتولي المشيخة عوضاً عن سعد الدين الزاهري، وقد مر ذكره.

(٥) واسمه: دينار الشهابي المرشدي الشافعي، ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٣٢ (١١٩٢)، «الدرر الكامنة» ٢/ ١٠٣ (١٧٠٤)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٤١/ ب.

ودين، وعزة وحسن يقين، صحب المشايخ الكبار من المجاورين، فتأدب بآدابهم، واكتسب من أخلاقهم، فلزم قراءة القرآن، وجاهد نفسه بالصيام والقيام والصدقة والإحسان، وأوقف أملاكاً ما بين نخيل ودور، وأعتق خُداماً وعبيداً وإماءاً يزيد عددهم على الثلاثين، وعلّق من خدامه في الحرم سبعة، وكفل أيتاماً وحُرَماً، ونعّمهم بالمأكل والملبس والمسكن حتى كانوا يُعَدُّون من عياله، وله مناقب جليلة، ومحاسن عديدة.

منها: أنه لما سافر إلى الديار المصرية استخلف على بيته وأمواله بعض أصدقائه من المجاورين، وكان في البيت إماء وعبيد وخدام، فاستأمنهم الوكيل، وظن أنهم لا يتفقون على الخيانة، فخربوا البيت وضيعوا أكثر ما فيه، فلما قدم الشيخ عزّ الدين من مصر، فَقَد ما خلفه في بيته فسأله عنه. فقال: لا علم لي بشيء، غير أني كنتُ أخرج لهم نفقتهم، وأصرفُ عليهم ما يحتاجون إليه، ولا أعلم من حالهم شيئاً، ولم أظن فيهم أنهم يتواطؤون على الخيانة، فحاسبه على ما خلّفه في بيته، فوجدوه قد نقص مقدار أربعة وعشرين ألف درهم.

فقال له: هذه لازمة لك بحكم الشرع، لأنك فرطت فيما وكلتك فيه.

فقال: نعم. ألتزم بها وأقوم بأدائها، فتقوّم من أملاكي ونخيلي ما شئت، فخلا الشيخ بأصحابه وشاورهم في ذلك. فقالوا له: المفرِّط أولى بالخسارة.

فقال لهم الشيخ: لم يُصِب رأيكم، رجل صحبته في الله، وأقرأني القرآن، أغرمه شيئاً أفسده عبيدي ولم يتدنس منه بشيء، معاذ الله من ذلك، وأبرأ ذمته. ولم يزل له صديقاً إلى أن فرق الموت بينهما. رحمهما الله تعالى.

له بالحرم الشريف آثار حسنة، وكان فيه من الشدة في الدين على الأشراف ما كان في ظهير الدين وزيادة، مع الانقياد إلى الشرع والموافقة على الخير، وكان حين ولايته في القاهرة سعى في المشيخة صفي الدين جوهر[1] خادم اللالا فأعطيها، وكان بينه وبين جمال الدين المطري شيء

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٥٢ (٨١٠)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ١/ ٥٤٤ (١٤٧١).

ألقاه بينهما بعض الناس، فلما شاع في المدينة خبر ولايته، تسلط أهل الشر على جمال الدين، وشغبوا عليه بكثرة القال والقيل وتوعّدوه، وكانوا عصبة شر عفا الله عنا وعنهم، فلحقه من كلامهم همٌّ وغمٌّ.

وقال لي رحمه الله: رأيتُ ليلةً في منامي، وقد همَّني ما أسمع منهم من الأذى، كأنَّ باب جبريل حُوِّل إلى باب الرحمة، وأنا أقول: كيف يُزال باب ثابتٌ إلى غيره، ويبقى هذا الباب ماله باب؟

فلم يكن إلا قليلاً، إذ جاء الخبر بأنهم رجعوا عن خادم اللالا، وولوا عزّ الدين. وكان عزّ الدين في باب الرحمة كما هو اليوم، وبيت جوهر اللالا كما هو اليوم مجاور رباط صفي الدين السلامي رحمه الله، فتفسر المنام، فزال عن جمال الدين ما كان يجد، ورجع كل من أهل الشر إلى ورائه، وكان بين عزّ الدين دينار وبين جمال الدين من الاتحاد والمحبة، وسماع الكلمة، مثل ما كان بينه وبين ناصر الدين نصر عطا الله وأكثر، وكان الشيخ عزّ الدين - رحمه الله - لأولاد المجاورين كالأب الشفيق، إذا رأى أحدهم سأله عن حاله وحال أهل بيته وأولاده.

يقول: كيف أولادنا؟ كيف إخواننا؟

ويقضي الحوائج بطيب نفس لا يتنكر ولا يَحردُ، فإذا انزعج أو غضب، رجع عن قريب لم يئس من خيره، ولو آيس بقوله، وصرَّح بعذره، وطالت مدته أكثر من غيره. وسأذكر وفاته رحمه الله في ولاية الشيخ افتخار الدين ياقوت.

ثم سعي عليه فعزل، وولي شرف الدين مختص الديري[1]، فجاء الناس بأخلاق تركية لم تتهذب برياضة، ولا بحجّ وزيارة، وقامَ بهيبة وعزّة، ولقد جلس يوماً في المجلس الذي كان غيره يجلس فيه، فجاء شهاب الدين العاوي ليجلس في صفّه لا في جنبه، فأقامه بنهرة، وعزَّ عليه أن يستويَ معه في صفّه، وكذلك فعل بغيره حتى كان لا يجلس إليه، إلا منْ يُدِلُّ عليه، لكنه كان له رغبة عظيمة في العمارة، فانعمرت الأوقاف في أيامه، ولو استمر فيها لكثر خيرها.

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٤٤ (٩٣٦).

كان يخرج كل يوم غالباً فيباشر الغرس والعمارة، ويخرج معه بعيش رغيد، وخير كثير، وكان جماعة الخدام في أيامه وقبلها، يباشرون الأوقاف بأنفسهم، ويحضرون الجداد بأعوانهم، وخدامهم، وعبيدهم، ولا يتناولون على ذلك أجرة ألبتة، ويخرجون معهم بالأطعمة الكثيرة الفاخرة المليحة، ولهذا كانت الأوقاف مباركة وغلاتها متزايدة، والبركة عليها لائحة، حتى خلفهم من لا يتحرك في وقف إلا بأجرة، وليته يعمل فيها بنيةٍ صالحة حتى يثاب عليها في الآخرة، وكانت أيضاً تعمر ببركة نيته، ولو أخذ أجرته. لكن اليوم أكثر الأوقاف دامرة؛ لأن غلتها لا تردّ في عمارتها كما أوجبه الشرع لها، فلذلك خربت وقلّ خيرها.

ولقد شاهدت منذ زمان كان الناسُ فيه ناسٌ، يعطى الزائر فوق الصاع من التمر البرْني، حتى إن العصبة إذا أخذوا التمر يكومونه على أنطاعهم كوماً، يتعسل بعضه فوق بعض، ومع ذلك يبقى التمر السنتين والثلاث حتى يسودَّ، ولا يجدون من يأخذه.

ولقد كنتُ في حال صغري، إذا رآني خزنة التمر ينظرون مَنْ يحمل لي منه، فيذهب به إلى بيتنا، حتى أنكر ذلك والدي ووالدتي، فهددني والدي. وقال: لئن رجعتَ تأتي إلينا من تمر الفقراء بشيءٍ، فعلنا بك وفعلنا، وكان لا بدَّ لي من المرور عليهم؛ لأن التمر كان يخزن في دار الخدام المجاورة للتربة التي عمرتها زوجة ابن علم، وفي المدرسة الشهابية، ولمّا لم يكن بُدٌّ أنهم يعطوني، ترصد لي حمّال يقال له: ناشي، يأخذ ما يعطونني.

فأقول له من خوف أهلي: خذه ولا تأتيهم به، فيأخذه، فعل معي ذلك مراراً. كلُّ ذلك منهم محبة في أولاد المجاورين ورفقاً بأهاليهم.

وكان النخل من الغابة والعمرية إذا استجد، لا يُخْلَصُ منه في شهر ليلاً ونهاراً.

ولقد رأيت الحمالين يضعون أحمالهم من باب رباط الفاضل، إلى باب التربة التي نزلها الشيخ افتخار الدين، ومن رباط دكالة أيضاً إليه إذا جاؤوا مع المغرب، لا يفرغون عن حمله وتفريغ غرائره إلا قريب الصبح.

هذا كله من التمر البرني، وأما ألوان النخيل فلم تكن في حساب، فأين تلك البركات ذهبت؟! والله مع نيات القوم، والله المستعان.

ثم سُعي على الشيخ فعزل، ووُلي شرف الدين الخزنداري، وكان وُصوله بالمشيخة في أواخر سنة اثنين وأربعين وسبعمائةٍ، كان فحلاً حذقاً صُلْباً، عارفاً بأمور الدنيا وتصاريفها، طالت مدته فولي الولاية في القاهرة على أخباز الخدام نقاده وغيرها، فثوَّر الفلاحين بدهائه، وأتعبهم بأمره ونهيه وتعنُّتَاتِه، وكان إذا حقد شديداً، إذا استرضي لا يرضى مع طلاقة الوجه ولين الكلمة، وممن كان من أحبابه وأخلائه الشيخ عبد الرحمن بن ياقوت[1] المؤذن الكبير القدر في القراءة، مع حسن الصوت وسلامه الصدر، وحُسن الخُلقُ والكرم العظيم في الحضر والسفر، سافر معه إلى القاهرة وبات معه ذات ليلة في دار واحدة، فكأن الشيخ عبد الرحمن قام من نومه بدهشة اختل فيها عقله، فأخذ السيف وضرب به شرف الدين ضربة أخطأته، فَمُسِك وَقُيد، حتى زال عنه ذلك، فغضب عليه وسعى به عند الولاة والحكام حتى سجن، ثم جعل في رجليه قيد، وأدخل في الذين يخدمون في أعمال السلطان من أهل الجرائم الكبار، وهو مسكين ضعيف البُنيَة، كثير الصوم والعبادة وتلاوة القرآن، فاستمر على ذلك مدة والناس يدخلون على شرف الدين ليغفر له فلم يفعل، حتى سخر الله له مَنْ أطلقه من ذلك وأرسله إلى الحجاز.

فلما وصل الخزندار إلى المدينة أَتْبَعَهُ في وظائفه، وفي نفسه وعياله، وسعى عليه عند الأمراء ليخرجوه من المدينة، فلم يطيعوه في ذلك، ومنعوه من الدخول إلى القاهرة والسفر إليها، والإقامة بها بسبب ما يكتب فيه لأصحابه، ولم يزل معه كذلك إلى أن طالت المدة ونسيت القضية، وعاش بعده الشيخ عبد الرحمن إلى الآن، نفعنا الله به.

وكانت مدة ولاية شرف الدين الخزنداري سنتين، ثم سعى عليه شرف الديري[2] فتولى المشيخة، فلم يكمل له سنة، حتى جاء الخبر بعزله،

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٥٧ (٢٥٦٧)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) يقصد شرف الدين مختص الديري، وقد تقدم ذكره.

وتولية عزّ الدين[1] واستنابة شمس الدين الجمداري[2] عنه، ثم جاء عزّ الدين مع الحاج، وسافر الديري إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي، وأقام شرف الدين الخزنداري في المدينة مع الشيخ عزّ الدين مُعظماً مُحترماً مسموع الكلمة، وكان له من الخدام جماعة، وحفدة لا يخرجون عن رأيه، ولم يكن ما بينه وبين عزّ الدين حسناً، وكان عزّ الدين يعامله بالحلم والصبر والمداراة، وكان شرف الدين قد سافر إلى مصر في ولاية عزّ الدين الأخيرة، وسعى في المشيخة فلم تحصل له، وولي النيابة بمرسوم سلطاني، وكان نائباً لعز الدين.

ثم إنَّ الشيخ افتخار الدين توفي فجأةً وأصبحَ في فراشه ميتاً، وذلك ليلة الأحد التاسع من شهر ربيع الآخر أحَدَ شهور سنة تسع وخمسين وسبعمائةٍ، واستمرَّ عزّ الدين في الولاية على الطريقة الأولى من فعل الخيرات وعتق المماليك، ووقف النخيل على الفقراء، رحمه الله ونفع به.

فلما ضعف في بدنه وقوته لكبر سنّه، لزم العزلة والإقبال على الخير، ثم سَعِيَ عليه لأجل ذلك، فولي الشيخ افتخار الدين ياقوت بن عبد الله الخزنداري[3]، وذلك في سنة ثمان وخمسين وسبعمائةٍ، وهو من المشايخ الرؤساء، لم يقم أحد بحرمة المنصب مثله، من أكمل الناس عقلاً، وأعظمهم حرمة، مع التدين والعبادة والورع.

ذكر أنَّه خدم الملوك بالديار المصرية مدة خمسة وعشرين سنةً، لا يتناول جامكية إلا من الجزية المأخوذة من أهل الكتاب تورعاً من أموال السلطان، وكان يشهد عند القضاة فيقبلون شهادته، وله اجتهاد عظيم، ومثابرة على سماع الحديث، وكتب العلم والرقائق، مع ملازمته للصلوات في الصف الأول والناس لا ينكرون عليه إلا قوة نفسه، وذهابه في رَأيه قُدماً لا يرجع لأحدٍ فيه، وفيه من شرف النفس ما إنه لا يتناول ما شرط له في الأوقاف على النظر، بخلاف غيره من الشيوخ، وفيه من الهيبة على أصحابه

---

(١) يقصد عز الدين دينار، وقد تقدم ذكره.

(٢) هو: شمس الدين صواب الجمداري، وستأتي ترجمته.

(٣) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/٤٠٨ (١١٢٨).

ما انصلح به كثير من شأنهم، وتأدَّب به كثير من شبابهم، وصبيانهم، وصار له هيبة في الناس وخفارة، وحفظ الحرم حفظاً حسناً، وصادف وقتاً سيئاً جرى فيه على الشدّ، وزاد على الحد، حتى ضاقت عليه الأنفس من غير جماعته، وسعوا في حل ولايته، وإنما أتى عليه لوثوقه برأيه، وعدم قبوله نصح أصحابه، وكأنه لم يسمع قول القائل:

ولن يهلك الإنسان إلا إذا أتى ... من الأمر ما لم يرضه نصحاؤه

والله تعالى يقضي لنا وله بالخير.

وكان يتأدب مع الشيخ عزّ الدين لما كان عزّ الدين معزولاً، ويأتيه إلى مجلسه، ويعرفه الشهر يتقرب إليه حتى أحبه عزّ الدين.

وكان يقول: هذا خادم محتشم رئيس. ولقد صدق فيما قال، وتوفي عزّ الدين في أيامه، وذلك في سنة إحدى وستين وسبعمائة.

فصـــل

ثم إني أدركت من الخدام الصُلحاء الخدام المتخلّلين أيام هؤلاء الشيوخ أقواماً لهم جلالة، وعليهم من الله مهابة، منهم طواشي شبل الدولة كافور بن عبد الله الخضري[1]، كان فيه ـ رحمه الله ـ من الدين والخير والبر، ما لا عليه من مزيد.

وأخبرني مَنْ أثق به أنه كان يضع معلومه في غلف أباليج السكر ويضعها في بيته من غير غلقٍ زهداً في الدنيا، وقلة حرص عليها، وفي كل يوم يملأ منها كيسه، ويجعلها في جيبه يُعِدُّ ذلك لمن يقف عليه من السؤال أو من الحُرُم والأيتام، وكذلك رأيته لا تزال يده تنفق سراً وعلانية.

كان شيخاً في الرواية، سمع على جماعة لهم ذكر في طبقات المحدثين، ربَّى أيتاماً كثيرين، وأعتق جماعة مباركين، كان منهم خيار الفراشين الشيخ عبد الله الخضري، ولد لعبد الله أولاد قراء ومتصوفة، ولهم اليوم عقب، رحمهم الله، وكان الخضري والعادلي متجاورين في المسكن متعاونين على البر والخير، تغمدهم الله برحمته أجمعين.

ومنهم شهاب الدين رشيد بن عبد الله السعدي[2] رحمه الله، كان متفقهاً متديناً متعبداً، يصحب العلماء ويشتغل عليهم، ويشتري كتب العلم ويوقفها عليهم، له خزانة جيدة كان فيها كتب غريبة أعرفها في دار الزيات، وله رباط ودور وقفها بعد أن تعب في عمارتها وانشائها، وله من اسمه نصيب وافر رحمه الله.

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٨٩ (٣٥٠٤)، نقلاً عن ابن فرحون والمجد اللغوي؛ وقد ذكره الذهبي في «معجم الشيوخ» ٢/ ١٢٠ فيمن أجازه بالمدينة.

(٢) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٤٧ (١٢٦٣)، نقلاً عن ابن فرحون.

ومنهم شمس الدين صواب الحموي الناصري[1]، كان من شيوخهم ورؤسائهم قليل الكلام، لا تراه إلا مشتغلاً بنفسه، إذا جلس إلى الشيخ أمر بمعروف ونهى عن منكر، وكان صاحب رأي صائب، وله حسنات خفيات.

ثم ظهر بعده على طريقته أو أزيد خادمه أمين الدين مفيد، وحفظ القرآن وربع «التنبيه» وصحب أهل الخير واشتهر بالدين والأمانة، فاعتُمد عليه، وسلم إليه ما يُعَدُّ من الحاصل، للصرف على الفقراء والأوقاف وغيرها، وهو الأمين على ما في القبة التي وسط الحرم، وبيده مفاتيح حاصلها، وهو أهل لذلك فنعم الحسنة خلفها شمس الدين بعده، توفي سنة تسع عشرة وسبعمائة، وتوفي أمين الدين مفيد في سنة أربع وسبعين وسبعمائة.

ومنهم سعد الدين نجيب الفاخري، له اعتقاد في الصالحين وحسن ظن فيه، مع سلامة باطن، فيخدع لمن تزيا بزي الفقراء، وكان سليم القلب، حسن الخلق، كثير الخير والصلة، عليه خفارة وحشمة.

واتفق أن جاء إلى المدينة في أيامه رجل مِنْ اليمن ادَّعى أنه شريف، كان له شكالة حسنة، مع طول قامة وسكون وحشمة، وكان معه جماعة في طوله يتبعونه ويعظمونه، فأظهر أنه صاحب الزمان، وسكن مع أصحابه في دار النفيس شامي المسجد الشريف، فانعطف عليهم الناس وهادوهم، وتمكنوا من خاطر الفاخري تمكيناً جيداً، ووعدوه أنه يكون عنده من المقربين إذا خرج، فأقام على ذلك مدة تهدى إليه البذلات الرفيعة، والموائد الفاخرة تجري عليه من عنده، ومن عند إخوانه جماعة من الشرفاء، وكان في حفظ نفسه ومراعاة رئاسته عجباً، فلما طال مقامه وأبطأت عداته تكعكع عنه الناس قليلاً، فلما أحسَّ بذلك سافر إلى العراق، فلم يطلع بعد ذلك خبره.

ثم ظهر بعد ذلك رجل من أهل تونس. وكان والدي رحمه الله يعرفه في تونس هو وأبوه، يقال له: ابن حماس، ظهر بهذه الطريقة،

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٥٩ (١٨٢٣)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٠٨ (١٩٨٢).

واتَّسم بأنه من أرباب الحقيقة، وانعطف عليه هذا الطواشي وغيره، فأسكنوه وقربوه، وأتحفوه بأنواع الملابس وفاخر الأطعمة، وكان قد تبدن وسمن من كثرة ما يأكل.

وكان يقول: الآن قام من عندي الخضر عليه السلام. وقال لي: كذا وكذا، إلى أن قال: لي مُلكُ كذا وكذا.

ثمَّ ترقَّى حتى قال: كلمني القلم، ورأيت الملكوت، وأنواعها من هذه الترهات والخزعبلات، وقام عليه جماعة من أهل الخير، وبلَّغوا الحاكم مقالته ونصب خيالاته، فأُدعي في مجلس كبير وحضره شيخ الخدام، وجماعة من لفيف العوام، فسألوا عما نقلوا عنه، فكان يقول مقالة غير مقالة الآخر، لم يجتمع على الشهادة اثنان فخلِّي سبيله، ثم سافر إلى القاهرة واشتهر بها ذكره وكثر أتباعه، ثم انتقل إلى العراق فقيل: إنه قُتل بها.

قال لي والدي رحمه الله: إن هذا الرجل كان له مال كثير ورثه من والده، فأخرجه على الفقراء وتصدق به كله، وخرج فقيراً، لكنه لم يقف عند حده، بل طمع في الولاية، وهي لا تحصل إلا بالموهبة الإلهية، والعناية الربانية، وإنما ذكرت حال هذين الرجلين تنبيهاً على حسن اعتقاد الخدام في المجاورين، وجميل ظنهم فيهم رحمهم الله تعالى.

ومنهم عزّ الدين مختار الحلبي، كان من كبار الخدام، وممن اتصف بأحوال الصالحين ومحبة العلماء، أثنى عليه الشيخ عبد الواحد الجزولي[1] رحمه الله، وذكر له مناقب كثيرة، وكان مسكنناً مع والدنا في داره التي أوقفها على جمال الدين المطري مجاورة لرباط الشيرازي، وهي اليوم وقف على أولاده رحمهم الله تعالى.

ومنهم شفيع الكرموني[2]، كان ـ رحمه الله ـ من أحسن الخدام شكالة وطولاً، وأعدلهم بنية، وكان من أقدرهم على مخالطة الناس،

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٢٠ (٢٧٦٥)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٢) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٤٤ (١٧٤٠)، نقلاً عن ابن فرحون.

وكان له صولة عظيمة في المسجد على مَنْ رأى منه أدنى مخالفة، خصوصاً مَنْ رأى منه أدنى مخالطة لأهل الشر، وقد بنى هو والشيخ ناصر الدين نصر عطا الله[1] دارين عظيمتين غرما عليهما مالاً عظيماً، وتعبا فيهما تعباً كثيراً، فلم يسكنا فيهما، ولم يتمتعا بهما حتى توفيا، عوضهما الله خيراً ورحمهما.

ولشفيع اليوم خادم صالح عاقل، لم أر أحسن من سكونه وقلَّة فضوله وعزلته عن الناس، جزاه الله من نفسه خيراً، فقد سلم الناس من يده ولسانه.

ومنهم شمس الدين صواب[2] المغيثي رحمه الله، ما كان أدينَه وأورَعه، كان أول من يأخذ من محطه خدمة المسجد الشريف وتعليق قناديله، وأول من يسبق إلى المسجد من المصلين، لزم إسطوانة المهاجرين حتى عُرِفَ بها، وهي الأسطوانة الثالثة من أسطوانة التوبة عند المحققين، وكان إذا جاءت نوبته في الخدمة يضع الأطعمة الكثيرة، والألوان الفاخرة، ويدعو لطعامه مَنْ عرف ومَنْ لم يعرف، وكذلك كان يفعل جميعهم سوى أنهم يتفاضلون في السخاء والكرم وطيب النفس، يريدون بذلك وجه الله تعالى.

وكان ـ رحمه الله ـ على أهل الدولة له عقدة لا تنحلّ، وشفرة لا تَنكل، نفعنا الله به بعد وفاة والدنا في سُبع سيده، وذلك أن بعض أهل الشر بذل للأمير منصور في وظائف والدي مبلغاً جيداً، حتى تكون كلها له ويخرجنا منها، فأرسل الأمير إلى شيخ الخدام ظهير الدين يعرفه بأنه قد حصل له في هذه الوظائف كذا وكذا، فإن دفع أولاد المتوفى هذا المبلغ، وألا أخذتها منهم للذي بذل لي ذلك، فعرض علينا الشيخ ذلك، وقال: هل في حالكم شيء ولو ألف درهم؟

فقلت له: والله لم يخلّف لنا والدنا ديناراً ولا درهماً واحداً، غير نفقة

---

(١) تقدم ذكره.

(٢) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٦٠ (١٨٢٥)، نقلاً عن ابن فرحون والمجد اللغوي.

من الحب، أوصى بثلثها، وداراً نسكنها وكُتب نقرأ فيها، فإن كتب الله قسمته، وإلا فهي رَزية وبلية، نرجو من الله العظيم كشفها والعوض عنها.

فقام حينئذٍ شمس الدين المغيثي وصاح على الشيخ، وقال: في مثل هذا تتهاون، والله لا يصل هذا اللعين إلى وظيفتنا، ولا يقرأ فيها أبداً إلا أن يفعل بي كذا وكذا. فبلغ ذلك الأمير، فلم يُسمع من الذي سعى عليها بعد ذلك في حقنا كلمة، ورد الله كيد ذلك الرجل في نحره ببركة النبي ﷺ، وببركة والدنا، ثم دارت الدائرة على ذلك الرجل، فأخرج من جميع وظائفه التي تتعلق بالحرم الشريف، والله تعالى مع الضعيف.

توفي شمس الدين في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة فيما يغلب على الظن رحمه الله، ودفن أمام باب قبّة سيدي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

ومنهم عزّ الدين دينار البدري[1]، رحمه الله من خادِم، إذ قيل للنبي ﷺ خَادِم، كان مسكنه دار الشرابي بزقاق الخُدام، قد جعلها موئلاً للإخوان، ومرفقاً لكل مرتاد، يُعِد فيها للمرضى أنواعاً من الأمواه والأشربة والأغذية، لا يمرض فقيرٌ أو مجاورٌ أو خادم إلا جاءه في الحين، وحمل إليه من كل ما يحتاجه، وكان عطاؤه عطاء السلاطين وإن أعطى ماء لسان الثور، أو ماءَ خُلَّاف، وما أشبه ذلك ملأ الإناء، وكذا يفعل في الشراب والسكر وغير ذلك، ومتى وصف لمريض فقير دواء سعى في تحصيله حتى يأتيه به، ثم إنه لا يزال يطبخ في بيته الأشياء اللطيفة المناسبة، ويحملها بنفسه على يده، لا يستعين بعبده ولا بغلامه.

ولا أقول إنه يفعل ذلك مع أصحابه ومَنْ يعرفه من عناياه[2] وأحبابه، بل يجري خيره على جميع الناس، ويأتيهم في الربط والمدارس، ويترفق لهم ويشفق عليهم، ويشهيهم رحمه الله، هذه حاله فيما ملكت يمينه.

وأما غير ذلك من مساعدة الضعيف والقيام مع المنكسرِ بديْن أو فقر، فالعجب العجاب، وَيخَرج من ماله ويتضمّن في ذمته، ويدخل على الغريم

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٣٤ (١١٩٣)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) يعني: من يعتني به من أقاربه.

في بيته، ولقد ضمن مرة نحو خمسين ألف درهم طولب بها، وضيق عليه فيها، فَفُرج عنه ببركة نيته. ولو تتبعت آثاره الحسنة، ومناقبة الجميلة، لكان سيرةً مُدوَّنة.

وأما سعيه في التئام الكلمة، وإصلاحه بين الناس، وجمع الشمل بين الإخوان، والتأليف بين الأقران، فمن عجائب الزمان رحمه الله تعالى رحمةً تنزله الجنان، وتبعده عن النيران، توفي رحمه الله في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة.

ومنهم شمس الدين رشيد الدورخاني[1] رحمه الله، كان فيه من مكارم الأخلاق، ومن محبة الإخوان والشفقة على طلبة العلم وسذاجته، وقلة حذاقته في الدنيا ما لا مزيد عليه، يعطي العطايا الجزيلة، بيته بيت الملوك، ونوبته إقرأ من كتاب الله ما بعد يأتك، كان سيده يحبه فيتحفه في كل سنة بما يحتاج إليه من السُّكَّر والشراب وأنواع الحبوب، وحبَّب الله إليه الإنفاق، فاتسع الناس في خيره حتى مات مستوراً رحمه الله تعالى في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

ومنهم شمس الدين صواب الجمداري[2] ـ رحمه الله تعالى ـ كان من أجاويدهم وذوي الرأي منهم، ممن يعظم الشرع وأهله، عليه سكينة ووقار وحسن أخلاق، وبشاشة عند التلاق، كانت له رئاسة وحشمة، وإطعام للكسرة، وكان نائباً للشيخ عزّ الدين، وله عتقاء حسنة وبنىٰ داراً وأوقفها، واشترى في آخر عمره نخلاً جيداً وأوقفه، وله غير ذلك من الأوقاف. كان ذا حياء لا تكاد تراه يمزح ولا يضحك، ولا يجلس إلا في وقت ضرورة في أيام نوبته، وله خادم رئيس قليل الخلطة بالناس، توفي الجمداري رحمه الله تعالى في سنة ثمان وخمسين وسبعمائة.

ومنهم جمال الدين محسن الإخميمي[3]، ومنهم ظهير الدين مختار

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٤٧ (١٢٦٥)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٤١/ب.

(٢) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٥٩ (١٨٢١)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٥/ب.

(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٠٣ (٣٥٧٥).

الزمردي(١)، كانا على نسق واحد من حسن الهيئة والمهابة والرُّجْلة والحذاقة، مع المحافظة على المروءة، والسلامة من الناس في مخالطتهم، توفي الزمردي بمكة سنة خمسين وسبعمائة. وأما جمال الدين الإخميمي رحمه الله تعالى، فإنه رأس الخدام حتى عين لمشيخة الحرم لكن أدركته المنية.

وكان - رحمه الله - رأس الخدام في وقته، وأكثرهم حشماً، وأبعدهم من الشر وأهله، لين الجانب كثير الأدب، حسن الخلق رحمة الله عليه، وبنى داراً حسنة وأوقفها، فلما كملت مات قبل أن يسكنها عوضه الله خيراً.

وكان لي من وده وموالاته نصيب وافر، وكان له نخل أوقفه، وغلام أعتقه وجعله مع الفراشين هو من خيارهم، جزاه الله خيراً ورحمهُ رحمةً واسعة. توفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة.

ومنهم شهاب الدين(٢) مرشد الفادي(٣) رحمه الله، كان قريباً من الناس، سريع الميل إلى من يؤانسه ويجالسه، وكان يتعانى الأشياء الحسنة اللطيفة من الأشربة والأمواه والمعاجين والفاكهة، ولا يزال بيته معموراً بالضيفان، مبذولاً للإخوان، يعمل الأشياء الفاخرة من الحلوى العزيزة الوجود في الحجاز، ويهديها لأصحابه، ويتحف بها مَنْ يرغب في بركته ودعائه من صالحي المجاورين.

وكان - رحمه الله - قلَّ أن تطلب منه حاجة فيقول: لا أجدها، بل يحرص على تحصيلها ويطلبها من مظانها حتى يقضي حاجة صاحبها، سجيَّة صالحة، وتجارة رابحة.

ومنهم الطواشي نصر، رحمه الله، كان من عباد الله الصالحين، كان من الخدام القدماء الصلحاء، المتمرنين على العبادة، المتصفين بصفات أهل السعادة، كان يجاور سنة بالمدينة وسنة بمكة، وكان يختار سكنى رباط

---

(١) ترجمته في: «المغانم المطابة»، الورقة ٢٥٤/ب.
(٢) ترجمته في: «المغانم المطابة»، الورقة ٢٥٩/أ.
(٣) في «المغانم المطابة»: القاري.

دكالة[١]، لم يزل فيه ليقرب من صحبة المشايخ الصلاح الساكنين به، وكان يصوم الثلاثة الأشهر متوالية، وكان لا يصحب إلا المجاورين الذين لهم في العبادة قدم، وهم في الناس كنارٍ على علم، له اليوم خادم صالح من أهل القرآن، عاش بين الإخوان بعقله، وسَاسَ وقته بفعله، وكانت وفاة سيده فيما يغلب على الظن سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

ومنهم مختار المعروف[٢] ـ بالمُولَّه ـ، كان من إخوان نصر في خُلُقه، صحب المشايخ الكبار، مثل الشيخ أبي محمد البسكري وغيره، فتأدّب بآدابهم، واكتسب من أخلاقهم، وكان له كرم واعتقاد حسن، وكان من الخدام الذين لهم أخباز، وكان الشيخ عمر[٣] الخراز من إخوانه، وكان عمر يأخذ الدين الكثير لأجل عياله، فيأتي الموسم وعليه فوق الثلاثة الآلاف درهم فيقضيها الطّواشي مختار، وربما يقول له: خذ من خبزي[٤] بغير ميزان، فيحفن له حفنات تقضي دينه، ويعينه على وقته.

وبلغني أنه يجمع الفقراء ويعطيهم ثوبه يفلّونه، يريد بذلك المؤانسة، ثم يعطيهم التمر والخبز يرون أنه أجرة، وما هو إلا ليحصل الثواب والأجر بلا منَّةٍ عليهم، رحمة الله عليه. توفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة.

ومنهم عزّ الدين ريحان الطباخي[٥] رحمه الله، كان حنفياً متفقهاً مُلازِماً للعلماء، مُحباً في الفضلاء، مساعداً عند الشيوخ على تسديد الأمور المعضلات، وترقيع الخصومات، كثير الحجّ إلى بيت الله الحرام. توفي رحمه الله في سنة ست وأربعين وسبعمائة.

ومنهم ريحان الهندي[٦]، من الخدَّام الذين طالت إقامتهم في الخدمة الشريفة، له مآثر حسنة، ووقف رباطين حَسَنَين، عمَّ النفع بهما، ونخيلاً

---

(١) وهو رباط سيدنا عثمان، ودكالة قبيلة من قبائل البَربر بالمغرب، وسيأتي مزيد كلام عليه.
(٢) ترجمته في: «المغانم المطابة»، الورقة ٢٥٩/ب.
(٣) وهو: عمر بن عياذ الأنصاري الخراز، وستأتي ترجمته.
(٤) في هامش النسخ عبارة: «أي معلومي من الدراهم، والله أعلم».
(٥) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٥١ (١٢٨٧)، «المغانم المطابة»، الورقة ٢٣٨/أ.
(٦) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٥٢ (١٢٩٤)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٨/أ.

جيدة وسقاية للماء، ودارين، وكان كثير المعروف، محباً للخير وأهله، مُؤثِر الباقي على الفاني، رحمه الله.

ومنهم أمين الله خالص البهادي، كان فيه من السكون والخير المكنون، ما لا مزيد عليه، وكان يتعانى الفلاحة، فيخالط الناس فيسلم منهم ويسلمون منه، متواضعاً متأدباً يرحم المسكين، ويعين من به يستَعين.

طالت أيامه وكثر ماله، حتى أوقف الأوقاف، وله رباط بباب البقيع، وله عتقاء من عبيد وإماء، وغَرَس في الحرم خادمه سروراً لقراءة القرآن، وألزمه حضور الأسباع، فجادت قراءته وحسن صوته، فظهر بين أقرانه برُجْلَةٍ وشجاعة.

ومنهم عنبر الموصلي[(١)]، وهو من قدمائهم، كان خادماً للشيخ محمد الأعمى، خدمه محبةً لله وموالاة، فاكتسب من أخلاقه الحسنة ورياضته مدة حياته، ما حصّل به خيري الدنيا والآخرة، بنى داراً قبالة دار العشرة وأوقفها.

ومنهم مفتاح الهندي[(٢)]، كان من الكبار، عاش مئة سنة على عبادة ومجاهدة من أرباب الكمالات الكرامات، وقف نخلاً جيداً بالحشان، ونخلاً آخر ببئر عزّ العرب، كان يعمل كل سنة في شهر ربيع الأول مولداً للنبي ﷺ ينفق فيه نفقة جليلة، وكان يقول: إنه يعرف يوم وفاته، وإنه يموت في شهر رجب ـ أظنه السادس أو الرابع منه ـ فكان كذلك، وكان غالباً يعمل مولده في بيتي، ويحضر كأنه واحد من الجماعة.

وحضر يوماً مع الجماعة، فلما خرجوا قدمت له طعاماً فيه لحم، فوقفت في حلقه لحمة، شهق منها شهقة ما شككت أنه مات، ثم إنه أفاق بعد ذلك. وقال لي عند إفاقته: خفتَ عليَّ أن أموت، لا أموت اليوم، بل بقي لي كذا وكذا ثم أموت، فكان كما قال، رحمه الله ونفع به.

ومنهم الطواشي صندل[(٣)]، كان من أكابر القدماء الرؤساء المتعففين

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٦١ (٣٣٦٤)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٢) ترجمته في: «المغانم المطابة»، الورقة ٢٥٩/ب.
(٣) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٥٨ (١٨١٥)، نقلاً عن ابن فرحون.

الدّينين، كثير الصّدقة بالبر والخير، وأوقف وأعتق وأثّر أثاراً حسنة، وكان من أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، محباً في المجاورين شفوقاً على أولادهم، قد سلم الناس من يده ولسانه.

ومنهم نجيبُ النظامي، توفي وهو ساجد في صلاة التراويح، رحمة الله عليه عند باب الرحمة.

واعلم أنه كان قبل هؤلاء ومعهم وبعدهم جماعة كثيرون، ينوفون على المئة لو عددتهم كلهم متصفون بالخير الكثير، والدين المتين، والأوقاف من الدور والنخيل، وعتق الأرقاء من الخدام، الذين كثير منهم اليوم في الحرم الشريف، والعبيد والإماء مع الاجتهاد في قراءة القرآن والإكثار من سماع الحديث، ولو تتبعتهم وذكرت صفاتهم وما علمت من أحوالهم، لطال الكلام واتسع المقال.

منهم كافور المحسني[١] نائب المشيخة، والتاجي[٢]، والناصحي[٣]، وصواب الأبكي[*][٤]، ومختار البغدادي[٥] الحلّي، وكافور التكريتي[٦]، وعنبر المخلصي[٧]، وعنبر الفارقي[٨]، وشبل الدولة كافور الجلدكي[٩]، ونصر الصالحي[١٠]، ودينار القرطبي[١١]،

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/٣٩٠ (٣٥١١)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) هو: سعيد التاجي.

(٣) لم أعثر له على ترجمة.

(٤) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٥٩ (١٨٢٠)، نقلاً عن ابن فرحون.

(*) وقع خلاف في الكنية، ففي (أ): «الأبكي»، وفي (ب): «الأزبكي»، وفي (ج): «الأبكر»، أما في «التحفة»: «الأيبكي».

(٥) لم أعثر له على ترجمة.

(٦) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٩٠ (٣٥٠٩)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٥٥/أ.

(٧) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٦١ (٣٣٦٣)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٨) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٦١ (٣٣٦١)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٩) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٦١ (٣٥٠٥)، نقلاً عن ابن فرحون.

(١٠) ترجمته في «المغانم المطابة»، الورقة ٢٦٧/ب.

(١١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٣٥ (١١٩٦)، وقد وقع: «القرظي» بدل: «القرطبي»، نقلاً عن ابن فرحون.

والجواجاني[1]، وصندل البغدادي[2]، والفخري[3]، ومختار خادم اللالا[4]، وغيرهم طبقات عديدة يطول ذكرهم، تغمدهم الله برحمته.

ثم إن في الحرم الشريف اليوم جماعة كثيرة من نمط هؤلاء المتقدم ذكرهم، متصفون بما اتصف به إخوانهم من الديانة، وصحبة الصالحين، مع الحسنات الكثيرة الظاهرة والخفية، والأوقاف العظيمة من النخيل والدور والعتقاء مع قراءة القرآن، والمواظبة لاستماع الحديث، والمثابرة على الصلاة في الصّف الأول دائماً، وفيهم جماعة متبتلون للعبادة على طريقة السلف الصالح نفع الله بهم، ولم أترك ذكرهم إلا أن الغرض في هذا تنبيه الشاهد بأحوال الغائب، وتحريض الخلف، على اتباع السلف، وقد ذكرت منهم جماعة مع ذكر متقيهم.

وسيأتي ذكر بعضهم في أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى، ولم أقصد الترتيب فيما وضعت، وإنما وجه الله العظيم أردت، فيما سأذكره وفيما قد ذكرت، وجمعَ الكلمة قصدت، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) لم أعثر له على ترجمة.
(٢) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٥٨ (١٨١٢)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٣) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٢٢ (٦٦٧).
(٤) لم أعثر له على ترجمة.

فصل

في ذكر جماعة من المجاورين القدماء والمشايخ الصلحاء والتعريف بكشف أحوالهم ومناقبهم

وأَصِفُ لفروعهم طيب أصولهم، ليتخلقوا بأخلاقهم، ويتأدبوا بآدابهم، ويكتسبوا من محاسنهم في الأقوال والأفعال.

وفي مثل ذلك يقال:

أرى كل عود نابت في أرُومةٍ أبَى صالح العيدان أن يتغيّرا
بنو الصالحين الصالحون ومن يكن لآباء صدق فهو بالخير أجدرا

فمن أولهم وأولاهم بالذكر ذو الولاية العلية، والمقامات السنية، الشيخ الصالح الولي الرباني، أبو محمد عبد الله البسكري[(١)]، كان في بلاده من أكابرها في النسب، ومن أعيانها في المال والحسب، خرج عن ذلك كله، وانقطع إلى الله تعالى ورسوله، وخرج مجرداً فقيراً، صحب مشايخ وقته شرق البلاد وغربها. ومنهم الشيخ أبو محمد المرجاني[(٢)] وغيره، ثم أوى إلى المدينة في وقت شديد، على قدم التجريد، فأقام أولاً بالمدرسة الشهابية مدة، ثم انتقل إلى رباط دكالة ومعه جماعة من أهل المجاهدة والصبر، فمكث به سنين لا يعلم حاله أحد، ولم يتعرض لزوجة ولا ولد، كان وأصحابه يطوون الأيام على غير شيء من الطعام.

---

(١) هو: عبد الله بن عمر بن موسى، أبو محمد البسكري المغراوي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٦٦ (٢١٨١)، نقلاً عن ابن فرحون، ووقع في الترجمة المذكورة: «اليشكري»، وهو خطأ.

(٢) هو: عبد الله بن عبد الملك القرشي البكري المرجاني، صاحب كتاب «بهجة النفوس والأسرار في تأريخ دار هجرة المختار». ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٦ (٢١٣٥).

أخبرني بعض خدام الشيخ رحمه الله: أنه كان له أصحاب مغاربة مثل يوسف الخولي، وحسن الخولي، ومحمد المكناسي، إذا جاؤوا من عملهم من الحدائق حملوا معهم شيئاً من رُمَام البقول الذي لا يصلح إلا للدواب، كالسلق، وبقايا اللفت، ومن هذا الجنس، فيأتونهم به فيأخذه خادمهم ويسلقه، ويضعه في قصعة إلى أن يأتوا من صلاة العشاء، فيقدمه لهم وهم صائمون، فيأخذ كل منهم كفايته، وما فضل عنهم أخذه الخادم ورماه في خارج باب البلدة، تأكله البهائم.

استمروا على ذلك سنين لا يعملون غير ذلك إلا في النادر، حتى فطن بهم بعض الناس، وكان يأتيهم بشيء من الأعشار كعشر الشعير والتمر، منهم تركي الأمير جماز يقال له: سنجر[1]، وأبو شميلة الدارنجي فترفَّع حالهم وكثر أتباعهم، ومال الناس إليهم لما رأوا من خيرهم واعتزالهم، ثم قصدهم الخدام وصحبوهم، واشتهر في البلاد ذكرهم، وذكرُ الشيخ أبي محمد، فكان يقصد من البلاد البعيدة كاليمن وغيرها.

وكان الشيخ مبسوطَ اليد لا يدخر شيئاً، ولا يرد فقيراً، ولا يبيت على معلوم، كان إذا جاء قادم من مكة أضافه وآنسه. ثم يقول له: ارفع طرف الحصير، فيرفعه فما وجده تحته فهو له، سواء كان درهماً أو مئة، وإذا أطعم الفقير لم يدع في بيته قمحاً ولا سمناً ولا عسلاً، بل يعمل له الجميع حتى إنه عمل يوماً للفقراء طعاماً ولم يجد له إداماً غير برنية شراب أهديت له لمرض كان به، فأمر بصبها وإيدام الجماعة بها، وظهر في الناس بالكرامات والإخبار بالمغيبات، حتى انعطف عليه النّاس لعلمه وعمله، وكرمه وحسن خلقه، وكان مع ذلك مهيباً في جماعته، بل في الحرم الشريف.

قال لي من أثق به: إنه كان إذا دخل المسجد خضع له كل من فيه، من كبير وصغير؛ ومتى رأى منكراً غيَّره بلسانه أو بيده، وكان أعظم أصحابه الشيخ عبد الواحد الجزولي[2] رحمه الله من العلماء الزهاد، ومنقطعاً

---

(١) ذكره السخاوي في «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٢٩ (١٦٧٢).

(٢) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٢٠ (٢٧٦٥)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة».

كانقطاع الشيخ أبي محمد، ومجاوراً له في رباطه، مكباً على نسخ العلم، عالماً بالحديث والقراءات له كتب كثيرة بخطه أوقفها كلها، وفرقها قبل موته بقليل رحمه الله، كان إذا رأى منكراً غيَّره بيده ولسانه، واتفق أن بعض المشايخ الكبار مُرَتَّبٌ في قراءة ختمة قبل صلاة الجمعة يجلس لقراءتها على كرسي، ويرفع صوته بالقراءة.

فقال له الشيخ عبد الواحد: لا تجلس في هذا الوقت، ولا ترفع صوتك بالقراءة فيتأذى الناس برفع صوتك.

فقال: هذه وظيفة مشروطة بهذه الصفة، فلا بد أن أفعل الشرط، وإلّا آكل حراماً.

فقال له: قد نهيتُك، فإن لم تفعل وجلست بعد هذا أخذت بلحيتك هذه، وأنزلتك من على كرسيك، فإن شئت فافعل، وإن شئت فدع، فترك ذلك رحمه الله.

فلما ذهب أولئك الشيوخ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، عادت القراءة كما كانت، وهي الختمةُ التي تقرأ اليوم في الروضة قبل الصّلاة.

وكان مما يعد من كرامات الشيخ أبي محمد البسكري، أنه لا يأتيه مظلوم يشتكي عليه ظالمه إلا وشفع له، فإن شفع فيه، وإلا عجلت عقوبة الظالم في وقته.

أخبرني مَنْ أثق به: أن الشيخ أبا العلا[1] إدريس ـ رحمه الله ـ تكلَّم بكلام وصل إلى الأمير جماز، فغضب عليه وأمر بإخراجه من المدينة، وذلك أنَّ شيخ الخدام في وقتهم كان يحسن إليهم وإلى سائر المجاورين، ويفرّق عليهم من التمر كل سنة قدر كفايتهم وعيالهم، وكان شيخ الخدام يومئذ يجري في الأوقاف مجرى أهل المدينة في مغارساتهم ومعاملاتهم على جاري العادة في المدينة، وأحكام قضاتهم، ولهم عادة في المغارسة غير جائزة بإجماع من الأمة، والأملاك لا تعمر إلا بها، ولا يرغب في خدمتها إلا من يأخذها بذلك.

(١) ترجمه في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦٥ (٣٧٥).

فبلع ذلك الشيخ أبا العُلا رحمه الله، وكان من الوَرَعين الزاهدين، فلما جاء وقت تفريقة التمر على المجاورين أُرسل إليه بنصيبه على العادة فتورّع وردَّه، فجاءه الشيخ، وقال: لأيّ شيء ترد التمر وأنت لم تزل تأخذه، وإذا كنت غنياً عنه صرفته على مستحقيه ولا تردُّه في وجهي؟

فقال له: أنت خالفت في الأوقاف المعاملة الشرعية، وعملت فيها ما لا يجوز، وأدخلت علينا الشبهة فيما نتناوله منه، وهذا لا يجوز لك، ولا يحل لنا أن نأخذه منك، فاشتد على الشيخ كلامه وأن يسمع منه مثل هذا الكلام، وكانوا يغارون على عرضهم ودينهم من مثل هذا أو دون هذا، فكأنه شكى حاله معه إلى الأمير جماز، وقد تقدم أنه كان بينه وبين الشرفاء خلة وصحبة أكيدة، فاغتاظ الأمير، وأمر بإخراج الشيخ أبي العلا من المدينة.

فبلغ ذلك الشيخ أبا محمد البسكري والجماعة فعزَّ ذلك عليهم، وأرسل الشيخ أبو محمد إلى الشيخ[1] بأن يترك له صاحبه ولا يشدد عليه، ويرد الأمير عنه، فلم يفعل.

فقيل لي: إن الشيخ أبا محمد بعثُ إليه جماعة من أصحابه بعد العشاء الآخرة، فدخلوا عليه في بيته فوجدوه قد اضطجع على سريره، فوقفوا بين يديه كاشفين رؤوسهم في الاستغفار، فغفل عنهم فنام وغلب عليه النوم، فما قام حتى ذهب جانب من الليل فوجدهم قياماً على حالهم فعزَّ عليه.

وقال: اذهبوا حتى يأتيني هو بنفسه أو شيئاً نحو ذلك، فرجعوا ولم تنقض لهم حاجة، وأخبروا الشيخ أبا محمد بما تمّ لهم معه، فغاظه ذلك وخرج لصلاة الصبح، فاجتمع بالقويضي ابن أبي النصر، وكان مفتي الإمامية وشيخهم، وكان يعتقد الشيخ أبا محمد، فحكى الشيخ الحكاية، فَجاء إلى شيخ الخدام فكلمه فأنعم له وقبل شفاعته، ثم جاء إلى الشيخ أبي محمد، فقال له: قد أنعم ورضي وجعل له بذلك عليه يداً.

فلما خرج جمع الشيخ أبو محمد أصحابه، وحكى لهم ما جرى من

---

(١) يعني شيخ الخدام.

الشيخ وكونه لم يقبل الفقراء، ولم يعزَّ عليه وقوفهم بين يديه كاشفين رؤوسهم، وقبل شفاعة ابن أبي النصر، فجمعوا خواطرهم عليه فمرض من حينه، واشتكى حتى طلب منهم التحليل والرضا، فنفد سهمهم وانقضى فيه الأمر فقضى.

أخبرني أقضى القضاة جمال الدين المطري ـ وكان ملازماً خدمتهم لأن مسكنه في الحجرة التي عند باب رباطهم ـ: أنَّ الشيْخ أبا محمد لما دخل مكة المشرفة قصد زيارة الشيخ نجم الدين الأصبهاني[1]، فلما جلس إليه أراد أن يسأل الشيخ نجم الدين عن اسمه، فبدره الشيخ نجم الدين، وقال له: اسمي مكتوب بين عينيك، ففهم الشيخ مقاله، وأنه كاشفه، وأن اسمه كاسمه عبد الله رحمهما الله.

ولما عزمتُ على التوجه إلى مكة المشرفة في طريق المشيان في حال الشبوبية، أظنُّه عام عشر وسبعمائة، جاء والدي إلى الشيخ أبي محمد فأخبره بعزيمتي. فقال له: ابعثه إليّ، فجئته.

فقال: بلغني أنك تريد مكة المشرفة.

فقلت: نعم يا سيدي، لأجل العمرة في رمضان.

فقال لي: من رفيقك؟ فذكرت له جماعة من الفراشين وغيرهم.

فقال لي: ليس في هؤلاء مَنْ هو من جنسك ولا من يليق بك، ولكن اصبر قليلاً حتى ننظر لك.

فقلت له: ضاق الوقت، وقد دخل شهر رمضان ومضى أكثره.

فقال لي: اسمع ما أقول لك، فذهبت عنه ووثقت بوعده، فما كان إلا قليلاً إذ وردَ المدينة زائراً الشيخ محمد بن عمران الخضري وجماعة من الصالحين، فدعاني الشيخ وقال لي: سافر مع هذا، فسافرت معهم، فرأيت

---

(١) لعله الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد الأصبهاني، نجم الدين الشافعي: ولد سنة ثلاث وأربعين وستمائة، صحب أبا العباس المرسي والعماد الحرامي، كان عابداً صالحاً وللناس فيه اعتقاد، مات في جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٠٢ (٢٢٣١)، «شذرات الذهب» ٨/ ١٠١، «العقد الثمين» ٥/ ٢٧١ (١٦٢٦).

من الشيخ محمد بن عمران وأصحابه من الخدمة والشفقة والمؤانسة، ما لو كان والدي معي لم يرفأ بي كذلك، ولم أحمل معهم غير عصاي التي كانت بيدي، رحمهم الله أجمعين.

فدخلتُ مكة ليلة الثامن والعشرين من رمضان، وخرجت يوم العيد متوجهاً إلى المدينة مع الشيخ الصالح محمود اللاري، ذي الأخلاق الحميدة، والمعاشرة الجميلة، والديانة التامة، والمبادرة إلى انتظار الصلوات من أول الأوقات، فصحبته في الطريق فكان نعم الصاحب، وكان ذلك بإشارة الشيخ أبي عبد الله النحوي، وإشارة أبي عبد الله الشريف الفاسي رحمهما الله، فوصلت المدينة في ستة أيام، وذلك كله ببركة الشيوخ وخاطر والدي رحمه الله.

وكان الشيخ أبو محمد البسكري قد ابتلي في آخر عمره بالبواسير ـ نسأل الله العافية لنا ولكم ـ فانقطع في بيته ولزم حجرته، وقاسى منها مقاساة عظيمة حتى كان يقول: لو جاز لي أن أسأل الله تعالى لي الموت لسألته، من شدة ما قاسى، رحمه الله.

وله من المناقب والأحوال العلية ما لا أحصيه عدّاً، ولا ينتهي حدّاً، نفع الله به. وهو صاحب القصيدة المشهورة المباركة التي أولها:

دار الحبيب أحق أن تهواها وتحنَّ من طرب إلى ذكراها

ورأى بعض الصالحين النبي ﷺ وأشُكُّ هل كان هو الشيخ ـ رحمه الله ـ أو غيره؟ وأنشد هذه القصيدة فلما بلغ آخرها.

وهو قوله:

والحمد لله الكريم وهذه نجزت وظني أنه يرضاها

فقال رسول الله ﷺ: رضيناها رضيناها[1].

وأمّا من بعده في هذا المقام الرفيع، والمرتع المريع، فصاحبه الشيخ عبد الواحد الجزولي، كان فيه من الشدة في الدين، وقوة اليقين، مع العلم

(١) وممن ذكر ذلك أيضاً: السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٦٦، والسمهودي في «وفاء الوفا» ٤/ ١٤٢١، وذكر القصيدة بتمامها.

والعمل ما لا عليه مزيد، وقد تقدم ذكره مع الشيخ أبي محمد البسكري رحمه الله. توفي قبل والدي بسنين أظنها أربعاً أو خمساً، وأما ذكر جماعتهم فقد تقدَّم ذكر بعضهم.

وممن كان يخدمهم من الأعيان الشيخ سعيد[١]، والشيخ ريحان النوبي[٢]، والشيخ موفق الحبشي[٣]، وكثيرون على أخلاق شيوخهم وطريقتهم، وخلَف الشيخ أبا محمد في مكانه ومنزله جماعةٍ صلحاء.

منهم الشيخ عز الدين الواسطي[٤]، كان من أهل العلم والعمل؛ وأرباب القلوب، دخل المدينة للزيارة فوقف على باب السّلام وسلّم من مكانه ورجع إلى منزله، فقيل له في ذلك، فقال: إني لم أجدني أهلاً للدخول إليه، ولا للوقوف بين يديه، مَنْ أنا حينئذ حتى أصلح لذلك.

ثم أقام بالمدينة فكان لا يزال لسانه رطباً بذكر الله وبتلاوة القرآن، وكان يقرأ قراءة لم يسمع السّامعون مثلها، وكان مسكنه في الرباط المذكور في بيت الشيخ أبي محمد على تقشف وفقر.

كنت يوماً عند الشيخ أبي الحسن الخراز فقال لي ولجماعة معي: رأيت البارحة هذا الفقير الذي أقام عندنا على المنبر يخطب، فلا بد له من ذلك.

وكذلك رأيته بعد وفاة الشيخ أبي الحسن على المنبر خطيباً، لما سافر القاضي سراج الدين[٥] استنابه في الإمامة والخطابة، فقام بها أحسن قيام، وكان عليه روح، وللناس فيه اعتقاد عظيم، وهذا مع ما يوجد فيه من سلامة الباطن والسّذاجة والتغفل، حتى يظن الذي يراه أن به هَبَل، وهو في علمه واجتهاده مُتْقِنُ العلم والعمل لا يعتريه خلل، إذا أخذت معه في شيءِ من أحوال الدنيا، كان جوابه بأحوال الأخرى، فينقطع معه الكلام، وكان إذا

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٠٩ (١٥٦٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٥٢ (١٢٩٣)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٣) لم أعثر له على ترجمة.

(٤) لم أعثر له على ترجمة.

(٥) هو: سراج الدين عمر بن أحمد بن خضر الأنصاري الخزرجي، وقد تقدمت ترجمته.

جاء أَحَدٌ وشكى إليه من ضرر أو مرض، قال له: قل: يا أول الأولين، ويا آخر الأخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين سخر لي كذا، أو اصرف عني كذا.

فإن جاءه يشكو من فاقة وقلة، قال له: قل: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

ومما جرى من أحواله، أن المدينة حُوصِرت أياماً، واشتد حال الناس من التضييق عليهم والخوف من عدوّهم، ومع ذلك لا يدري ما الناس فيه، حتى دُخِلت المدينةُ سَحَراً، فهرب الناس فاختفوا في بيوتهم، فلقيه شخص من الهاربين من أرباب الدولة والشيخ قد توضأ وخرج إلى المسجد فقال له: يا سيّدي أين تريد؟

قال: المسجد.

قال: المدينة دُخِلت وأبوابُ المسجد غُلِقَت، لا يدخله أحد.

قال: أي شيء تقول! فأعاد عليه.

قال: ومن هم هؤلاء المساكين الذين أخافوا المدينة وأهلها، ويريدون أن يمنعونا من صلاة الصبح في جماعة؟

ثم مضى إلى المسجد فعلم بمكانه ففتح له، ودخل وصلى ما كأنَّ شيئاً جرى، فكان ذلك الشخص يحكي هذه الحكاية ويعجب الناس بها.

ولقد أخبرني بعد وفاة والدي وكان يقرأ على والدي العربية، ويقطع الكتاب من أوله إلى آخره، ثم يعيده مرة أخرى لطلب المؤانسة معنا، والمحبة في والدي فبشرني بأنني أكون في مقامه، وأتولى ثلاث ولايات في ذلك العام فكان كذلك، جاءني موسم بالتدريس في المدرسة الشهابية، وجاءني تدريس درس القاضي فخر الدين ناظر الجيش، وجاءني تدريس من المغرب، أقامني فيه شعيب ابن أبي مدين[1]، وذلك كله في عام ثلاث

(١) هو: شعيب بن محمد بن جعفر بن شعيب، رضي الدين أبو مدين التونسي: ولد في شعبان سنة سبع وعشرين وسبعمائة، كان علامة في الفقه والنحو والفرائض، قال العسقلاني في «الدرر»: «قرأت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي، أنه كان أحد أذكياء العالم». توفي سنة سبعين وسبعمائة. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ١٩٢ (١٩٣٩)، «شذرات الذهب» ٨/ ٣٧٤.

وعشرين وسبعمائة، فأعان الله تعالى ورزقني على الاشتغال إقبالاً كثيراً، وَحُسدت حسداً عظيماً، وقصدت بالأذى فزادني طولاً. كثير يظنون أنهم يسعون في إخمالي وحط منزلتي، وما سعوا إلا في ظهوري ونشر فضيلتي.

ولله درّ القائل:

مَنْ خَصَّ بالشكر الصديق فإنني ... أحبُو بخالص ودِّيَ الأعداءَ
ورووا عليَّ معايبي فَحَذِرْتُها ... ونفيتُ عن أخلاقيَ الأقذاءَ
جعلوا التنافس في المعاليَ ديدني ... حتى رُفِعْتُ بفعلي الجَوزاءَ
ولربما انتفع الفتى بعدوِّه ... فالسُّم أحياناً يكون شفاءَ

ومع ذلك فقابلتهم بالحلم عليهم، والإحسان إليهم، وصبرت إلى أن فرج الله تعالى، والنّصر مع الصبر، فللّه الحمد على كل حال.

ولله در القائل:

ما دمتَ حياً فدارِ النّاس كلّهم ... فإنما أنت في دارِ المداراتِ
مَنْ يدرِ دارى ومن لا يدرِ سوف يُرى ... عما قريب قريناً للنداماتِ

ومما جرى لي مع هذا الشيخ في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة، أنه تحامل عليّ بعض القضاة، ولفيف من أولئك الحسدة، فرموني عند الأمير طفيل(1) برمية بلية، وذكروا أن شخصاً مات وترك عندي مالاً كثيراً، ولم يكن من ذلك شيء، إلا أن ذلك الشخص أودعني مبلغاً قليلاً، وصّى به في شراء نخيلات تكون وقفاً على رباط السبيل، فقلت للأمير وأعوانه: ليس عندي غير هذا، وقد وصّاني فيه بكذا، ومعي على ذلك شهود جياد أحدهم الشيخ عز الدين دينار شيخ الحرم، والآخر الشيخ عز الدين الواسطي، وكان الأمير طفيل غائباً في الفلاة، واشتغلَ بي ذلك القاضي وتلك الجماعة، وكانت قضية عَويصة، صادفت أوقاتاً شنعة، وعِدَا بَشِعَة، لها قضية طويلة جرى لي في أثنائها ألطاف عديدة.

---

(1) هو: الطفيل بن منصور بن جماز بن شيحة الحسيني: كان أمير المدينة أيام السلطان محمد قلاوون، ولي الإمارة في شعبان سنة ٧٢٨، وتوفي سنة ٧٥٢. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٢٣ (٢٠٣٤)، «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٦٨ (١٨٦٣).

وذلك أنَّ وزير الأمير قام عليَّ في ذلك بحس القاضي، وبنى على كلامهم، فلما خفتُ كثرة الأعداء واشتغالهم بي وتطلبهم عثراتي، شكوت ذلك إلى شيخ الخدام عز الدين - رحمه الله -، وسألته الجلوس في المسجد والمبيت فيه حتى يحضر الأمير من البادية، وكان على مسيرة أيام من المدينة، فجلست في المسجد مع أخي محمد رحمه الله ليلاً ونهاراً، وخرج أخي عليّ رحمه الله خفية، وركب راحلة توجه إلى الأمير في هذا الأمر، وكان له عليه دلية وصحبة أكيدة، ومُحَاسَنة وملائمة، فأقمت في المسجد عشرة أيام بلياليها، بين قيام وصيام واعتكاف حصل لي بذلك خير كثير، فكنت في ليلة أصلّي عند أسطوانة التوبة، وهي التي في آخر صف الروضة الملاصقة للشباك اليوم، على ما ذكره عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وتبعه مالك بن أنس رحمة الله عليه، وما قيل فيها غير ذلك فغلطٌ، أوجبه أشياء يطول ذكرها، فلحقتني سِنَة وأنا ساجد عندها، فرأيت شخصاً قد خرج ربع القامة، حسن الوجه والهيئة، مليح الثياب فمر عليّ. وقال: قُم قضيت الحاجة.

فاستيقظتُ فلم أر أحداً، فلم يكن إلا قليل إذ جاء أخي بمرسوم الأمير أن لا يتعرض لي أحد، حتى يقدم إلى المدينة، فلما قَدم بعد مدة اجتمعت به. فقال: لئن لم تأتني على ما قلت بشهود، وإلا فالذي يقال عنك صحيح.

وكان معي الشيخ عز الدين دينار شيخ الخدام رحمه الله، والشيخ عز الدين الواسطي كما تقدم.

فقلت له: معي عز الدين دينار.

فقال: لا أقبله، ذلك صاحبك وهو عدونا.

فجئت إلى الشيخ عز الدين، وذكرت له الحكاية، وعهدي منه أنه لا يفهم على الناس ما بينهم من أمور الدنيا ولا يذكر الشهادة، فقال لي: إذا خرج الأمير إلى المسجد لصلاة الجمعة اجتمعت به.

وكان لا يجتمع بأحدٍ من أرباب الدنيا، ولا يعرف الأمير ولا الوزير، لكنه عندهم معلوم السيرة، مشهور الطريقة، فلما حضر الأمير في المسجد

وجلس مجلسه المعروف جئت إليه، وقلت له على خوف: ما تقول في الشيخ عز الدين الواسطي؟

فقال: أقبله ومن هُنا مثله، فناديتُ الشيخ عز الدين، وفي ظني أنه لا يعلم ما قلت له، بل لا يذكر مجلسي معه، فلما جاءه عظمه الأمير طفيل وقام له، فبدأه الشيخ بغضب ورفع صوت وانزعاج، وقال: يا طفيل، اتق الله. كرّرها ثلاثاً:

وهو يقول: الله يجعلنا يا عزَّ الدين من المتقين.

ثم قال له: أما تتبع جدَّك وأفعاله، كان جدُّك علي بن أبي طالب رضي الله عنه متصفاً بكذا وكذا، وذكر له من الوعظ ما أبهته حتى ودَّ أنَّه لم يأته.

ثم قال له: ليس لك عند هذا الفقيه شيء ولا دعوى، وذلك الرجل الميت كان فقيراً من الفقراء، والذي يقول لك الفقيه هو الصحيح، والسلام.

فقبل كلامه وحمله على الشهادة، ورأى الناس أنَّ هذا كان من الشيخ بغير قوته، ولا جاري عادته، بل أجراه الله على لسانه لما أراد الله لي بإحسانه وفضله.

والذي لقيتُ من الأعداء والحسدة البغضاء الذين أبادهم الله، ولم يبلغوا مما أمّلوا من الشر شيء لا يحصى، وفي كيفية نصر الله عليهم في قِصص طويلة لا تستقصى، ولا يسع تدوينه في كتاب، وإلى الله عزّ وجلّ معهم المآب.

وما أحسن قول القاضي صدر الدين ابن القماح رحمه الله:

اصبر على حلو القضاء ومرِّهِ ... واعلم بأن الله بَالغُ أمرهِ
فالصدرُ مَنْ لقيَ الأمورَ بصَدْره ... وبصبرِهِ وبحمده وبشكرهِ
والحرُّ سيفٌ والذُنوبُ لصفوهِ ... صدأٌ وصيقَلُهُ نوائبُ دَهْرِهِ
فإذا أُصبتَ بما أصبتَ فلا تقل ... أوذيت من زيدِ الزمانِ وَعَمْرِهِ
واثبتْ فكم همٍّ أهَمكَ عُسْره ... ليلاً فبشَّركَ الصَّباحُ بيُسْرِهِ
ولكم على يأسٍ أتى فَرَجُ الفتى ... من سِرِّ غيبٍ لا يمرُّ بفكرهِ

ولرب ليل في الخطوب كوحلة ... صابرته حتى ظفرت بفجره

ومع ذلك فالخير كله في الحلم والصبر، ودفع السيئة بالحسنة، وفي تقوى الله جِماعُ خيري الدنيا والآخرة. توفي الشيخ عز الدين رحمه الله في إحدى وأربعين وسبعمائة.

ثم سكن الحجرة مسكن الشيخ عز الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر مرزوق التلمساني(١) رحمه الله، وكان من أحبابي الكبار، وأصحابي الأخيار، بل لم أصحب مثله في الناس، ولم أرى مثله على قياس، أقام بمكة قبل أن يأتي المدينة، فلزم الطواف حتى زَمِنَ وأُقْعِدَ.

فلمّا قدم المدينة لزمني ولزمته، فَمُنَّ عليه بالعافية، وأول ما نزل نزل في بيتي، وكان معه ولده الفقيه العلامة الخطيب المشهور اليوم في بلاد المغرب بالعلوم والفوائد، والتصانيف والرئاسة، وأحبَّه الملوك وأحبته الرعية لما اشتمل عليه من المحاسن والعلوم، ثم تسلَّط عليه أعداء حساد، فامتُحِن بهم، ثمَّ نجاه الله من كيدهم، وحصل له أسوة بأهل الخير من السلف الصالح.

وكان قدومهم هذا إلى المدينة في عام ثمانية وعشرين وسبعمائة، وكان الولد أبو عبد الله المذكور حينئذ لم يبلغ الحلم، فاشتغل بالعلم حتى رجعا إلى بلدهما تلمسان، فأقاما سنتين ثم رجعا إلى المدينة، فأقام الشيخ ورجع ولده، واستقرَّ الشيخ في الحجرة المذكورة، ثم انتقل إلى بيتي، ثم اشترى نصف دويرة وسكنها حتى سافر إلى مكة، ومات بها في سنة أربعين أو إحدى وأربعين وسبعمائة.

كان له من الكرامات والأحوال الجليلة العزيزة اليوم ما لا يُحصر ولا يُعَدُّ، منها أنَّه سلط عليه شخص من بلاده يقال له: عثمان بن المعذور، كثير الشر يطلب منه كل حين النفقة، ويشغب عليه وقته بكثرة التَّرَدُّدِ إليه،

(١) ذكره السخاوي في: «التحفة اللطيفة» ١/١٤٤ (٢٢٩)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ١/٢٩٩ (٧٥٤).

فملَّه الشيخ أبو العباس وأراد قطعه عنه، فعمل على بابه غلقاً له مفتاحان، وأراد إغلاقه حتى يظن أنه ليس في البيت أحد، فيخلو بنفسه في بيته حتى يخرج إلى المسجد لصلاته، ثم يرجع إلى بيته، فتسلط عليه هذا الرجل حتى وقف له بالليل عند خروجه في السحر إلى المسجد.

وقال له: أنت فلان؟ وحقِّ كذا وكذا إن لم تعطني ما أطلبه منك لاقتلنك، ولأفعلن بك كيت وكيت، ثم ذهب إلى الشرفاء فسعى به وقال لهم: عند فلان من الذهب عشرة آلاف وبالغ في الأذية، والشيخ يحيله على الله تعالى، ويصبر على أذاه حتى مرض الشيخ في بيته، وكان مجاوراً لي، فكأنه غفل عن الباب فدخل عليه وهو مريض، فروَّعه ولو لم أعاجله بالدخول عليه لما كنتُ أدري ما يفعل به.

ثم ذهب إلى الأمير وقال: إن مات ابن مرزوق استغنيت الدهر، وكلُّ ماله عند ابن فرحون، فبلغه ذلك وأخبرته بما صدر منه، فقال لي: وصل إلى هذا الحد، أنا إن شاء الله أريك فيه.

فوالله لم تمرَّ عليه أيام قليلة أقلُّ من جمعة، حتى حمل إلى المقبرة بعد عذاب شديدٍ ناله في مرضه، وذلك سنة تسع وثلاثين وسبعمائة.

وكان الشيخ لا يأكل الرطب ولا الفاكهة ولا البطيخ ولا العنب ولا اللحم والسمن حتى نحل ورقَّ، وعزمتُ عليه بظاهر الشرع.

وكان صائم الدهر قائم الليل، ولا يفتر من ذكر الله تعالى، يتفقد الفقراء في بيوتهم، ويعالج الطرحاء في مكانهم، ويطوف على المرضى بالمدينة فيتفقدهم أينما كانوا بالطعام والدواء، ويشهيهم فيعمل لهم ما يشتهون، ويطلب منا المساعدة على ذلك.

وكان لا يزال متبسماً يسأل عن الصَّغير والكبير، ويأتي إلى بيوت أصحابه ويدعو لصغارهم، وكان لي منه نصيبٌ أيُّ نصيب، إن قلتُ: لم أنل الخير إلا معه، ولم أر السعد إلا في أيامهَ، كنتُ صادقاً.

وكان يتفقد نفسه إذا وقع في شيء من الهمّ، حتى إنه جاء يوماً من المسجد وبيده قُطَيعة من حديد، تساوي فلساً، أو لا تساوي، فنادى ولدي

أحمد رحمهما الله تعالى فأعطاه إياها ليلعب بها، ثم خرج عنا، فلما دخل المسجد رجع بسرعة. فقال: ايتوني بتلك الحديدة. فأتيناه بها، ثم بعد ذلك جاءنا على عادته فسألته عن حكايتها؟

فقال: لما رجعتُ إلى المسجد فقدت سكينةً كانت معي في المحفظة قال: فتفقدت نفسي وتفكرت فيما عملت حتى عوقبت في السكينة، فلم أجد إلا تلك الحديدة فرددتُها في موضعها فوجدت السكين، وكان في هذا المقام وأعلى من هذا المقام.

واتفق أنْ مرض في بيتي مرضة شديدة، آيس من نفسه فيها، فدخلتُ عليه يوماً وولدي أحمد عنده، وكان صغيراً وسمعه يقول: يا ولدي يا أحمد أقوم من هذا المرض وأتعافىٰ، ثم سمعتُه يقول: فيها البركة يا ولدي.

فقلت له: ما يقول لك وما معنى كلامك؟

فقال: قلت له: كذا وكذا.

فقال: إشارة بيده أربع فتوالتها أربع سنين، فأنا أعيش أربع سنين، فكان كذلك. مات في الأربعة بمكة رحمه الله.

وكان ليلةً يصلّي واقفاً في السطح، وكان بإزائه نساء في عرس، فضربوا الدفوف والمعازف والرباب، وأنواع الطرب بحذائه، حتى إنه لم يدر ما يصلّي، فرأيته قد نزل إلى أسفل البيت، فلم يكن إلا قليلاً حتى طلع إلى مكانه، وسكن ذلك اللعب واللهو.

فسألت عن سبب سكوتهم؟

فقالوا: بينما نحن في ذلك الحال، إذ وقعت عروسنا من الدرجة فانعطبت في رجلها، فعلمت أنَّ ذلك ببركة خاطره، إذ كانوا على أنواع من المعاصي والملاهي، نفعنا الله به وجمعنا وإياه في مستقرِّ رحمته، فقد انتفعنا بصلاحه وبخاطره وبخدمته، وبولده أبي عبد الله محمد من بعده حفظه الله تعالى، وردَّه إلى ما كان عليه والده من الانقطاع عن الناس، والعُزْلة عن الخلق فهو ـ وإن كان على خير ـ، فحالُ الشيخ أكمل وأقرب إلى السّلامة في الدنيا والآخرة، وقد تقدَّم ذكر وفاته. جمعنا الله وإياه في مستقرِّ رحمته.

ثم أدركتُ من الشيوخ الكبار علياً الواسطيّ(١)، كان من الأولياء ملازمَ الصوم، قد حمى عينيه النوم، كان يقيم بالمدينة أو بمكة، حتى إذا اشتاق إلى وطنه أخذ ركوته وخرج حتى يأتي أرض العراق لا يعترضه أحد من الأعراب، ومَنْ وجده أكرمه وبلَّغه إلى حيث يأمن عليه، قد عرفته العرب واعتقدته آل مُهنا اعتقاداً عظيماً، حتى كانوا يصدرون عن رأيه، ويتبركون بعصاه وثوبه، وكان إذا جاء المدينة سكن إحدى المدرستين الشهابية أو الأزكجية، ويخدمه جمال الدين المطري ويقوم به، ويقتصر الشيخ عليه لا يكاد أحد يدنو منه لهيبته في النفوس.

وحكى لي جمال الدين رحمه الله: أنَّ الشيخ بعث إلى الملك الناصر يقول له: أنا أضمن لك على الله قضاء ثلاث حوائج إن قضيتَ لي حاجةً واحدةً، وهي إزالةُ هذا الشُّبَّاك الذي على الحجرة الشريفة، فبلغه ذلك فتوقف ولم يفعل، وليته فعل فإنَّ في الشباك الذي يدور على الحجرة، قطع جانب من المسجد، وتحجيز كثير من الروضة المشرفة، وفي كلِّ زمان يجدَّدُ ويعمر بما يتقوى به ويتأبَّد، وأُدخلت فيه قطعة كبيرة لما أزيلت المقصورة، وقد تقدَّم ذلك. وللشيخ ـ رحمه الله ـ أنواع من الكرامات، لحق بها أهل الولايات، توفي ـ رحمه الله ـ في حدود الثلاثين وسبعمائة(٢).

ومثله من سكان المدرسة الشهابية الشيخ أبو الربيع سليمان الغماري(٣) رحمه الله، كان من شأنه التجرد والتقلل من الدنيا والتعبد، كان يأخذ في الموسم قوته كفافاً ويتصدَّق بما زاد، وكان الشيخ عمر الخراز يشتري له إدامه ويحاول هو ذلك بنفسه، ولم يزل كذلك حتى كفَّ بصره، فعرض عليه القيام بما يحتاج إليه من الإدام فلم يفعل، وكان يضع القُدَيْرة على

---

(١) هو: علي بن الحسن الواسطي، ذكره السخاوي في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣١٠ (٣١٢١)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٧ (٨٢)، «معجم الشيوخ» ٢/ ٢٤ (٥٢٥).

(٢) في مصادر ترجمته: سنة ٧٣٣، وكذا ذكر بهامش النسخة (ب)، نقلاً عن الأصل المنسوخ منه.

(٣) ذكره السخاوي في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٢٣ (١٦٥٣)، نقلاً عن ابن فرحون والمجد اللغوي.

كانون فحم، ويضع فيها ما تيسر، فإذا طابت أكل ما وجده فيها على أيِّ وجهٍ كان، وينزل إلى البئر فيملأ الابريق بنفسه.

فيقول له القيِّمُ أو غيره ممن يعتقده: يا سيدي أنا أكفيك ذلك، فيأبى.

ولم يزل على هذه الحالة حتى توفي رحمه الله.

أخبرني جمال الدين المطري رحمه الله: أنَّ السنة التي جاء فيها التتر إلى أطراف الشام، وتحرَّك عليهم فيها الملك الناصر، أيقن الناس أنه لا يكون في تلك السنة حاج، وأنَّ المسلمين اشتغلوا بأنفسهم، فهمَّ الأشراف بالمجاورين والخدام، وقالوا: نغتالهم ونقتلهم، ونطيّب المدينة منهم، وجال الكلام بين الناس، حتى أرجفوا بالمجاورين والخدام.

قال لي جمال الدين: فجئتُ إلى الشيخ أبي الربيع في الحرم فقلت: يا سيدي، ما ترى ما الناس فيه من الوعيد والتهديد؟ فقال لي: ما يقولون؟ فقلت: كذا وكذا.

فقال: بل يكذبون، بل هذه السنة آمن السنين، والسلطان طيب، وسيجيء في هذه السنة، وكانت سنة اثنتي عشرة وسبعمائة.

قال: فلم نلبث إلا قليلاً إذ جاء الخبر بحجِّ السلطان من الشام، وجاءت الإقامات، وتهدَّمت الإرجافات، وقوي رجال السُّنَّة، والحمد لله بعد تلك المخافة، فللَّه الحمد.

وأخبرني الشيخ أبو عبد الله محمد بن سالم المكي(١)، أنه كان ساكناً في المدرسة الشهابية في بيتٍ بإزاء بيت الشيخ أبي الربيع.

قال الفقيه محمد: فكنت أدرس «التَّنبيه» وأرفع صوتي، وكنت جهوريَّ الصوت لا أُحسن أقرأ إلا كذلك، ولا أحفظ إلا برفع صوتي.

قال: فتشوش الشيخ من رفع صوتي.

فقال لي: يا محمد، إخفض من صوتك.

قال: فقلت: يا سيدي ما أقدر أن أقرأ إلا هكذا.

---

(١) هو: محمد بن سالم بن إبراهيم بن علي الحضرمي الأصل ثم المكي، ولد سنة ٦٨٦هـ. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٧ (٣٧٦٨)، «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٤٢ (١١٨٢).

فقال لي: فاخفض قليلاً، فلم أفعل، فأصابني عارض من نزلة منعتني أن أتكلم. فمرَّ عليّ، فقال لي: يا محمد ما ترفع صوتك!

فقلت بالإشارة: يا سيدي، أنا تائب إلى الله تعالى، ففرَّج الله عني في الحين.

وكان الشيخ أبو الربيع ـ رحمه الله ـ فقيه المدينة ومفتيها على مذهب مالك، وكان إذا سئل عن المسألة يقول للسائل: هل سألت الشيخ أبا عبد الله بن فرحون؟ يعني والدي رحمه الله.

فإن قال: لا، يقول: اذهب واسأله وأخبرني بما يقول لك، وإن قال: سألته، يقول له: ماذا قال لك؟

فإذا أخبره نظر، فإن كان مما اتفقا عليه أمر السائل به، وإن كان فيه مخالفاً مَا، قال له: اذهب حتى أجتمع به.

فيجتمعان ويحرران المسألة، ثم يأمران جميعاً السائل بما يتفقان عليه، ولم يزالا كذلك حتى توفي قبل والدي بمدة طويلة رحمه الله.

وجاءت إلى السراج وظيفة التدريس في درس سلار، فنكب عن والدي، وطلع إلى الشيخ أبي الربيع في بيته بالمدرسة. وقال له: خذ هذه الوظيفة فدرِّسْ فيها.

فقال له: يا سراج الدين، وأين أنت عن الشيخ أبي عبد الله بن فرحون؟ والله إنَّه أعلم مني وأحقُّ بها مني.

وامتنع منها حتى رجع السراج يطلب لها والدي، وكان ذلك من السراج لشيء خشِيَ من وقوعه، فوقع ما توقع، والله غالب على أمره.

وأخبرني الشيخ عمر الخزَّار: أنه حضر موته فكان يقرأ القرآن، فلمَّا فاضت روحه كان يقرأ آيةً في سورة يوسف انتهت قراءته إليها، وهي قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فانظر إلى هذا الرجل ومقامه، وما كان من علو شأنه، كان لي ـ منه رحمه الله ـ نصيب وافر ودعاء كثير، أرجو من الله العظيم أن يحقِّق لي قبوله بمنِّه وكرمه.

ثم ممَّن صحبنا، ومنَّ الله علينا بحبِّه وصداقته والأخذ عنه، الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن حريث القرشي البلنسي ثم السبتي العبدري[١]، أقام بالمدرسة الشهابية في المبرك[٢] هو والشيخ أبو عبد الله القصري، كانا رحمهما الله متواخيين من عند شيخهما الإمام العلامة أبي الحسين عبيد الله بن أبي الربيع[٣]، وعنه أخذ الفقه والحديث، وكتب الشيخ أبو عبد الله القصري في ترجمة ابن أبي الربيع: إنه أعلم من رأيناه، وأفضل من لقيناه.

كان الشيخ - رحمه الله - على طريقة الأولياء العلماء العاملين، وكان إمام جامع سبتة، وكان معه مال حلال ورثه، وكان يسأل الله تعالى أن تكون وفاته عند آخر درهم منه، وكذلك كان، لم يتناول من حين دخل الحجاز إلى أن توفي طعاماً ولا شراباً ولا ملبساً إلا من ماله، وما قدم به معه. كان يلبس حسناً ويأكل طيباً.

وكان الشيخ أبو عبد الله القصري يلبس خشناً ويأكل قوتاً إدامه باذنجانة واحدة، أو قليلاً من حمص، وكان لا يأكل من لحم الحجاز ولا من سمنه، وكان يهدى إليه من الشام شيء من قديد اللحم فيقبله ويتبرَّضه[٤]. واتفق أنْ طَبَخَ الشيخ أبو عبد الله بن حريث القُرشي طبيخاً طيباً، وسأل الشيخ أبا عبد الله القصري أن يأكل منه معه، فأبى.

فقال له الشيخ أبو عبد الله بن حريث: كُلْ منه فإنه أحلُّ من طعامك ليس فيه شبهة.

فقال له الشيخ عن حرج: كيف يكون أحلَّ من طعامي، وما معك هو من أجرتك على الإمامة بسبتة؟

فقال: والله ما تناولت من معلوم الإمامة درهماً ولا ديناراً، وإنما

---

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/١٩٩ (٥٣٩).

(٢) لعله يعني: مبرك الناقة.

(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/٢٢٦ (٢٨٠١).

(٤) يعني استكفى به. وانظر «لسان العرب»، مادة: «ربض».

جمعتُه حتى تصوّر منه جملة اشتريت بها ربعاً لي وقفته على الجامع، فإن شئتَ فكلْ وإلا لا تأكل.

وولي خطابة سبتة ثلاثين سنة، وتفقَّهَ عليه أهلُها، وكان يروي «الموطّأ» عن ابن أبي الربيع عن ابن بقي، سمعتُه عليه بالحضرة المشرفة من الروضة، وكان إقامته بالحجاز تسع سنين. توفي رحمه الله بمكة في سنة اثنين وعشرين وسبعمائة.

وأما صاحبُه شيخنا الإمام العلامة الأستاذ المقري الولي المحقق السري، أبو عبد الله محمد بن غصن القصري الأنصاري(١)، جاور بالمدينة ثلاث مرات، الأولى: عام تسع وسبعمائة، والثانية: عام ثمانية عشر وسبعمائة، والثالثة: عام عشرين وسبعمائة، وكان عالم زمانه بالقراءات مشهوراً بالكرامات، قرأت عليه وأخذت عنه، وجودت القرآن عليه، فرأيتُ من سَنيِّ أحواله، ما لم أره في أحدٍ من أقرانه.

ذكر لي عنه من أثق به: أنه في تونس ظهر حاله ظهوراً عظيماً، واتبعه خلقٌ كثير واعتقده الخاصة والعامة، حتى خاف منه صاحبُ تونس وخشي على ملكه منه، فأمره بالرحلة عنه، وذلك أنه لو أمر الناس بخلعه لفعلوا.

قيل لي: إنه في يوم واحد فكَّ كثيراً من الأسرى من أيدي الفرنج بأموال لا تعدُّ ولا تحصى، وكان إذا تكلم في ميعاده في تونس على ما في الكرم والجود والإحسان إلى الخلق وترك الحقوق والتعامي عن الخصوم، لا يقوم إلا وقد ألقى الناس من وثائق الديون وشبهها ما يشبه رَبْضَة الثور الكبير(٢)، رضي الله عنه.

فلَّما قدم المدينة المشرفة أراد إخفاء حاله، وكان قصدَهُ التأدبُ مع المقام الشريف، فلزم الصلاة والإقراء حتى اشتهر حاله وكراماته، فاجتمع عليه أهل الخير ومشايخ الحرم، وسألوه أن يجعل لهم يوماً يعظهم فيه، فأنعم لهم بيوم في الجمعة بعد توقف كثير ومعالجة كبيرة، وربما رأى في

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٥٩ (٤٠٦٧)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) يقصد كثرة ما يلقى حتى كأنه ثور رابض، أي جالس.

النوم أنه أذِن له في ذلك، فوعد الناس بالجلوس لهم بعد صلاة الصبح من يوم الجمعة، فكان الناس إذا صلوا ذهبوا إلى مجلسه في آخر الحرم، حتى إنه لَيُسِمَعُ للمسجد من سعيهم إرتجاج عظيم، ولم يبق أحد في المدينة إلا حضر مجلسه من مجاورين وخدام ورجال ونساء وصبيان، وكان قد جعلني قارئ مجلسه، فأمرني أول يوم بأن أقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣] الآية.

ومن الحديث: حديث أبي سعيد الخُدري «**إنَّ الحلالَ بيّنٌ والحرامَ بيّن**»[(١)].

وكان يتكلم جالساً، فإذا غلب عليه الحال قام على قدميه وصاح بأعلى صوته، فكأنما يقدُّ بوعظه القلوبَ قدًّا، ويفتح عنها باباً مُوْصَداً، وانتفع الناس بكلامه.

ومن جملة كراماته أن الأمير الكبير كُبيش[(٢)] بن منصور كان متولياً في المدينة نيابة عن أبيه، فبلغه أنَّ عمه مقبل بن جماز[(٣)] أقبل من الشام يريد المدينة، فأمر كبيش بالاحتفاظ منه، ونادى في الناس: أن لا ينام أحد في بيته، وليذهبوا كلهم إلى القلعة يبيتون فيها، وحولها، وأن من تخلف عن ذلك حلَّ ماله ودمه، فلحق الناس من ذلك كرب عظيم، ولم يسعهم غير الطاعة.

فكان الناس كلهم مجاورهم وخادمهم، وضعيفهم وقويهم، وعالمهم وجاهلهم مستوين في هذا الأمر، ولم يبق من الجماعة غير والدي والشيخ أبي محمد البسكري والشيخ أبي عبد الله القصري، ومَنْ حبسه عذرٌ. وأقام الناس على ذلك أياماً كثيرة حتى اطمأنوا، وبات الناس في منازلهم وذهب عنهم الفزع في زعمهم.

فلما كان في بعض الأيام، قام الشيخ أبو عبد الله في الناس في

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٢) هو: كُبيش بن منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم الهاشمي الحسيني، كان ينوب والده في الإمارة، قتل في شهر رجب سنة ٧٢٨هـ. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٦٢ (٦٨٠)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٩١ (٣٥١٤).

(٣) هو: مقبل بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم الهاشمي الحسيني.

الروضة، فصاح قائلاً: اللهم مَنْ أراد المدينة بسوء مساءً فخذه صباحاً، ومَنْ أرادها صباحاً فخذه مساء.

ودعا واجتهد واحمرَّ وجهه، وقام على قدميه حتى قال من لا يعرف حاله: هذا منه هَوَسٌ؛ فإن الناس قد أمنوا وطابت قلوبهم، وهذا الرجل يذكِّر بالشر ويدعو على من أُمِن شره.

فلم يكن بعد ذلك إلا ليلة أو ليلتان، إذ أصبح الأمير مقبلٌ في المدينة قد دخلها هو وجماعة بالليل من خلف قلعتها، وذلك أنهم نصبوا سلماً استعملوه في الشام قطعاً موصلاً، هو اليوم في الحرم الشريف، وكان دخولهم ليلة السبت ثامن عشرين من شعبان سنة تسع وسبعمائة.

فلما أصبح مقبل وجماعته في الحصن، أراد أمير المدينة الهرب، ثم ثبته الله، فقاتلهم كُبيش مع أهل المدينة، فانتصروا وقتل الأمير مقبل، وجوشن وقاسم ابنا قاسم بن جماز، وأثخن باقيهم بالجروح، فعلموا أن الشيخ رحمه الله حدَّث بذلك، وكشف عنه وحذر الناس، ولكن ما فهموا.

ومن جملة ما رأيتُ من الشيخ رحمه الله؛ أنَّه لما قدم المدينة بعد مجاورته بمكة في آخر عام اثنين وعشرين وسبعمائة، وجد والدي قد توفي إلى رحمة الله. قال لي: ما منعك أن تقوم بوظائف والدك؟

فقلت له: يا سيدي لم يبق لي ركن، ولا معي من يساعدني غير الله تعالى.

فقال لي: أثبت على وظائف والدك، فأنت إنْ شاء الله تعانُ عليها.

فقلت: الاشتغال يطلب مادةً وصفاء فكر، وقد انكسر خاطري.

فقال: ألم تكن تشغل الناس بالعربية في أيام والدك؟

فقلت: بلى.

فقال: قَدُم على ذلك، ومن جاءك يقرأ شيئاً في الفقه فأقرئه ولو أن تصحِّحَ له كتابه، فقبلتُ كلامه وحملت نفسي على الاشتغال وصبرت، ولازمت. وكانت حلقتي فوق حلقة والدي في حياته ولله الحمد، واشتغلت اشتغالاً جيداً حصّلت في سنتي ما لم يحصله غيري في مدّة عمره.

ثم سافر الشيخ إلى القدس الشريف فوافاه بها الشيخ أبو يعقوب رسول السلطان أبي الحسن المديني، وقد أرسل لإقامة درسٍ بالمدينة ووظيفة أخرى، فاستشاروه فيما جاؤوا به ومن يتقدم فيه، فأشار عليهم بأن لا يقدم عليّ أحد، ففعلوا ذلك، وحصل لي الخير ببركة الشيخ وإشارته رحمه الله.

ثم سافر أخي عليٌّ رحمه الله إلى مصر، فلقي بها الشيخ أبا عبد الله الوادي آشي والشيخ أبا عبد الله بن الحداد، فسألهما المساعدة في السعي لي في وظيفة التدريس بالمدرسة الشهابية وغيرها، فطالبهما قاضي القضاة تقي الدين الأخنائي المالكي[1] بإثبات الأهلية، فكتب بذلك محضراً وشهدا بما فيه.

فلما وقف عليه ابن الأثير كاتب السر، قال: بعد أن تشهدَا بذلك فأنا أفعل لكما ما تحبّان، وجاءني في الموسم مرسوم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون رحمة الله عليه بالمدرسة المذكورة.

وكان الشيخ أبو عبد الله الوادي آشي[2] من شيوخنا المباركين الذين صحبوا والدي ورعوه في ذريته، وكان رحمه الله شيخاً في الحديث قد أفنى عمره في السّماع، ثم الإسماع، وكان يحرص على إسماع الصغار، ويأخذ خطوط الشيوخ لهم من غير أنْ يعلموا بذلك رجاء نشر العلم، وأنْ يذكر فيدعى له، وكان من أحسن الناس في علمه وأنسه، وفوائده، وفرائده، وصلى بالناس صلاة التراويح في مسجد رسول الله ﷺ فلم أسمع أحسن من جودة قراءته وجَوْدَة حفظه وترتيب مواقفه، وكان من القراء المجوّدين توفي بمدينة تونس بعد الحج والزيارة في حدود خمسين وسبعمائة رحمه الله.

قلت: وقد ذكرتُ الشيخ أبا عبد الله الوادي آشي استطراداً في ذكر

---

(١) هو: تقي الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي المصري، المعروف بابن الأخنائي: ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة. تولى قضاء قضاة المالكية بمصر، وكان من عدول القضاة وخيارهم، توفي سنة خمسين وسبعمائة. ترجمته في: «الديباج المذهب» ٣٢٧، «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٠٧ (١٠٨٠)، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٣٢٠ (٨٩١).

(٢) هو: محمد بن علي بن جابر الوادي آشي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٤٢ (٤٠٠٥)، نقلاً عن ابن فرحون.

النعم التي منَّ الله تعالى بها، وكان باب الخير والسعادة فيها شيخنا أبو عبد الله القصري[1] رحمة الله عليه، وله موضوعات مفيدة منها:

اختصار الكافي في «القراءات» لم يسبق إلى مثله، صغير الحجم غزير العلم، انتفع به الطلبة وحفظوه، وله مقدمة في النحو، وأخرى في الحديث، وأخرى في نصح الشباب.

وكان أخصّ أولاد المجاورين به الشيخ الفقيه العالم المتقن المقري، نائب الخطابة والإمامة بالحرم الشريف النبوي، شمس الدين محمد بن الشيخ صالح بن إسماعيل الكناني الشافعي المدني[2]، جوَّدَ على الشيخ[3] القراءات السبع وأتقنها، وورث من الشيخ ما كان يعلمه منها، وانتفع به أهل المدينة وغيرهم من الواردين وحصلوا وانتفعوا.

وكان شمس الدين[4] ملازماً للشيخ أبي عبد الله، حتى كأنه ولده وكان الشيخ أبو عبد الله يتمثل في شمس الدين وأخيه علي[5]، قوله تعالى: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكان والدهما الشيخ صالح[6] صالحاً على اسمه، وكان صانعاً مبيضاً، متقناً ناصحاً، يشتغل بالتبييض في الحرم الشريف، وذكر ولده شمس الدين أنه حجَّ ثماني عشرة حجةً ـ أعني والده ـ وأنه أعتق نحو ثلاثين مملوكاً تقبل الله منه، وسأل الله يوماً أن يرزقه ولداً صالحاً قارئاً لكتاب الله، ثم تزوَّج فرزق هذين الولدين، وأعطي فوق ما سأله في ولده شمس الدين، وكان ولده عليٌّ رجلاً صالحاً يخدم مشهد سيدنا حمزة رضي الله عنه.

وكانت وفاة الشيخ أبي عبد الله القصري في القدس الشريف في سنة

---

(١) تقدمت ترجمته.
(٢) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٥٧ (١٢٢٧)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٨٤ (٣٨٠٦)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٣) يعني الشيخ أبا عبد الله القصري.
(٤) يقصد المترجم له.
(٥) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٧٨ (٣٠٣٤).
(٦) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٤٩ (١٧٥٥)، نقلاً عن ابن فرحون.

ثلاث وعشرين وسبعمائة في عيد الأضحى رحمة الله عليه، وتوفي الشيخ صالح عام سبع وسبعمائة، وقد قارب عمره السبعين.

وكان من أرباب القلوب وأصحاب العوارف والمعارف والعكوف على العبادة والخير: الشيخ العالم الورع الزاهد أبو القاسم محمد بن محمد بن مالك بن سهل المقرئ النحوي المتقن، المحدث الإمام الفلكي الأندلسي الغرناطي[1].

صحبتُه فلم أر أحداً وصل إلى مقامه في التوجه والمحافظة على أوراده من صيامه وقيامه، كان من بيت الوزارة بالأندلس، فلما توفي والده تخلى عن القربة من أهل الإمارة، واشتغل بنفسه، وورث مالاً كثيراً فكان يقتات به وينفق منه، ولا يأكل من غيره ولو عرض عليه، كان رحمه الله رحلة في الفقه، وله يد طولى في علم الهيئة، لم يصل أحد إلى ما وصل إليه إلا القليل، وكان يقسم لي بالله تعالى أنه ما ازداد بعلمها إلا يقيناً، له مقامات لا يصل إليها أحد من المجاهدات إلا من سبقت له العناية الأزلية والمواهب العلية.

نزل معي في مِنَى وكان لا يترك قيام الليل لا في سفر ولا في حضر، فقام تلك الليلة في مِنَى على عادته، فلما أصبح طلبت منه «مناسك الحج» لابن مسدي رحمه الله، وكان لا يتركها إذا حجَّ، وكانت نسخة عظيمة بخط أخي عليٍّ رحمه الله مجلداً كبيراً، وفي هذا الكتاب التعرض لذكر المذاهب كلها، وأردت أن أكشف على مسألة. فقال لي: والله قد سرقت البارحة هي والبرنس والسيف.

فقلت له: وكيف ذلك؟

قال: جاء السارق من وراءِ المحارة وأنا في الصلاة أنظر إليه، فهمَّتْ نفسي بأخذه أو الصِّياح عليه، فآثرت صلاتي، وقلت: دعه، ما أنا فيه خير مما يفوتني. انظر هذا المقام العظيم!

---

(١) ترجمته في: «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٢٧٢ (٨٣٤)، «درة الحجال» ٢/ ١٠٠ (٥٣٣)، «الدرر الكامنة» ٤/ ١٧٨ (٤٨٣).

وأخبرني رحمه الله: أنه اغتسل في منزلة من منازل الحاج بالليل، فحل حزامه وكان فيه مال عظيم جُل ما يملكه. قال: فاشتغلتُ ونسيت حتى رحلت، ثم تذكرت بعد مرحلة، فحصل له من الأسف والحزن على ذلك المال الحلال أمر عظيم، فما كان إلا قليل إذ جاءني من يستفتيني، في لُقطة.

فقلت له: في أي شيء هي؟

قال: في حزام.

فقلت له: هاتها.

فهي لي بأمارة كذا وكذا، رحمة الله عليه.

توفي رحمه الله بمصر سنة ثلاثين وسبعمائة، ومولده سنة اثنتين وستين وستمائة ورثاه الشيخ أثير الدين بن حيان وغيره.

وكان مثل هؤلاء في العبادة والزهد، والقناعة ومحبة الإقامة بالمدينة ليموت بها.

الشيخ أبو عبد الله بن سليمان رحمه الله، كان مُكبّاً على فعل الخير ملازماً للصلاة والصوم، وكان أبوه في تونس وزير سلطانها بل هو في الحقيقة ملكها، فخرج ولده هذا عن حال أبيه، وصحب الشيخ أبا محمد المرجاني[1] فتخلق بأخلاقه وتأدب بآدابه، حتى ظهرت أنوار العلم والعمل عليه، وانتهت الكرامات إليه. وكان من أحبابي الذين انتفعت بهم وبدعائهم، وكانت له في تونس زاوية، وله أولاد وذرية رحمه الله وجمعنا وإياه في مستقر رحمته.

وممن كان من هؤلاء الجماعة في المدرسة الشهابية الشيخ يعقوب الشريف، كان له فقه وعلم واشتغال وعليه هيبة وجلالة، وإذا رأيته ملأ عينك بشراً من نظافته وجماله وعزته، أقام سنين كثيرة وكان له غيرة عظيمة على أهل السُنّة، لا يزال ينكر المنكَرَ، ويتعرض لأهل البدع فيأخذ منهم

---

(١) هو: أبو محمد عبد الله بن عبد الملك المرجاني، صاحب كتاب «بهجة النفوس والأسرار»، وقد تقدم.

بلسانه فَيُسَفههم، ويحطُّ منهم، وكان الوقت ليناً على حال أهل السُنّة لا يتمكن فيه من القيام بالحق، كما هو اليوم الحمد لله.

وكان في أيامه شخص من كبار الإمامية اسمه يعقوب بن الصفي يقف في وسط الروضة، ويقول بأعلى صوته:

إن كان رفضاً حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

فيفزع من ذلك أهل السُنّة، وكان له في مثل هذا التعصب أمثال وله أعوان، فأنكر الشريف يعقوب عليه، وباحثه وخطأه في مسائل بحث فيها، فرفع الأمر إلى الأمير منصور[1]، فرفع الشريف ورمي في الجب، ولم يخرجوه منه حتى غرّموه ألف درهم، وكان لا مال له، فضيقوا عليه ونكلوا به وتشفّوا من أهل السُنّة، فجُمعت له غرامته ودفعت إليهم.

فلما جاء الموسم ارتحل إلى العراق وأقام فيه مدة، وصحب الفقيه العلامة المصنف شهاب الدين عبد الرحمن بن عسكر المالكي[2]، وغيره فأحسنوا إليه إحساناً كثيراً، ثم جاء المدينة فأقام بها وقد جمع شيئاً من الدنيا، فسلط الله عليه رجلاً من أهل الشر اشتغلَ به، فآذاه وبالغ في أذيته حتى وصل إلى أن قال له: ما أنت شريف، فلحقته حُمية أزعجته، فسافر يريد بلده لإثبات نسبه، فلقيه جماعة كثيرة من كبار أهل تونس وعلمائها ورؤسائها.

فقالوا له: أين تذهب؟

فقال: جرى لي كذا وكذا، وأنا أريد بلدي، وإثبات نسبي وآتي به معي، وإلا فلا أرجع إلى المدينة وأنا بهذه الحالة.

فقالوا كلهم: نحن نشهد بأنك شريف النسب، وأن جماعتك وأهلك كلهم كذلك، لم يزل هذه معلوماً، وبيننا مشهوراً.

---

(١) هو: الشريف منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم الهاشمي الحسيني، استقل بالإمارة في حياة والده سنة ٧٠٠هـ، قتل في رمضان سنة ٧٢٥هـ. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٦٢ (٩٨٨).

(٢) هو: الفقيه العالم الصالح المحدث، شهاب الدين عبد الرحمن بن محمد بن عسكر البغدادي، ولد سنة ٦٤٤هـ، له تصانيف منها: «عمدة السالك والناسك»، توفي سنة ٧٣٢هـ. ترجمته في: «شجرة النور الزكية» ٢٠٤ (٧٠٢)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٤٤ (٢٣٥٣).

فقال: إذا جئتم المدينة اجتمعوا بشيخ الخدام وشيخ الحرم وفقهائه واذكروا لهم.

فذهب، وقدموا المدينة وحضروا في المسجد الشريف وأدَّوا ما عندهم من الشهادة بين الخدام والمجاورين، ثم إنه ذهب إلى أقصى الغرب فاجتمع بأبي سعيد عثمان[1] بن يعقوب بن عبد الحق، فأكرمه وخوَّله مالاً كثيراً فانتقل إلى الأندلس، رغبة في الشهادة.

فلما استقر بها وكثر خيره وخيله وخوله وعبيده وجواريه، أتاه أجله فتوفي رحمه الله عن وصية أخرج منها خمسمائة دينار لوقف يشترى بالمدينة يصرف ريعه على من بالمدينة في المدرسة الشهابية من المالكية والشافعية، وإنما خص به الشهابية؛ لأنها كانت مستقره ولم يكن في وقته غير هاتين الطائفتين، حتى جاء شمس الدين ابن العجمي فولف جماعة من الطلبة الشافعية، وأمرهم بالاشتغال بمذهب أبي حنيفة، فأجابوه إلى ذلك، وتفقه منهم جماعة وصاروا أئمة وقتهم، وانتفع الناس بعلومهم، وظهر مذهب أبي حنيفة بالمدينة ببركة هذا الرجل وحسن نيته، وكان ذلك في حدود ثلاث وعشرين وسبعمائة.

فلما وصلت الوصية على يد ولد بن سهل[2] وزير الأندلس، جرى فيه أحوال وقصّته طويلة، وخرج آل منصور من المدينة بسببها، لأن الأمير طفيل أراد أن يأخذه كله، فكتب فيه القاضي شرف الدين الأميوطي إلى السلطان فعزله، في قصة تشتمل على غرائب لا يسع ذكرها هذا المكان، ووقف على الفقهاء من ذلك المال الحديقة المسماة «بغشاوة»، ووقفتُ على الوصية وقرأتها، وكان القاضي تقي الدين الهوريني[3] يصرفها على شرط الواقف، ولا يتخصص بشيء منها رحمه الله.

---

(١) هو: عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، صاحب مراكش وفاس: ولد سنة ٦٧٨هـ، وتولى المملكة بعد أخيه يوسف سنة ٧١٠هـ، توفي سنة ٧٣١. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٤٥٢ (٢٦١٦).

(٢) هو: أبو القاسم محمد بن سهل الأندلسي.

(٣) هو: عبد الرحمن بن عبد المؤمن بن عبد الملك، تقي الدين الهوريني: ولد سنة أربع وتسعين وستمائة، ولي قضاء المدينة المنورة سنة خمس وأربعين وسبعمائة، كما ولي الخطابة والإمامة بها، توفي سنة ستين وسبعمائة. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٣٤ (٢٣١٨)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٣٧ (٢٤٧٩)، نقلاً عن ابن فرحون والمجد اللغوي.

ومنهم الشيخ محي الدين الحوراني[1]، أقام بمكة مدة طويلة تفقه بها، وأدرك الحافظ محب الدين الطبري الكبير فتفقه عليه.

ثم أقام بالمدينة نحواً من عشرين سنة على اشتغال بالعلم وتجرُّد من الدنيا، وكانت له خزانة عظيمة مشتملة على كتب حفيلة، مثل: «الرافعي» و«ابن الرفعة»، و«الروضة»، وغير ذلك من الكتب المنتقاة، أوقفها كلها وجعل مقرها بالمدرسة[2] في خزانتها، وكانت أمام بيته الذي هو في الزاوية الملاصقة لإيوان الشافعية، وكان يظن أن المدرسة تكون أبداً على حالها في أيامه، فشرط أن لا تغير الخزانة من موضعها، ولو رأى حالها اليوم ما قيدها بهذا الشرط.

ولما خيف عليها أمر القاضي بحملها ووضعها في خزانة الكتب اليوم، وهو البيت الذي على باب المدرسة أصلح الله أمرها، ورد إليها حالها.

وكان الشيخ محيي الدين نائباً في الحكم عن القاضي سراج الدين لما سافر إلى مصر، فحكم وعدل، ودرّس فما قصّر، وكان والدي رحمه الله يحضر درس السرّاج، فلما سافر السرّاج. قال محيي الدين الحوراني: لا يحل لي ولا لك أن تحضر معي وأنت قادرٌ على القيام بشرط الواقف في تدريس جماعتك والانفراد بهم في إيوانهم.

فتوقف والدي خوف فتنة السراج، ولما يَعْلم من خُلقه وكراهيته لهذا الأمر، فعزم محيي الدين على والدي وشدد عليه، فجلس والدي في إيواننا اليوم، وهو الإيوان الذي فيه الشباك ودرّس، والتفت عليه الطائفة المالكية وبعض الشافعية، وكان طلبة المالكية أكثر من طلبة الشافعية، فلما جاء السراج من البلاد عزَّ عليه ما وقع وأنّب الحوراني وهجره وسفّه رأيه.

وقال له: فتحت عليّ باباً كنت قد سددته، وحسمت مادته، والله لا تركته حتى أُغلَب عليه. ثم إنه اجتمع بوالدي وألانَ له الكلام وأضمر له الخداع.

---

(١) هو: أحمد بن عبد الواحد بن مري بن عبد الواحد السعدي المقدسي: ولد سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، كان أحد المشايخ المشهورين الجامعين بين الفضل والدين، توفي بالمدينة سنة سبع وستين وستمائة، ترجمته في: «العقد الثمين» ٣/ ٨٣ (٥٨٨).

(٢) يعني: المدرسة الشهابية.

وقال له: من بقي عندي إذا انعزلت عني ومن يفهم عنّي، ما كان هذا فيك ظني، الصحبة كانت لله، فلا تقطعها بكلام أولادك ولا بكلام غيرهم من حُسادك.

فلما أكثر عليه من هذا، لان له وعزم على الحضور عنده، وتركِ الدرس والتدريس، وكان مع والدي كما قال بعضهم:

مَنْ لي بمَنْ يبق الفؤاد مودة ... وإذا ترحَّل لم يزغْ عن عهده

يا بؤسَ نفسي من أخٍ لي باذلاً ... حسن الوفاء بقربه لا بُعدِه

يولي الصفاءَ بنطقِه لا خلقه ... وَيدسُّ صاباً من حلاوةِ شهدِه

لا هَمَّ إني لا أطيق فِراسة ... بل أستعيذُ من الحسودِ وكيده

وكان الشيخ أبو عبد الله القصري يومئذٍ بالمدينة، وكان يحضر الدرس على يمين والدي، والشيخ أبو عبد الله بن حريث على يساره، فأغاظهما ذلك وكثرت أنا عليهما الشكوى، فاجتمع الشيخ أبو عبد الله القصري بوالدي وقال: لا سبيل إلى أن ترجع إليه، ولا يخلصك هذا من الله.

وشدد عليه وأقسم عليه حتى رجع من ذلك الرأي، فأصبح في مجلسه مع جماعته والسراج منفرد مع أصحابه، فعاود الاجتماع به وكثّر عليه.

وقال له: ألم أقل لك لا تسمع من هؤلاء الذين يريدون فرقتنا وذهاب أُبهتنا، ما هذا مليح والرأي أن لا تفعل وترجع إلى مكانك معي، فأنا أعلم أنك لا تحب الفتنة ولا الظهور، وفي هذا الذي أنت فيه تجري أمور.

ولم يزل به حتى رجع إليه، فرجعت إلى الشيخ أبي عبد الله وعرفته بما يفعل السراج معه، فعاوده الشيخ وأقسم عليه وشدّد عليه العزيمة.

فقال له والدي: أخشى أن يتعدى الحال إلى فرقة وعصبية، فيذهب نورُ العلم وتفسد النيّة، وهذا اليوم حاكم وأنا من طبعي وعادتي أني لا أناصِي[1] أحداً، ولو كان لي ولداً.

فقال له: الترك أسهل عليك، وعلينا أسلم لنا إذا عجزنا.

---

(١) يعني: لا أستقصي عليه. وانظر «لسان العرب»، مادة: «نصص».

فعاد والدي إلى عادته من تدريس جماعته وتركه، ولم يعاوده ولم يجتمع به، فساءه ذلك واغتاظ، وأمر القَيِّم أن يخرج من بالمدرسة من المالكية ولا يفرش لهم، ولا يتركهم يسكنون فيها حتى يرجعوا عن رأيهم ويحضروا على عادتهم معه، فترك والدي حينئذٍ المدرسة والتدريس بها واشتغل بنفسه وبحاله.

فقال له الشيخ أبو عبد الله: ما هذا رأي، اجلس للجماعة بالمسجد وادع للواقف الذي أنشأ المدرسة، ولا تقطع الجماعة وإفادتهم حتى يقضي الله بما فيه الخيرة لهم.

فأطاعه والدي، وأخرج النقيب المالكية من المدرسة، فمنهم من انتقل إلى الربط، ومنهم من سكن بالكرى، ومنهم من طلب السفر.

ثم جلس والدي في المسجد فاجتمع عليه في المسجد خَلْقٌ كثير، فكان السراج يمر على والدي ويرى حَلقته وكثرة جماعته فيسؤُه ذلك، وخشي على نفسه أن يسمع عنه أنه أخرج الفقهاء من المدرسة لأجل الهوى، وتعب قلبه لذلك.

فجمع أصحابه وقال لهم: يا أصحابنا هؤلاء الجماعة قُدناهم إلينا بالسلاسل فلم ينقادوا، وما يعود انفرادهم في المسجد علينا بخير، والرأي عندي أن يرجعوا إلى المدرسة ونحن إلينا المرجع في العلوم، فنعطيهم ما نشاء ونحكم عليهم ونضيق عليهم فلعلهم يرجعوا إلينا.

وأرسل إلى والدي. وقال له: ارجعوا إلى مكانكم وقوموا بما يجب عليكم، فلي النظر والتفقد على الطلبة.

فلم يرع كلامه والدي، ورجع ودرس على عادته، فلما جاء وقت تفرقة التمر الموقوف على طلبة العلم بالمدرسة من الوقف المسمى «بالمليكي والبصة» أرسل إلى والدي بثمانين صاعاً.

وقال له: فرق على جماعتك.

وأخذ هو وجماعته نحو المائتين صاعاً، فشاور والدي فيها أصحابه والشيخ أبا عبد الله. فقالوا: ردها لا تأخذها، ولا تأخذ إلا النصف أو يحضر كتاب الوقف، فردّها.

فقال السراج: لا نزيدكم عليها ولستم مثلنا، ولا اشتغالكم كاشتغالنا، والحكم في ذلك لي، فإن كنتم محصّلين وفيكم مشتغلون، فالموعد بيني وبينكم يوم الخميس عند القبة حتى أختبر الجماعة وأعرف أهل العلم من أهل الجهل. فوافقه والدي وحضر معه عند القبة، وأحضر الجماعة، فأخذ السراج يوبخهم ويؤنبهم.

ويقول لكل واحد: ما كتابك؟ وما قرأت منه؟ وما معْك من الحاصل؟ وما تقول في مسألة كذا؟ ويتعنَّتُهُمْ، وكان منهم جماعة مشتغلون، أحدهم الشيخ موسى الجزولي.

فقال له: هات كتابك فاعرضه عليّ.

فقال: لست بشيخي حتى أعرضه عليك. اسأل عني وعن علمي إذا جهلتني، فقال لآخر: ما كتابك؟

فقال: كتابي «الرسالة»، فقال: كتاب الكسالى، ثم قال لآخر: ما كتابك؟ فقال: «الجلّاب».

فقال: هاتِ أَعْرِضْ وإلا فَأَعْرِض، ثم قال لآخر: ما كتابك؟ فقال له: «الطليطلي»، فقال له: أنحست.

وكان الشيخ أبو عبد الله القصري في القبة يقرأ القراءات، فبلغه خبره وما عمل مع الطلبة وتهكمه بهم، فقام من مجلسه وقد امتلأ غيظاً وقد صار وجهه مثل قطعة السَّحر من شدة ما وجد، فجلس قريباً منه.

وقال: بلغني أنك قلت في كتاب «الرسالة»: كذا، وفيها من المسائل كذا وكذا، وفيها من حديث الرسول ﷺ كذا، ومصنفها الشيخ أبو محمد بن أبي زيد كان من العلماء الأتقياء العاملين، ثم تقول: في كتاب «الطليطلي» كذا، وكان من صفات مؤلفه كذا وكذا، ثم تسلط على طلبة العلم وتوبخهم وتهينهم وتفعل معهم وتفعل، وكم لك عندي من قضية وزلّة، فعلت كذا في وقت كذا، وأمرَت بكذا في وقت كذا.

فقال له القاضي: اترك هذا يا أبا عبد الله واشتغل بنفسك.

ثم دفع الرمل بيده في وجه الشيخ، غير أنه لم يصل إليه، فقعَدَ الشيخ

على ركبتيه وكساه بالرمل حتى دخل في فمه، فجعل يقول له: لا تفعَل يا أبا عبد الله، لا تفعل لا تفعل، وقام إليه الظهير شيخُ الخدّام، وجماعتهم فقبّلوا رأسه وسألوه الكفَّ عنه والرجوع إلى مجلسه، فرجع إلى مكانِهِ وانكسرت شوكة السراج بعد ذلك، وترك الشر وزاد الجماعة من التمر.

فلم يلبث إلا قليلاً إذ جاء الخبر أن القاضي فخر الدين ناظر الحرمين يريد الحج، فخاف السراج على نفسه، وخشي أن يشكو عليه الشيخ، فلما قدم الفخر المدينة، رأيت الفخر يدور المسجد يطلب الشيخ أبا عبد الله القصري، والسرّاج خلفه يطلب الاجتماع بالفخر وهو لا يلتفت إليه، فلم يذكر الشيخ له شيئاً مما وقع بينهم وبينه، ولا بيننا وبينه حتى سافر، ومن يومئذٍ استمر حال المالكية وظهر أمرهم وقوي مذهبهم وكثرت جماعتهم وأولادهم، فقرأوا الكتب المطولة وفقهوا ببركة والدي والشيخ أبي عبد الله القصري رحمهما الله.

ثم توفي والدي[1] عام اثنين وعشرين وسبعمائة، فتعطّلت المدارس واستبشر المراوش[2]، وزعموا أن لا تقوْم بُعد والدي للمالكية راية، ولو علموا ما في الغيب ما عملوا، فلم تكن إلا سنة واحدة حتى جاءني البشير بالتوقيع والمراسيم، فأراد السراج ومن معه من الأعوان الكلام في ذلك، فخاف على منصبه ورجع على عقبه واستقللتُ ببركة هذا النبي الكريم ﷺ.

وكان لي في ظهور مذهب مالك ونشره بالمدينة عمل عظيم، أرجو به من الله الثواب الجسيم، والنعيم المقيم، فإنه لم يكن له ظهور من قبل ذلك بسنين، فالحمد لله على ما أعطى ومنع، وضيق ووسع، ولو أذكر لك ما قاسيتُ في ذلك الوقت وبعده من أهل الشر والحسد والبغي لوقفتَ على صبر عظيم، وعلى خطب جسيم، وعذاب أليم، من سواد خَلْفٍ لئيم، أعُوذ بِاللَّهِ من أمثالهم ومن الشيطان الرجيم، أخذوني تارة بالخدع والملق، وتارة يُجاهِرُون فأعوذ برب الفلق.

---

(١) سيورد المؤلف ترجمة وافية في آخر الكتاب عن والده وأخيه، وقد نقل معظمها السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٦٢ (٤٠٧٤).

(٢) يعني: الأشرار. انظر «لسان العرب»، مادة: «مرش».

وما أحسن ما قيل في مثلهم:

إن شر الناس من يشكر لي ... حين يلقاني وإن غبتُ شَتَمْ

ويُحَيِّيني إذا لاقيتُه ... فإذا يخلو له لحمي كَدَمْ

ولكن تخلل ذلك من اللطف ما يجلُّ عن الوصف، والنصر مع الصبر، وما شبه حالي معهم بقول القائل رحمه الله:

ألا إنَّ إخواني الذين عهدتُهم ... أفاعي رمال لا تقصّر في لسعي

ظننتُ بهم خيراً فلمَّا بلوتُهم ... حللتُ بوادٍ منهم غيرِ ذي زرعِ

نسأل الله الكريم أن يقينا شرور أنفسنا وكيد الحساد، ويرزقنا الاستعداد ليوم المعاد بفضله وإحسانه.

وكانت وفاة الشيخ محيي الدين الحوراني بعد وفاة والدي بثلاثة أيام، وكان قد ابتلي بالبواسير - والعياذ بالله - فصبر حتى جاءه اليقين، ودفن بالبقيع إلى جنبِ والدي رحمهما الله تعالى.

ومن العلماء الذين كانوا في المدرسة الشهابية الشيخ نور الدين حسن الأسواني(1) أخو الشيخ شرف الدين الزبير(2) الأسواني رحمهما الله تعالى، كان من العلماء المتقشفين المتخيلين، كان رحمه الله إذا خرج من بيته يقف ساعة يعوذ بابه، ويحوط عليه يظن أنه يخلف على بيته، فإذا رجع إلى بيته تخيّل أنه كلَّه تحوَّل وتغير، فيدَّعي على مَنْ فعل ذلك، ما ثَمَّ غيرُ الخيال، وكان على باب بيته ورقة طويلة عريضة فيها من التعاويذ والأقسام وعزائم الجان أنواع، وهذا كله مع الصلاح الكثير والانقطاع العظيم، وكان يتهم الشيخ محيي الدين الحوراني بأنه يسحره في كتبه وفي قِدْرته.

قال لي يوماً: بينما قِدرتي على النار إذ صار أسفلها مثل الغربال ينزل منه المرق نزول المطر، فعلمتُ أنها مسحورة، فقرأتُ عليها كذا وكذا فزال ذلك عنها.

---

(1) هو: الحسن بن علي بن سيد الكل بن أيوب بن أبي صفرة الأسواني. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» 1/279 (933)، نقلاً عن ابن فرحون والمجد اللغوي.

(2) ترجمته في: «الدرر الكامنة» 2/113 (1733)؛ «التحفة اللطيفة» 1/355 (1308).

وكان إذا أعاره أحد كتاباً ثم جاءه يطلبه منه يدخل بيته فيدوّر عليه ثم يخرج.

ويقول له: كتابك أخذ من بيتي الساعة، ولكنهم سيردونه إليَّ عن قريب؛ لأن هذه عادتهم معي فيه، فيذهب صاحب الكتاب وهو مشوش الخاطر، ثم يرجع إليه فيجد كتابه.

فيقول: هذا كتابك ردُّوه إليَّ.

وكان متعبداً متحرِّزاً كثير الصدقة، جرى له مع السراج حكاية اختصارها: أنه قال للسراج: عملت قصيدة ذكرت فيها من صفات النبي ﷺ ما لم يذكره غيري.

فقال له: هات منها، فذكر أبياتاً منها.

فبوطئه صار التراب طهوراً

فقال السراج عند ذلك: كذب، من قال هذا؟

فأخذ عليه وهجره، وبعث إلى القاهرة يستفتي فيما يجب في ذلك عليه، ومكث أياماً كثيرة لا يصلي خلفه ويتركه حتى يقيم الصلاة ويدخل السراج في المحراب في العشاء الآخرة، فيتقدم إلى الشمعة فيقِدُ منها شمعة والإمام يصلي، وربما ركع وهو قائم يحسن الطوافه ويفتل رأسها حتى أنكر الناس فعله والسّراج يتغافل عنه ويكره شره، لأنه كان له بالقاهرة أهل وقرابة أجلهم الشيخ حسين الأسواني[1] أخوه علاّمة القاهرة في وقته، وولده أيضاً من المتفننين المتقنين، ولم يرجع الشيخ حسن عن فعله حتى قام عليه النكير واجتمع عليه الناس الصغير والكبير.

وأخبرني أنه لما انتقل من المدرسة ومُنع من الجامكية ـ وكانت الجامكية يومئذٍ لها صورة ـ، لقيه رجل فأعطاه صرة فيها القَدرُ الذي كان يدفع إليه في المدرسة، ولم يعرفه ولا درى مَنْ هو، وكان أخوه شرف الدين الزبير مثله في الصلاح والدين وسلامة الباطن، وكان إماماً في علم

---

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٦٠ (١٦٠٢)، «طبقات الشافعية» للإسنوي ١/ ١٦٨ (١٥١).

القراءات وانتفع الناس به، وكان يُسمع عليه الحديث، سمعنا عليه «الشفا» للقاضي عياض، و«دلائل النبوة» للبيهقي، مع سراج الدين الدمنهوري رحمهم الله وغير ذلك، وكان فقيهاً شافعياً من أعظم الناس ديانة وعفة مع كثرة عيال، وكان يصلي في الروضة إلى جنب المنبر، ويعزُّ عليه إذا رأى أحداً في موضعه لكثرة ملازمته، وكان متصدياً للإقراء، وظهر في آخر عمره رحمة الله عليه.

وحكى لي مَن أثق به: أنه جاء كتاب من مكة إلى شمس الدين صواب[(١)] المغيثي بأن يعطي لشرف الدين[(٢)] الزبير مئة درهم، ولم يعلم بما في الكتاب أحد، فحصل عند الطواشي من المئة خمسون درهماً، فأرسلها مع جمال الدين المطري إليه، وكان المطري يفرح بخدمة الصالحين وإدخال المسرة عليهم، فجاءه بالخمسين، فقال له الزبير: بقي لي عندك خمسون درهماً.

فقال له: من أين، ما أُعطيت إلا هذه.

فقال له: رُدَّها ما هي إلا مئة. فاشتدَّ ذلك على جمال الدين، وحنق عليه وجاء إلى المغيثي، وحكى له ما جرى له. وقال: ما أتيتني بخير، اتهمني وردّها علي.

فقال له الطواشي: صدق الشيخ، كانت مئة درهم تيسَّر نصفها، فأردت أن يعجَّل له لينتفع به حتى يحصل الباقي، فرجع جمال الدين إلى الشيخ وأخبره. فقال له: ألم أقل لك.

فقال له: فمن أين عرفتَ أنها مئة؟.

فقالت: رأيت النبي ﷺ في النوم فشكوت عليه حالي، فأعطاني مئة، فلما أعطيتني خمسين علمت أن الرؤيا حق، فطلبت الباقي فلا تلمني.

وذكر لي: أنه كان يوماً على فاقة، فرأى النبي ﷺ أعطاه ستة عشر درهماً.

وقال: خذ هذه فأنفقها، والأمر أقرب من ذلك.

---

(١) قد تقدم ذكره.

(٢) هو: شرف الدين الزبير بن علي الأسواني. وقد تقدم.

قال: فانتظرت شيئاً فلم يأتني شيء، فلما صليت صلاة الظهر صلى إلى جنبي الشيخ أبو بكر الشيرازي، فجعل تحت سجادتي شيئاً ثم مضى، وكان التعامل يومئذٍ بين الناس بالعلوية، وهي قطيعات فضّة مسكوكة باسم صاحب المدينة، كل واحد صرفه بسدس درهم، ولم يكن يومئذٍ فلوس.

قال: فكشفت السجادة فوجدت علوية صرفها ذلك العدد. أعني الستة عشر التي أعطانيها رسول الله ﷺ فحمدت الله، وقلت: الأمر أيسر من ذلك، فما فرغت حتى فتح الله بغيرها، وكان بيتهم بيت صلاح وخير وعلم رحمهم الله أجمعين.

وكان له ولدان أحدهما الفقيه العالم المتفنن بدر الدين عبد الله، وشمس الدين محمد، فأمَّا محمد فأقام بمصر، وأمَّا عبد الله فأقام عند والده وساعده على وقته، وكان مشتغلاً بالعلم مشاركاً في فنون، ولما توفي والده في سنة سبع أو ثمان وأربعين ضم شمل عيال والده، وأضافهم إلى عياله وارتكب بسبب كثرتهم وقلة شفقتهم عليه ديون عظيمة، وفي السنة التي توفي فيها وهي سنة اثنتين وستين وسبعمائة عزم على السفر إلى مصر لأجل ثقل دينه، فمرض قبل السفر بيوم فبطّل واتكل في قضاء دينه على الله، فمرض أياماً يسيرة ثم توفي رحمه الله تعالى، فحُسب ما عليه من الدين فكان ثمانية آلاف درهم وكسر، فأشفق الناس عليه لتعلق ذمته بهذا المبلغ وكونه لم يخلف ما يُقْضَى منه دينُه ولا ربع دينه، وكان في المدينة رجل يقال له: الشيخ أبو بكر بن قرنيع من تجار اليمن من ذوي المعروف. فقال: أنا أتكفل بقضاء دينه، ولم تكن بينه وبينه خلطة توجب شيئاً من ذلك، فصالح عنه جميع الغرماء وأرضاهم.

وأخبرنا شمس الدين العلامة الخوارزمي ـ وكان عندنا مجاوراً ـ: أنه رأى النبي ﷺ في النوم وقد جمع غرماء عبد الله وهو يتعطفهم ويأمرهم بالإسقاط عنه والصبر عليه، وابنُ الزبير حاضر بين يديه والجماعة يجيبون النبي ﷺ إلى ما سألهم وهو عليه الصلاة والسّلام مسرور بذلك منهم، فصحت الرؤيا وظهرت عنايته ﷺ بعبد الله بن الزبير رحمه الله.

وكان برباط الأصبهاني[1] جماعة أولهم وأولاهم بالذكر، الحبر الكبير والسيد الشهير ذو العلوم المتعددة والمقامات الربانية، والكرامات الإلهية عز الدين يوسف بن الحسن الزرندي[2] المحدِّث، سكن رباط الأصبهاني فعمره وردَّه إلى أهله على شرط واقِفه بعد أن كان منزلاً للنساء والفتيان، وكان شيخ الربط كلها يتفقدها ويعمرها، سكن في حجرة الرباط فما كان يعرف الرباط إلا به.

أخبرتني جدتي: أنها كانت ساكنة فيه مع بناتها وجماعة أهلها، وكان الرباط قد اسودّ وتغير بالدخان والوقيد فيه حتى قام به الشيخ رحمه الله فعمره، وأخرج منه النساء وغيرهم، وفيه ولد أولاده، فلم يزل فيه حتى كثر عياله وانتشر أتباعه فانتقل عنه، وكان الشيخ عز الدين ـ رحمه الله ـ قد لزم قراءة «البخاري» في الروضة المشرفة فيختمه في كل جمعة.

وأخبرني: أنه ختمه في ثلاثة أيام، لأنه صار على قلبه وطرف لسانه يؤديه بفصاحة ومعرفة لا يمل سامعه قراءته، ومن غاب أعاد له ما فاته.

وكان ـ رحمه الله ـ حسن الأخلاق جميل المعاشرة غير مهتمٍّ بأمور الدنيا، مقبلاً على شأنه وعبادته، ومناقبه رحمه الله كثيرة لا يسع ذكرها هذه العجالة، توفي رحمه الله بطريق العراق ذاهباً في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وأحيا ذكرَهُ أولادُهُ النجباء الفقهاء الأئمة الأعلام: شمس الدين محمد[3]، وشهاب الدين أحمد[4]، ونور الدين علي[5]، وأكبرهم أخونا في الله شمس الدين محمد رحمه الله، كنت معه كالأخوين المتراضعين، رَؤَّسَ في المدينة، وصنف الكتب العديدة[6] ودرس في

---

(١) ويعرف أيضاً: برباط العجم.

(٢) يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود بن الحسن الأنصاري الزرندي: ولد سنة ٦٤٠هـ، كان عدلاً فاضلاً، وعابداً ممعناً، توفي سنة ٧١٢هـ. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٥٢ (١٢٥١).

(٣) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٩٥ (٨١٦).

(٤) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٥٩ (٣٣٩).

(٥) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٣/ ١٤٢ (٣٢٤)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٥ (٣١٠٣).

(٦) منها ما ذكره ابن حجر العسقلاني في «الدرر الكامنة»: «درر السمطين في مناقب السبطين»، «بغية المرتاح» جمع فيها أربعين حديث بأسانيدها وشرحها.

الحديث والفقه، ثم ارتحل إلى شيراز بنية العودة إلى المدينة، فولي بها القضاء وكان فيها عَلَماً يشار إليه.

توفي رحمه الله سنة سبع أو ثمان وأربعين وسبعمائة، وخلف ذرية صالحة وأولاداً نجباء مشتغلين بالعلم أكبرهم سراج الدين عبد اللطيف، اشتغل وحصّل في شبيبته رَأَس بين أقرانه، ذا عفة وديانة وصيانة، ورُزق أولاداً مباركين مشتغلين بالعلم.

وأما أخوه مجد الدين: فكان مشتغلاً بالعلم، ثم سافر إلى الهند فرؤُسَ فيها رئاسة عظيمة، وأقبل عليه سلطان الهند وأنعم عليه، واعتمد عليه في مهماته، وهو الآن عنده في محل رفيع وجاه وسيع وفقه الله لما يرضيه.

وأما شهاب الدين أحمد ولد الشيخ عز الدين، فكان ذا عقل ورئاسة ودين عظيم مع سياسة الإخوان والأحباب، ورُزق ولدين نجيبين أحدهما عبد الله والآخر محمد، فأما عبد الله[(١)] فحوى كلَّ العلوم المتداولة بين الناس، وحفظ اثني عشر كتاباً في فنون متعددة، سافر به والده إلى دمشق فرَأَس وبرع واشتهر، وولي الوظائف الجَليلة ثم ماتا جميعاً في الطاعون رحمهما الله، وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

وأما محمد[(٢)] فتصوَّف وسلك طريق القوم مع الاشتغال بالعلم ولا سيما علم الفرائض، وسافر العراق ومصر والشام وهو على طريقة حسنة وهمّة عليّة، نفع الله به.

وبقي من أولاد الشيخ عز الدين ثالثهم القاضي نور الدين عليّ، صانه الله، حاز من العلوم ما لم يحزه أخواه، فانفرد اليوم بعلم اللغة[(٣)] وعلم الحديث والرجال، وولي الحكم والحسبة بتوقيع شريف من غير سعي ولا طلب، بل ساقها الله إليه، لما علم من حاجة الخلق إليه، فقام بها أحسن قيام، ونرجو له من الله الزيادة والتمام، فإنه سيفٌ لأهل السنة دامغ للبدعة

---

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٤٧ (٢١١٩)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٧ (١٩٦٤).

(٢) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٧٢ (٩٨٣)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٤٢ (٣٦٤٧).

(٣) له مقامة بديعة سماها: «المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين»، طبعت بتحقيق د. محمد العيد الخطراوي.

والمضلة، وقرئ مرسوماه بالوظيفتين في يوم واحد في دكَّة المؤذنين بعد صلاة الجمعة، وذلك أول سنة سبع وستين وسبعمائة. وله التصانيف الحسنة والدروس المفيدة، متع الله المسلمين ببقائه.

ثم سكن الحجرة المتقدم ذكرها بعد الشيخ عز الدين العالم الورع شهاب الدين القرمي رحمه الله، يا له من رجل! ما كان أكثرَ خيره، وما أحسن عبادته وعفته وصيانته، وأغزر علمه وحلمه، لم أرِ أحداً من أضرابه أكثر منه اتباعاً للسُنّة ولا محافظة عليها، ولا أكرم منه ولا أطيب من نفسه، حسن المحاضرة والمداعبة والنوادر، كان في القِرم وخوارزم واعظاً مجيداً مربياً، وكان بارعاً في علومه مع جودة وسكون وحشمة، توفي رحمه الله في طريق مكة عند قُدَيدٍ قافلاً من الحج إلى المدينة المشرفة في سنة أربع وأربعين وسبعمائة.

وكان من شيوخ الوقت والأئمة الكبار في العلم والعمل ومعرفة الحديث والرجال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الأمين الأقشهري الأخلاطي[(١)].

ارتحل إلى المغرب في حال شبوبته، وأدرك رجالاً من أعيان المغاربة والأندلسيين وعلمائهم، فأخذ عنهم واشتغل عليهم، وطالت إقامته فيهم حتى كان الذي يجتمع به لا يشك أنه مغربي الأصل، وكان قد يسَّر الله عليه تدوين الحديث والعلم، فلا تسأله عن شيء من علم الحديث ورجاله إلا وجدت عنده منه طرفاً جيداً، وحفظاً حسناً، صنَّف تصانيف كثيرة، واختصر مُطوَّلات عديدة، وتردد إلى مكةَ والمدينة، ثم أقام بالمدينة المشرفة في آخر مدَّته، وتزوج بها زوجة يمنية فولدت له بنتين، سماهما طابة، وطيبة، وسرّ بهما في آخر عمره، ثم إنهما توفيتا في حياته فحزن لفقدهما حتى كاد يفنى لفنائهم، توفي رحمه الله في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

وكان لنا شيخ عظيم القدر كاشف الأسرار الحقيقية يقال له: الشيخ سعادة[(٢)]، كانت إقامته بمكة والمدينة يتردد بينهما، وكان قد اشتهر في زمانه

---

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٣/٣٠٩ (٨٣١)، «التحفة اللطيفة» ٢/٤٠٩ (٣٦٠٠).

(٢) هو: الشيخ سعادة المغربي. ترجمته في: «العقد الثمين» ٤/٥٣٠ (١٢٦٢)، «التحفة اللطيفة» ١/٣٨٣ (١٤٤٣)، وكلاهما نقلاً عن ابن فرحون.

بين إخوانه أنه من أرباب الخطوة، وممن تطوى له الأرض، كان يتأهب لصلاة الجمعة بمكة فَيُرى في المدينة يصليها، ثم يرجع فربما أدرك الصلاة وربما يوافق دخوله المسجد الحرام خروج الناس من الصلاة.

فيقال له: يا سيدي فاتتك الجمعة. فيقول: نصليها إن شاء الله، يريد الجمعة المستقبلة.

وخرج معه خادمه مرة فقال له لما أن قربا من المدينة: يا سيدي، قد يسألني بعض الفقراء عن مدة سفرنا فما يكون جوابي؟

فقال له الشيخ: اكتم ما رأيت ولا تقل إلا حقاً، فلما دخلوا المدينة المشرفة سلَّم عليهم بعض الفقراء، وقالوا للخادم: متى خرجتم من مكة؟

فقال: يوم الجمعة.

وتخلص منهم بذلك، فكتم الحال، وصدق في المقال. وله حكايات غريبة في خروجه من بلده من المغرب ووصوله إلى الحرمين الشريفين من هذا النوع شاهده مَنْ لا يُتَّهم.

وحكى عنه ذلك من له في المجاهدة أوفى قدم، وحاله وحكاياته بمكة عند أهلها مشهورة.

كان إذا قدم المدينة احتفل الجماعة به وتبركوا بدعائه وبكلامه، وأكثر إقامته بمكة في رباط الموفق، توفي رحمه الله بمكة سنة ثلاثين وسبعمائة.

وكان من الأولياء الكبار القدماء الذين ينفقون من الغيب الشيخ محمد الهوري[1]، أكثر إقامته بمكة ثم انتقل إلى المدينة فأقام بها، فصادف غلاءً عظيماً، وعُدِمَ التمر حتى وصل صاعه إلى الخمسين ولا يوجد، وذلك في سنة خمس وتسعين وستمائة، وكان الشيخ رحمه الله يسكن في الحصن العتيق في بيت فيه شباك إلى الحرم، وكان يتصدق بالتمر البرني على الناس لا يعلم أحد من أين يأتيه، ولا له من يشتريه، بل لو أراد ذلك لما وجد لقلته وعدمه، وكان يقول لكل من وقف عليه من الكبار والصغار: كم في بيتك من العيال؟ فيذكر له عدددهم قلُّوا أو كثروا، فلا يكاد يزيدهم على تمرة

(١) ذكره في: «العقد الثمين» ٢/ ٤١٣ (٥٠١)، نقلاً عن ابن فرحون

تمرة، حتى يكاد يعمُّ أهل البلاد كلهم فقيرهم وغنيهم كبيرهم وصغيرهم، ثم يصبح على ذلك كل يوم من أول النهار إلى آخره.

جئتُه مرة فأعطاني عشر تمرات، فلما خرجت من عنده استقللتها فأعطيتها فقيراً سقاء.

وكنت يومئذٍ صغير السن جداً، ثم إني ندمت على إعطائي له، فأنا إلى اليوم أذكرها لما وجَدتُ حنئذٍ من فقدها، وكانت تلك السنة شديدة وأظنها السنة التي حج فيها الأمير سلار، فإن التمر بلغ في الحاج خمسين، ولم يوجد من كثرة الحواجّ والأمراء، وكانت الترك والأمراء ليسوا مثل اليوم في الهدية، بل يحملون التمر بالمئين.

وأذكر في تلك السنة أن أعيان المجاورين كانوا يطلبون الحثالة من شدة الشهوة في التمر، وما كان أحلاها إذا وجدت، واتفق أن جاء والدي من عند الشيخ يعقوب الشريف المتقدم ذكره في محفظته بمدّ تمرٍ، فسررت به وإخوتي، حتى لو كانت دراهم ما فرحنا بها كذلك.

هذا كان الحال في تلك السنة، وأما حال الناس في غيرها فكانوا في حال دون هذا، السعيدُ هو الذي يتغذّى بَلِيلَةٍ، والبَليلة: حُثَالة وحَشف مدقوقان يجعلانُ في قدح ويجعل عليه الماء ساعة، فإذا ابتلَّ قُدِمَ إلى العيال أكلوه كأنه عندهم حلوى، ويكون ذلك غداؤهم حتى يأتي العشاء بما تيسر من جشيشةٍ أو حريرةٍ، والناس اليوم ملوك أو كالملوك ولا يشكرون الله تعالى، بل غلب عليهم بطرُ النعمة حتى اشتغل بعضهم بعضاً من شدة الحسد والبغضاء.

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب فالناس بين مخاتل ومحاربِ
يفشون بينهم المودة والصفا وقلوبُهم محشوةٌ بعقاربِ

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وأخبرني جماعة عن هذا الشيخ الهروي: أنه لما قدم بمكة المشرفة أنفق على أهلها وضعفائها أموالاً مستكثرة، فرفع خبره إلى الشريف ـ

أظنه حُميضة[١] ـ فجال ذلك في صدره، ثم دخل على الشيخ في بيته على غفلة فرحّب الشيخ به وأجلسه في وسط بيته، وقدم إليه كسيرات وشيئاً من المخلّلات.

فقال: ما أريد إلا أن تريني ما في بيتك أو تعطيني ما يكفيني وحاشيتي.

فقال له الشيخ: البيت بين يديك، والله ما أدخر عنك شيئاً.

فقام الشريف وأعوانه إلى البيت ففتشوه وحفروه، فلم يجدوا في بيته شيئاً غير أواني المخلل وشيئاً لا يعبأ به فتركوه وانصرفوا، ولم يزل مستمراً على ذلك الإنفاق إلى أن توفي رحمه الله.

قال لي الشيخ جمال الدين المطري رحمه الله: كان شيوخ مكة ينكرون عليه شيئاً من أحواله، وذلك أنه كان كثير الطواف ليلاً ونهاراً، فيطوف معه بالليل نساء مخدرات وغير مخدرات، فيأخذ في مؤانستهن والكلام معهن.

ويقول: أنتِ فلانة كيف أنت؟ وكيف حالك؟ يعرفهنَّ واحدة واحدة، ربما تكون المرأة لا يعرف أحد اسمها فيسميها، فينكر عليه الشيوخ فلا يلتفت إلى كلامهم، ويرى أن ذلك طريقته وطريقة شيوخه للتستر بهذه الأحوال، وكان من أهل الريف. توفي بمكة رحمه الله ونفعنا بعباده الصالحين.

ثم كان من المشايخ الكبار أولي التحقيق، والسادة من أهل الطريق أبو بكر الشيرازي[٢]. كان من أصحاب السيّد الكبير شيخ زمانه سيدي أبي العباس المرسي تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي، كان الشيخ أبو بكر بالمدينة كالشيخ نجم الدين الأصبهاني بمكة، كنتَ إذا رأيته رأيت رجلاً من أهل الجنة، شهرة مناقبه الجمة تغني عن تعدادها، سكن رباط الشيرازي حتى توفي رحمه الله.

---

(١) هو: الشريف حُميضة بن أبي نُمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي الحسني المكي، الملقب عزالدين، ولي إمرة مكة إحدى عشرة سنة ونصف سنة، جرت له أحداث مع أخيه أبي الغيث وجرت بينهما حروب، قتل سنة عشرين وسبعمائة. ترجمته في: «العقد الثمين» ٤/ ٢٣٢ (١٠٨٣)، «سمط النجوم» ٤/ ٢٢٧.

(٢) ترجمته في: «المغانم المطابة» الورقة ٢٢٨/أ.

كان على قدم أي قدم من الصيام والقيام وإطعام الطعام، وكثرة الإحسان للإخوان، وتفقد المجاورين والمساكين، جاورناه فوق عشرين سنة، فما رأيتُ مثله لا يعلم ما الناس فيه، ولا يسئل عما لا يعنيه رحمه الله ونفعنا به.

كان بيته قَلَّ أن يخَلو من الطعام الفاخر، لكل وارد وصادر، قد اشتهر بورعه وصلاحه وخيره في أقطار الأرض، حتى إنه ليقال: مَنْ في المدينة يُزار بعد النبي ﷺ وأصحابه؟ فيقال: الشيخ أبو بكر الشيرازي وكفى به، وقد تقدم شيء من ذكره قبل هذا، توفي رحمه الله في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة.

وكان من أصحابه وألزامه الشيخ أحمد الششتري[١]، لزمه وقام بخدمته وولده شمس الدين من بعده، فاكتسبا من آدابه، وتخلقا بأخلاقه، كان الشيخ أحمد ـ رحمه الله ـ من الرجال الملازمين للسكينة والوقار، المحبين في الفقراء والمساكين، وأهل الصّلاح والدين، ملازمَ الصف الأول، ويدخل المسجد في الوقت الأول، وكان مع أهله في بيته على خلق أهل الخير، لا يبيت علىٰ معلوم، ولا كان في غير حق الله يقوم.

ثم لحقه في خُلُقه وخُلُق الشيخ أبي بكر ولده شمس الدين محمد[٢] بن أحمد الششتري على خير وعفّة وصلاح، باشتغال بالعلم وسماع الحديث، رحمه الله سافر وارتحل، وله حسنة عظيمة رباطٌ بالقرب من المسجد الشريف، هو عشُّ الصالحين، نفع الله به، وله في المدينة آثار حسنة، ومعالم مستحسنة، توفي الشيخ أحمد رحمه الله سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

وكان من أهل الرباط المذكور السيد أحمد الخراساني[٣]، كان آية من

---

(١) هو: أحمد بن عثمان بن عبد الغني الششتري. ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦٣ (٣٥٩)، نقلاً عن ابن فرحون

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٢٠ (٣٦١٥)، «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٣٨ (٨٩٦).

(٣) هو: أحمد الشريف الخراساني المعجمي المقرئ، كذا ذكره السخاوي في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦٣ (٣٥٧).

آيات الله في باب العزلة والصبر على القلة، له كل يوم ختمة في الروضة المشرفة، كان لا يعرف من الناس إلا نفسه، جلس إليه أرغون نائب السلطان الملك الناصر فسأله عن حاله، فلم يشفه في الجواب، وسأله عن قراءته.

فقال له: كل يوم جمعة.

فقال له: فكيف لا، وأنت ليس لك شاغل من أهل وعيال؟! طالت مدة حياته وهو على حاله لم يتبدل ولم يتغير.

وسكن معهم الرباط جماعة كثيرة من أهل الخير؛ منهم الشيخ محمد الكازروني، وعمر الكازروني، والفيروزآبادي وجماعة غيرهم.

وكان من السادة الكبار والأئمة الأخيار في الجد والاجتهاد الشيخ صفي الدين أبو بكر بن أحمد السلامي[1] رحمه الله، لو رأيته لرأيت رجلاً أيَّ رجلٍ!! كان ذا دنيا عظيمة فتخلى عنها وتركها ورغب في الآخرة وأقبل عليها، وانقطع في المدينة على عبادة عظيمة لا يفتر ليلاً ولا نهاراً، كان يقف أواخر المسجد إلى أسطوان من الصبح إلى الظهر، ومن الظهر إلى العصر، لا يقطع ذلك إلا بالصلوات الفرائض في الروضة الشريفة، وذلك مع شيخوخته وكبر سنّه، فإذا جنَّ عليه اللّيل حنَّ إليه كما تحنُّ الوالدة إلى ولدها.

وكان له إيثار عظيم بالدنيا، وكان قرابته من السلاّميين يبعثون إليه بالأموال الكثيرة ليفرقها على مصارفها ويزيدُ عليها من ماله، لم يكن للدنيا في عينه بهجة، وله في الإيثار بها غرائب كان يحكيها عنه عز الدين دينار شيخ الخدام، فإنه كان يصحبه ويعتقده ومثله يُعتقد.

أعتق خداماً ومماليك، وبني له رباطان؛ أحدهما مجاور للميضئة موقوف على الرجال والنساء، والآخر موقوف على الرجال، واشترى الدار التي كان يسكنها وهي في ظهر رباطه الموقوف على الرجال، وكان الرباط حوشاً لهذه الدار، فأفرده للرجال وسد الباب الذي بينهما وهو بيِّن إلى الآن، وأوقف الدار المذكورة على الفقراء المجردين إن لم يكن سلاميون،

(١) ترجمته في: «المغانم المطابة» الورقة ٢٢٨/ب. والسلامي - بتشديد اللام - نسبة إلى السلاّمية: قرية قرب الموصل.

فإن كان منهم في المدينة سكنها وهو أولى من غيره، فإن سافر أو مات رجعت إلى الفقراء المجردين حُكْمُها حكم الرباط ومجاور لها.

ووقفت على ورقة الوقفية ورأيت فيها من الشروط ما ذكرت، وإنما ذكرت ذلك وإن لم يكن مما نحن فيه، لأن بعض الناس وضع يده على هذه الدار وسكن فيها نحو عشرين سنة منفرداً بشبهة أنه عتيق لعتقاء الواقف، فظهر كتاب الوقف في هذه السنة وهي سنة سبع وستين وسبعمائة، فانتزعت الدار من يده وأعيدت إلى شرط الواقف.

توفي صفي الدين ـ رحمه الله ـ بالمدينة النبوية ودفن بالبقيع إلى جنب قبة سيدنا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ في حدود خمس عشرة وسبعمائة.

وكان من أخص الناس بالشيخ صفي الدين السّلامي، الشيخ محمد الكازروني[١]، انتفع بصحبته وانتفع الشيخ به وبمساعدته في إنشاء الربط وعمارتها، وكان الشيخ محمد يحكي عن الشيخ غرائب من المقامات الجليلة والخصال الحميدة، واقتبس الشيخ محمد من بركته ومن دعائه حتى وجد أثر ذلك في أولاده، فرزق ذرية صالحين منهم الولد الصالح صفي الدين أحمد[٢] قد نال الدرجة العليا في الصّلاح والدين، والعلم المتين، وكان لي كالولد البار تغمده الله برحمته، فما كان أحسن خصاله الحميدة وأخلاقه السعيدة، وآرائه الرّشيدة، جمعنا الله وإياه في فسيح الجنان وجوار الرحمن ببركة هذا النبي عليه الصّلاة والسّلام.

وسيأتي شيء من محاسنه ومحاسن أخيه عز الدين حماه الله تعالى بعد هذا.

صحبتُ الشيخ محمداً حضراً وسفراً ماشياً وراكباً، فما رأيت من الأصحاب مثله في سعة خُلُقه وطول صبره، وحسن عشرته وطيب نفسه في إنفاقه، وحسن ظنه في رفاقه ولو كانوا قطاع طريق.

---

(١) هو: الشمس محمد بن زوزبة بن محمود بن إبراهيم بن أحمد المدني الشافعي الكازروني.
ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٥ (٣٧٥٧).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٣٦ (٢٧٢).

رأيته يسلم المال الكثير للجمالين من أهل الصفراء ويأمنهم عليه، ويغيب عنه وهو تحت أيديهم فلا يتهمهم، ومع ذلك تجده محفوظاً في نفسه وماله، وكان لا يردُّ من أراد منه قرضاً أو معاملة، يعامل الناس على حسب أخلاقهم، لم أره ضيق على غريم ولا حبسه، وله من الأموال العظيمة على صعاليك المدينة، فإذا طلبوا منه زيادة زادهم وصبر عليهم.

قلت له في ذلك! فقال: من كان لي عنده شيء بفائدة حرصت على رأس المال، وما بقي إن جاء في الدنيا وإلا فهو لي في الآخرة، ولذلك حفظه الله في ذرّيته فجاء منهم الفضلاء العلماء.

منهم الفقيه عز الدين عبد السلام[1] وتفقه ودرس في الحرم الشريف في موضع صفي الدين أخيه، وانتفع به أهل زمانه. توفي والدهم ـ رحمه الله ـ سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

وكان من السادة المحفوظين والأخيار المعدودين الأخَوَان الصالحان المتحابان في الله؛ الشيخ أبو الحسن الخراز والشيخ أبو عبد الله محمد الخراز، أقاما في بيت واحد فوق الثلاثين سَنةً مجتمعين على صناعة واحدة يخرزون في بيتهم هم وأتباعهم لأنفسهم النّعل وغيرها، ويرفعون ما فضل عن قوتهم فيتصدقون منه ويؤثرون، وما بقي رفعوه إلى أيام الحاج ويؤلفون من أتاهم وقصدهم من الأخيار حتى من أتاهم إنه لا يفارقهم.

كان الشيخ أبو الحسن له سابقة في مجاهدة الإفرنج بالأندلس، فكان لا يزال يعد الوقائع والحروب وما جرى لهم من النصر على أعدائهم، ويذكر من كانت له شجاعة وفروسية وفتك في النصارى، وكان حسن التصوير في كلامه يستلذ السامع بحديثه، فلذلك كان بيتهم لا يزال بالأخيار معموراً وأكثرهم الخدام الأخيار، وكان لهم أوراد وأذكار مقدرة في أوقات معلومة لا يزال والدي ونظراؤه يأتونهم بعد العشاء الأخرة للذكر وقراءة المسبعات حتى يمضي جزء من الليل، واتحد بسَبَبِهِمْ حال المجاورين والخدام وحصل بينهم إخاء وارتفق بعضهم ببعض في الدين والدنيا رحمهم الله، وقد تقدم ذلك.

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٧٣ (٢٦٠٧)، «العقد الثمين» ٥/ ٤٢٨ (١٨٠٩).

وكان من حالهم وخصالهم الحميدة أنهم يتفقدون المساجد المشهورة فيعمرونها ويساعدهم عليها الخدام بأنفسهم وخدمهم وأطعماتهم ويجعلونها نزاهات، وهي في الحقيقة عبادات.

كانوا إذا نزل الغيث وأصاب أُحُداً يخرجون إلى سيدنا السيد حمزة عم رسول الله ﷺ فيبيتون عنده في القبة في صلاة وعبادة وذكر، يجتمع معهم جُلُّ الخدام والمجاورين ورؤساء المؤذنين وفضلاء المدرسيْن، وعامة الناس أجمعين من فقير ومجاور أو مديني يكون لهم خادم، حتى إنه لم يبق في المدينة من أهلها إلا القليل فيخرج كل جماعة بما يقدرون عليه من الطعام الفاخر وغير الفاخر، ويأتون الخدام بأنواع من الحلوى والأطعمة الملونة فتكون ليلتهم في الذكر والعبادة تعدل ألف ليلة لما اشتملت عليه من خيرات الدنيا والآخرة.

وكان جماعة الفقراء وشيوخهم الشيخ علي وأخوه الشيخ محمد الخرازان، يحملون معهم القِرَب يظن الناس أنها ماء، وهي ملأى من طبيخ الأرز والبسلا يُعدونه للفقراء الذين يتبعونهم ويخرجون معهم، ثم يلحقهم مددهم ممن تأخر عنهم في صبيحة ليلتهم، فإذا أصبحوا وصلَّوا الصبح سرحوا إلى الجبل فطلعوا فيه جماعات جماعات، ولهم في الجبل مقامات يجلسون فيها فمنها موضع للطعام، ومنها موضع في وسط الجبل متسع تمد فيه الحلوى والأطعمة المحلاة، ومنها موضع بعده يمدون فيه أنواعاً من المحمضات والحريفات حتى إذا انتهوا إلى رأس الجبل، صلوا في تلك المساجد واجتمعوا لقراءة القرآن والدعاء والذكر، وكان لمحمد بن إبراهيم في تلك المواضع عمل عظيم وتذكير كثير فتراهم يبكون ويتواجدون وتظهر عليهم آثار الرحمة وذكر الله لهم فيمن عنده رحمهم الله.

ثم بعد ذلك ينزلون إلى عند المهراس، فيفرقون ما بقي معهم ويمدونه للفقراء للذين يتبعونهم حتى إن الطعام ليبقى ليس له آكل، ويرجعون إلى المدينة على خير رجعة بقلوب صافية وأخوّة متزايدة وشوق إلى مثل ذلك الاجتماع.

وكان معهم من الكبار مثل الشيخ عبد الواحد الجزولي المتقدم ذكره،

والشيخ محمد اليمني ووالدي ومثلهم كثير كالصُّحَيناتيين بأجمعهم، وكان أكثر الناس صحبة لهم الشيخ أحمد القرشي والد محمد الصحيناتي، وكان يعد من الصالحين الكبار المتقشفين الموسوسين عند الطهارة وعند الغسل والصلاة، كان يدخل العين قبل قيام المؤذن للتذكير، فلا يزال فيها حتى يمل منه الناس من كثرة الوسواس، نسأل الله العافية، وكان على قدم عظيم ربما لم يكن فيهم مثله، ملازم الجماعة ومجالس العلم والخير ويهادي الجماعة ويتتلمذ لهم، رحمه الله.

وكان للشيخ أبي الحسن الخراز أحباب أفراد من الناس الأكياس، منهم الشيخ عمر بن عياد الخرّاز الأنصاري[1] والشيخ عمر المدّاس وعبد الله الخراز وجماعة كثيرون، فأما الشيخ عمر فبلده الأندلس من أعمال الجزيرة الخضراء، أعادها الله على المسلمين، وله معَ الإفرنج وقائع ومواطن عجيبة، وكان والده عياد شيخ بلده، فلما ضعف أهل تلك الناحية وغلب عليها الإفرنج ـ خذلهم الله ـ خرجوا من تلك البلاد، وتوجه الشيخ عمر وأخوه إلى الحجاز، فمات أخوه في نواحي الشام، ووصل الشيخ عمر إلى المدينة، وأقام بها وصحب الشيخ أبا محمد البسكري وجماعته، وكان خصيصاً بالشيخ أبي الحسن الخراز وجماعته، وكان رحمه الله على قدم عظيم في الصَّلاح والخير ومحبة الصالحين وقضاء حوائجهم، وعدم الاكتراث بالدنيا في المأكل والملبس، وكان له عليَّ تربية وشفقة، وكان يحملني في صغري ويُفَكِّه أصحابه بي.

ولما حج والدي بوالدتي وكنت معهما صغيراً لم أفطم من الرضاع، كان هذا الشيخ عمر يقوم عن والدتي بتربيتي، حتى إنه كان يتنجس مراراً فلا يتقذر ولا يتسخّط، فله علي حق يستوجب به الدعاء مني، وكان له من الخدام أعوان صالحون قد تقدم ذكرهم في ذكر مختار المولد، ولما بنى داره ساعده فيه إخوان محبون وأصدقاء ملاطفون، فخفَّت عليه مؤنتها، رحمهم الله أجمعين.

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٥١ (٣٢٩٩)، «الدرر الكامنة» ٣/ ١٨٢ (٤٢٩)، نقلاً عن ابن فرحون. ووقع في «الدرر الكامنة»: «عمر بن عياض الجزار»، والصواب ما أثبت.

له عقب أولاد صلحاء، وذرّية فقهاء، انتفع بهم أهل زمانهم أكبرهم اليوم الشّيخ عبد الله، محب في خدمة الفقراء مسارع إلى قضاء حوائج الإخوان محبب إلى الناس، ثم الفقيه الفاضل العالم النبيه تاج الدين عبد الواحد[١]، اشتغل اشتغالاً كثيراً وتفنن في علوم عديدة، وأفاد دروساً وجلس في مجلس شيخه الشيخ عبد السلام[٢] بعد وفاته، فانتفع به الطلبة. توفي الشخ عمر رحمه الله في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة.

وكان من الشيوخ المعمرين في المدرسة الشيرازية الشيخ إبراهيم العريان[٣] رحمه الله، كان كاسمه عرياناً أبداً صيفاً وشتاء على قدم التجرد، في وسطه بلاس وعلى رأسه قبع صوف، وكان أصله من الروم، فأقام بالمدينة فوق خمسين سنة على طريقة حسنة مستقراً في المدرسة المذكورة، عاش على ذلك حتى بلغ حدًّا اشتهر فيه بين الناس وأهل البلاد، فصار مقصوداً مشهوراً له في المدينة آثار حسنة أكثرها في المدرسة ولولاه لسقطت طبقاتها. أقام فيها تلك الأساطين حتى حملت السقف والرواشين، وكانت المدرسة مختومة في أيامه لا يدخلها ولا يسكنها إلا الأخيار من الناس، اشترى نخلاً وأوقفه واجتهد في عمارته بنفسه وماله، صحبته من المدينة إلى مكة رحمه الله، وكان لا يُعاشر إلا بالملاطفة لقوة أخلاقه رحمه الله. توفي بالمدينة سنة ثلاثين وسبعمائة.

ثم خلف الشيخ إبراهيم في المدرسة الشيخ سليمان الونشريسي[٤] من أصحابنا الكبار، له مجاهدة وتوجه عظيم ومكاشفة في كل حين، ومتى شكى عليه من شدة أو خوف اشتغل خاطره بتفريجها، وأطلعه الله في المنام

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢١٩ (٢٧٦٢)، وذكر السخاوي في ترجمته أن ابن حجر العسقلاني ترجمه في «أنباء الغمر» لكنه ليس هو، بل ذاك عبد الواحد بن عمر الحكار، فليتنبه.

(٢) هو: عبد السلام بن سعيد بن محمد بن عبد الغالب المغربي المالكي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٧١ (٢٦٠٤).

(٣) هو: إبراهيم بن عبد الرومي. ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٩٣ (١٤٩)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٣١/ب.

(٤) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٢٤ (١٦٥٤)، نقلاً عن ابن فرحون

على عاقبتها فلا يمضي يوم حتى يخبر بما يكون من أمرها، وذلك شيء كان منه دائماً للإخوان والمعتقدين، كان مكباً على الصيام والقيام، ولسانه لا يزال رطباً بذكر الله وتلاوة القرآن، إذا قرأ القرآن لا يقرأ كقراءةِ الناس اليوم، بل يرفع صوته ويرتله ترتيلاً عجيباً مع تدبر وتأمل حتى يغيب عن حواسه، وكانت قراءته في المصحف نظراً ليقوى بذلك على التدبر ولأنها أفضل من القراءة غيباً، وله شيء من التصنيف ذكر فيه أحوال القوم وطريقتهم، وفصله بمواعظ وتقريبات ينتفع بها من وقف عليها.

ذكر لي ـ رحمه الله ـ أنه لما قدم المدينة سكن في رباط السبيل وهو على قلة وفاقة، وكان يطوي الأيام لا يجد شيئاً ولا يفطن له لتعففه وتكففه، حتى سقطت قوته وخشي على نفسه.

قال: وكان جواري رجل صالح يذهب كل يوم إلى البر، فيأتي بحزمة حطب يبيعها ويتقوت بها وهو شيخ كبير، وكنت أشفق عليه لما أرى ضعفه، وكنت اقرأ على الشيخ عبد الحميد[1] القرآن تجويداً مع جماعة من الناس لا يعلم أحد بحالي ولا ما أقاسي من الجوع والقلة.

قال: فجلست يوماً في القبلة في المسجد فجاءني إنسان من ورائي ورمى في حجري رغيفاً في الغلس، وذهب ولم أعلمه ولا عرفت مكانه.

قال: فأخذت الرغيف فأكلته فوقع في فمي شيء أخرجته فوجدته ديناراً مغربياً، فأخذته وذهبت به في الوقت إلى السوق وأخذت به طعاماً وتقوَّتُ به أياماً، ثم عدت إلى ما كنت فيه من الفاقة، فعاد إليَّ ذلك الرجل ورمى في حجري رغيفاً وذهب في الغَلس، فلم أعرفه، فوجدته مثل الرغيف الأول، فاشتريت طعاماً وبقيت متعجباً من ذلك الرجل، فعند فراغ ما عندي جاء الثالثة فرمى آخر على غفلة مني فتعجبت من هذا الرجل الذي يعرف الوقت الذي أصل فيه إلى الضرورة ولو أنه كان معي في البيت ما كان يصل إلى حقيقة ما وصل إليه هذا الرجل! ما هذا إلا ملك أو ولي من الأولياء.

---

(١) هو: عبد الحميد بن علي الموغاني، وستأتي ترجمته.

قلت: والله لأرقُبَنَّه حتى أعلم مكانه.

قال: فلما فرغ ما بيدي ارتقبت الوقت الذي يجيء فيه، فإذا هو قد جاء على العادة فحققت النظر حتى عرفت فإذا هو جاري الحطّاب.

فقلت: هذا هو الحق، لأنه يعلم من حالي ما لا يعلمه غيره، ولأن الباب بالباب.

قال: فمالت نفسي إليه، والقلب يميل إلى من أحسن إليه، فوانسته فانعطف علي وإن كان كره ظهور إحسانه إلي، ثم إني تخيلت منه أنه ينفق من الغيب، أو معه علم من الصنعة، لأنّ من ظفر بإحدى الخصلتين زهد في الدنيا وطلبها بتعب النفس ليكون ذلك من الشكر لله تعالى على أن ملكه ما لم يملكه غيره.

قال: فأنست به حتى سألته عن سبب تكلفه نقل الحطب مع السعة، وقلت له: هذا غير نظر منك لك!

فقال: أردت أشياء يا مسكين منها التستر عن الخلق، ومنها تذليل النفس وتهذيبها، فإن النفس إذا ملكت طاشت وطغت.

ولم أزل به حتى أخبرني أنه علم ورثه وانفرد به، فسألته أن يعلمنيه لأذكره به وأستعين به على حالي.

فقال لي: إن صحبتني إلى بلادي علمتك وإلا هنا فلا، فأقام إلى الموسم ثم سافر ولم يقطع الله بي.

قلت: وما مات الشيخ حتى تزوج زوجة صالحة كان يقول: إنه في بركتها، واتسع حاله واشتهر ذكره، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وزوجته ميمونة على قدم في العبادة والخير.

توفي الشيخ ـ رحمه الله ـ عقيب الحج، وكان قد حج ماشياً في طريق المشيان، فلما كمل حجه اجتمع بي في مِنَى، وقال لي: قد عجزت عن الرجوع ماشياً فاكتريت له، وكان في صحبتنا إلى المدينة فلم يقم بعد الموسم إلا قليلاً ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى أول سنة ست وخمسين وسبعمائة.

وكان لي من الإخوان في الله العلماء الربانيين أصحاب الأحوال

والمكاشفات الشيخ الصالح العالم العامل شهاب الدين أحمد[١] بن عبد العزيز بن القاسم بن عبد الرحمن النويري العَقِيلِي نسبة إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، كان له تردد كثير إلى الحجاز يتكرر كل سنة مع الرجبية إلى مكة المشرفة في البحر تارة وفي البر أخرى، فلما أقمت بمكة عام ثمانية عشر وسبعمائة صادفت مجيئه إلى مكة وأنا بها، فصحبته فوجدته من رجال الآخرة ومن بيت العلم والعمل والمكاشفة.

فقال لي: أريد المدينة في هذه السنة وقد عزمت على طريق المشيان فاعمل على الصحبة.

قلت له: يا سيدي أنا لي عن أهلي مدة طويلة أكسبتني قوة شوق ووجد، وإن سافرت معك في طريق المشيان تعبت معك، لأني أجدُّ في المشي وأنت لا تقدر على ذلك، فعذرَني وتأخر.

فلما جاء الموسم جاءني ودخل منزلي فاستبشرت ببركة دخوله وحصل لي به أنس كثير، ووعدني بخير كثير ثم تكرر إلى مكة بعد ذلك سنين إلى عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة.

ثم بلغني أنه لما جاء مع الرجبية تزوج بنت القاضي نجم الدين الطبري قاضي مكة المشرفة وإمام أئمتها وكبيرها أبي اليمن محمد بن محمد الطبري الشافعي، وكان غرضهم من تزويجه أن تحل للشيخ خليل[٢] المالكي إمام مقام المالكي لأنه كان حنث فيها، ولم يطلع على ذلك ولا ذكروا ذلك له لما كانوا عليه من الورع والخير والدين، فلما حصل معهم قاموا بحقه وخدموه وسعوا في رضاه من غير أن يشعروه أن لهم غرضاً غير بركته وخدمته.

فلما رأى ذلك منهم اغتبط بهم وأنس بينهم ووجد منهم الشفقة العظيمة، فأقام بمكة وترك الرجوع إلى بلده، فرزق منها أئمة مكة اليوم

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١١٢ (٢٠١)، «العقد الثمين» ٣/ ٧٨ (٥٨٣)، «الدرر الكامنة» ١/ ١٧٣ (٤٤٧).

(٢) هو: خليل بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر القسطلاني المكي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٢١ (١١٤٣)، «العقد الثمين» ٤/ ٣٢٤ (١١٤١).

وقضاتها وخطباءها وعلماءها الفقيه الإمام العالم القاضي كمال الدين أبو الفضل(١) الشافعي، والقاضي نور الدين(٢) المالكي فتقدما على أقرانهما ورَأسا، فولي القاضي كمال الدين قضاء مكة وخطابة الحرم ونظره، وولي القاضي نور الدين مقام الفقيه خليل بعد ابن أخيه عمر رحمه الله في إمامة المقام وفي إمامة الحج.

وكان من حال والدهما أنه صحب زوجته إلى أن توفي والدها القاضي نجم الدين سنة ثلاثين وسبعمائة عن اثنتين وسبعين سنة رحمه الله، وهو معهم على ما يحب من العزة والإكرام وترك المساءلة عما يجب عليه من النفقة والإدام والكسوة وما جرت به العادة من الأزواج، فبعد موت والدها لم ير منهم ذلك الوجه الذي كان يعهده، فجاء مع زوجته المدينة زائراً وأراد أن يقيم بها ليذللها ويهذّبها بالغربة والبعد عن أهلها.

فقال له أهلها: لا يمكن ذلك وشددوا في رجوعها معهم.

فقال على طريق التغليظ عليهم والتشديد وإقامة العذر: أنا قد حلفت بالطلاق الثلاث أن لا يكون لها معكم سفر في هذا الوقت. ولم تكن له نية وإنما أراد التهويل عليهم، فعزموا عليه والتزموا بالرجوع إلى ما كان عليه.

فسافر معهم وقرّروا عليه يمينه وأخذوه بظاهر لفظه فطلقوها منه، فاشتد عليه الأمر وعظم عليه ما وقع منه وفيه ولم يجد من يساعده على ما نواه إذْ أَسَرَته البينة.

فلما رأى أنها بلية لا يمكن زوالها رجع إلى المدينة المشرفة وأقام بها وكان يصلي إلى جنبي الصّلوات، فأرى منه من التوجع والالتهاب والشوق ما لم أره من أحد فكنت أعذره من الباطن، وأهون عليه الأمر في الظاهر، فيقول: وَوَيْلٌ للشجيّ من الخَليّ.

ثم إنه لم يجد ما يغيظهم به إلا أخْذَ أولاده منهم، فأخذهم منهم

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن عبد العزيز النويري العقيلي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤١٨ (٣٦١٠)، «العقد الثمين» ١/ ٣٠٠ (٢٩).

(٢) هو: علي بن أحمد بن عبد العزيز النويري العقيلي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٧٣ (٣٠١٦)، «العقد الثمين» ٦/ ١٣٢ (٢٠٣٠).

بالشرع فأقاما معه وهما صغيران فتعب وتعبا، فيسر الله تعالى من أخذهم منه خلسة، وحملهم إلى مكة عند أمهم وخالهم القاضي شهاب الدين فربوهما أحسن تربية فجاء منهما ما تقدم ذكره. ولما علم الفقيه خليل ـ رحمه الله ـ أن في فراقها له شبهة تورّع عن زواجها وتركها، فلم يزل كذلك حتى توفي شهاب الدين النويري بالمدينة، فحينئذٍ تزوجها وماتت عنده رحم الله الجميع. وكان الشيخ شهاب الدين من بيت الكرامات والمكاشفات لهم حكايات ومقامات مشيدات.

جلست إليه يوماً بعد أن صليت ركعتين وكان قد أظلّنا مجيء الحاج، فكانت صلاتي كلها وسوسة بما يجيء به الحاج وما يكون من وظائفي وما يجيء منها وغير ذلك.

فقال لي عقيبَ فراغي: يا فقيه، ما أقلَّ أدبَ العبد مع الله تعالى، خلقه وأوجده وتكفل برزقه وجعل الرزق يجري مع الحاجة لا يتعداها، ولم يُرد منه إلا الإخلاص والتوكل والعبادة وقد جرب العبدُ وعدَه تعالى فوجده صحيحاً لا يختل معه، ورزقه يأتيه كل حين وكل يوم وكل ساعة حسب ما يقدره الله تعالى، ثم إنه سبحانه أمر بصلاة وزكاة وصيام ووقت له من ذلك وقتاً وأمره بأن لا يتعداه بتقديم ولا تأخير ففعل العبد ذلك، وقدر له رزقاً ووقته عنده بوقت معلوم، ثم إن العبد يسيء إلى ربه بأن يتهمه فيما وعده به.

فيقول: يا ترى يجيئني شيء من هذه السنة أم لا؟ وإن جاء فهل يجيءُ كاملاً أو ينقطع بعضه؟ ومن هذه الأشياء التي هي إلى الشرك أقرب، أليس هذا من قلة الأدب؟

فعلمتُ أنه إنما أرادني بهذا الكلام فاستغفرت الله العظيم، ورجعت فنلت بذلك خيراً كثيراً، وله كرامات لا يسع ذكرها ها هنا.

ولما كان في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة قدمت قافلة مكة ومعهم القاضي شهاب الدين ومطلقته وولده، فطلع بها شهاب الدين إلى الأمير ودي[1] بن

(١) هو: الشريف ودي بن جماز بن شيحة الحسيني، توفي في الحبس سنة ٧٢٩هـ. «الدرر الكامنة» ٤/٤٠٦ (١١٢٩).

جماز صاحب المدينة وكلمه في شأن زوجته وأولاده وأخذ خطه بأن يُعقَدَ لهم مجلس شرعي، وكان ذلك في أول نهار الأربعاء خامس شهر محرم من السنة المذكورة، فمرض في أواخر ذلك النهار ولم يزل مريضاً إلى أن توفي بعد العصر يوم الأحد سادس عشر المحرم، ودفن بعد المغرب بالبقيع قريباً من مالك بن أنس مما يلي الطريق، رحمه الله.

ولما ذكر الفقيه خليل[1] استطراداً فلا بد من ذكره استبداداً فقد كان من أئمة الدين والمتسمين باليقين، كانت مكة المشرفة بلده ودار إقامته، ولكن قل أن تجيء قافلة من مكة للزيارة وما هو معها شوقاً لهذا النبي الكريم ﷺ، وكان قد أقام وجاور وقرأ على والدي العربية وكان ملازماً لدرسه وانتفع وحصّل.

وكان يقول لي: ما عند الشيخ من كتب العربية؟.

فأقول له: ما علمت عنده شيئاً سوى شيء من «شرح الجمل» لابن عصفور.

فيقول لي: ما هذا من جوانح ابن عصفور، هذا الذكر العظيم والإلقاء والتفهم لا يكون إلا عن إلهام أو كثرة اشتغال، وكثرة كتب يلتقط محاسنها ويرتب قوانينها.

فأقول له: ما عنده غير ما ذكرت لك.

كان حالُ الفقيه خليل معلوماً مشهوراً من البر والصدقة ومواساة الفقراء وتحمل الدَّيْن العظيم لأجلهم، ينتهي دينه في بعض السنين إلى قريب من مائة ألف درهم، يقرضهم ثم يقضي الله تعالى على أيسر ما يكون، كان له من الدين فوق ما يصفهُ الواصفون، ومن العلم من مثل ذلك، ومن الورع والتمسك بالسُنّة فوق ذلك، قل عن البحر فالبحر يوقف دونه، كان لي منه النصيب الوافر في دُعائه ومكاتبته ونشر ذكري عند أهل الخير جزاه الله خيراً، وكان عنده من الوسوسة في طهارته ما اشتهر مثلاً في الأقطار، توفي الفقيه خليل رحمه الله في سنة ستين وسبعمائة، وفيها توفي القاضي شهاب

(١) تقدمت ترجمته.

الدين قاضي مكة وكانا سِرَاجَيْ مكة هذا في فنه وهذا في فنه، وقلَّ أن يخلفهما مثلاهما فيما بقي من الدهر، رحمهما الله تعالى.

ومن إخواننا المالكيين المكثرين من الإقامة في المدينة المحبين في هذا المقام الشريف، أخونا في الله محمد بن سالم الفقيه الشافعي[(١)] كان أخاً صادقاً ذا ورع ودين وعلم واجتهاد في الصّلاة والصيام والقيام، وكسب من الدنيا كثيراً لما كان يعاني من التسبب والحركة والسفر، فلما انقطع من ذلك قلت عليه الدنيا فصبر وصابر على العبادة والتخلي عن أصحابه ومن كان يعرفه أيام يسره وشبابه، له أحوال المشايخ الكبار مع طهارة اللسان والعرض في كل إنسان ولو أوذي حمل وصبر، رأيته كثيراً ما يجعل في فِيه حصاة تمنعه من الكلام خوفاً من لسانه وصوناً لفضول كلامه.

صحبته فوق ثلاثين سنة فلم أر كأُنسه وكرمه ومحبته، تراه يترك في أيام الموسم حوائجه وحوائج أهله، ويتطلب أصحابه فينزلهم في منزله ويضيفهم ويبذل لهم الخدمة والطعام والماء البارد الحلو، ويخلّي لهم داره التي هو فيها، هذا دأبه مع كل معارفه؛ حتّى إنه ليذهب إليهم وهم في منازلهم فيرحّلهم إلى بيته ويعزم عليهمْ في ذلك، وكان بشوشاً ضحوكاً مزاحاً في حق، ومتى جرى منه جفوة أو غِيبة ذهب إلى ذلك الشخص وتحلل منه وسأله المغفرة له، وخلف أولاداً كان أنجبهم أوسطهم عبد الرحمن[(٢)] كان فيه من الحياء والأدب وقضاء الحوائج ما كان في والده وزيادة، توفي رحمه الله سنة ست وستين وسبعمائة، وأما والده فتوفي سنة أربع وستين فيما يغلب على ظني، رحمهما الله تعالى.

وكان ممن رفع مكانته وشهر بين الناس منزلته محل الوالد الشيخ الفقيه الجليل العلامة السيد الشريف أبو الخير[(٣)] بن سيدنا وشيخنا أبي عبد الله الفاسي الحسني نزيل مكة المشرفة، نشأ في عبادة الله تعالى وتبتل

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن سالم بن إبراهيم بن علي الحضرمي الشافعي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٧ (٣٧٦٨)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «العقد الثمين ٢/ ١٩ (١٧٨).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٤٩ (٢٥٢٣).

(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥١٦ (٣٩٢٧)، «العقد الثمين» ٢/ ١١٢ (٢٦٦).

للاشتغال بالمذهب المالكي حتى رآه الناس أهلاً للتدريس والإلقاء والإفادة، فدرس واشتغل وصحب رجالاً من مشايخ الوقت، وارتحل إلى الإسكندرية وأدرك بها من أهل العلم والصلاح والأئمة جماعة كثيرين فصحبهم، وأخذ عنهم وكسب من أخلاقهم ومحاسن صفاتهم ما أظهر عليه نوراً وبهاء ورئاسة لم تكن لأحد من نظرائه رحمه الله، توفي عام سبعة وأربعين وسبعمائة بالمدينة المشرفة، ودفن حيال قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وكان من أصحابنا الكبار الذين لهم ورع ودين وصلابة ويقين، الشيخ العارف والمتعبد الورع الزاهد أبو عبد الله محمد بن عرفة التونسي كان من أصحاب الوالد رحمهما الله، لم أر أحداً مثله في اجتهاده وتحريه في العبادة ومواظبته على الحج والزيارة، كان من أعيان أهل تونس لم يزل يتكرر إلى المدينة من بلده لتكون وفاته بأحد الحرمين فكان كذلك، توفي - رحمه الله - بالمدينة في حدود سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وله ولد علامة ورع زاهد وعليه اليوم في تونس مدار الفُتيا والاشتغال في علوم الكتاب والسُنّة.

وكان من كبار الأولياء المتحليين بالعلم والعمل والزهد والورع قاضي طَنْجَة الشيخ أبو الغمر[1] الطنجي، انفرد في مدة إقامته بالمدينة المنورة النبوية عن أقرانه في العلم والعمل والانقطاع والتوجه العظيم والصوم والمجاهدة حتى لم يبق منه إلا الخيال، فإن مسكنه برباط دكالة بالحجرة التي هي مسكن الأولياء والأخيار، فكان يقرئ العلم فيها، قرأتُ عليه الفرائض والحساب، وكان يؤثرني ويدعو لي، ومالت نفسه إلى الزواج وأحب أن يكون على السُنّة في التزوج، فخطب له أصحابه امرأة حسنة وسيمة، فلما دخل عليها قبل اجتماعه بها نظر إليها فوجدها موشومة الشفة فأقام ليلته، ثم خرج ولم يمسها ودفع لها صداقها كاملاً وطلقها، ثمَّ لم يتزوج حتى توفي.

أقام بالمدينة مدة طويلة ثم انتقل إلى مكة فأقام بها مثلها على عبادة وكثرة طواف حتى إنه كاد لا يوجد إلا فيه.

---

(١) هو: السائب بن عبد الله بن السائب الأنصاري الخزرجي الطنجي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/٣٧٨ (١٤١٩)، «العقد الثمين» ٤/٥٠٣ (١٢٤٤).

قال لي الشيخ العالم الحافظ المحدث أبو عبد الله الوادي آشي: إنه سأله، فقال له: يا سيدي هل وقفت في مدة إقامتك بمكة على مغربية أو كرامة أعدُّها عنك أو أرويها لمن بعدك؟

فقال لي: وما تحت ذلك من طائل؟ فألححتُ عليه.

فقال لي: كنتُ ليلة أطوف بالبيت وحدي فيما ظهر لي، فرأيت عن يميني وعن شمالي رجالاً يطوفون معي رؤوسهم مشرفة على البيت.

واجتمعت به عام ثمانية عشر وسبعمائة بمكة، فوجدته قد ضعف واشتد عليه السعال، وانتفعت بمجالسته وأفادني بوعظه وبحكمته وبعلم استبدَّ[1] به.

ثم قال لي: ما أظنه إلا حضر أجلي وأحب أن تكون وفاتي بالمدينة في جوار سيدي رسول الله ﷺ.

فقلت له: اعمل على ذلك.

فأوصاني أن اشتري له من الدقيق وغيره ما يكفيه لسنته، وكان ذلك في شهر رمضان وكان يبيت في بيت عند بيت الفقيه خليل المالكي، فطاف يوماً ثم خرج من المطاف ودخل دهليز الفقيه خليل عند باب إبراهيم، ثم دعى بفراش واستقبل القبلة ثم قضى أجلاً، ومضى عجلاً رحمه الله، وذلك في السنة المذكورة، فلم أر جنازة كثر تابعها رجالاً ونساء وكباراً وصغاراً مثل جنازته رحمه الله.

رأيت النعش محمولاً على رؤوس الأصابع، ورأيت الكفن قد اسودَّ من أيدي الناس يلمسونه للبركة، وصلى عليه القاضي نجم الدين[2] رحمهما الله تعالى.

ورأيت اليوم على طريقته وأزيد في الورع والزهد صاحبنا الشيخ

---

(١) في (أ): «أستمد به».

(٢) هو: نجم الدين محمد بن محمد بن أحمد الطبري المكي، ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة، ولي قضاء مكة مدة تزيد على خمسةٍ وثلاثين عاماً، كان شيخاً فاضلاً، فقيهاً مشهوراً بمعرفة الفقه، توفي سنة ثلاثين وسبعمائة. ترجمته في: «العقد الثمين» ٢/ ٢٧١ (٣٨٥).

موسى[1] بن علي المراكشي نفع الله به وبدعائه، وإنما نبهت عليه لما خالطني من محبته واعتقاده، ولما احتوى عليه من العلم والعمل والورع الكثير الذي هو من صفات الأولياء الكبار والمحققين من الأبدال، أعانه الله على ما هو ملتزمه من الخير الكثير والدين المتين، حتى إنه لا يتناول من الحلال إلا القوت الشظف اليسير، لا يأكل في أرض الحجاز لحماً ولا تمراً ولا سمناً، وإنما يعمل له شيء يسير من الخبز بلا أدم في أكثر الأوقات، وإن كان إدام في بعض الأوقات فَلِفْتٌ مسلوق، وربما اكتفى المدة الطويلة بالحريرة من دقيق الشعير ليس لها إدام، مع الصيام الدائم والقيام المستمر في صحته ومرضه إلا أن يمرض مرضاً طويلا فحينئذٍ يفطر. وأما في العلم بمذهب مالك وغيره والأصول والفرائض وغير ذلك من العلوم فهو رُحلة، صحبته حضراً وسفراً فرأيته رجلاً علم ما يَطلُب فهان عليه ما يجد، وذلك مع نضارة الشباب وأنوار من مواهب الملك الوهاب نفع الله به، وأكثر إقامته بالمدينة وهو الآن بمكة شرفها الله تعالى[2].

وكان من شيوخنا وأصحاب والدنا الشيخ أبو عبد الله[3] القبتوري من العلماء المتقنين من أهل الأندلس له علو سند في «الموطأ» و«الشفاء»، وانقطع في المدينة مع أصحاب له، كان ملازماً للمسجد لا يرى إلا وحده ذاكراً أو مصلياً. كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي يحكي عنه مغربات في أفعاله وأقواله، اشترى هو وأخو الشيخ أبي العلا وآخر معهما قطعة أرض في طريق البقيع جعلوها تربة لهم فدفنوا فيها، وهي في طرف البقيع على طريق المار إلى مسجد الإجابة بين نخل يحفُّها من جوانبها قد دثر رسمها، وما أخوفني أن تملك وتغرس لأن العارف بها اليوم قليل، ولو كانت على السبيل، ولكن ببركة نياتهم يحفظون إن شاء الله تعالى

(١) هو: موسى بن علي بن عبد الصمد بن محمد المراكشي. ترجمته في: «العقد الثمين» ٧/ ٢٩٩ (٢٥٤٣).

(٢) ذكر الفاسي أنه توفي بمكة سنة تسع وثمانين وسبعمائة. المصدر السابق.

(٣) هو: خلف بن عبد العزيز بن خلف الغافقي القبتوري. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٢٠ (١١٣٩)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٨٥ (١٦٥٢).

ممن ينشر قبورهم أو يشوش عليهم فإنهم كانوا من عباد الله الصالحين رحمهم الله.

وكان من قدماء الشيوخ المباركين المشهورين الشيخ محمد البلاسي كان شيخاً صالحاً، وكان يجلس في وسط الحرم مع جماعة من الفقراء المجلويين، وكان ممن قطع البلاد شرقاً وغرباً لا تفنى حكاياته وغرائبه.

ومما أخبر به من الغرائب أنه دخل قرية في اليمن مع جماعة من الفقراء فوقفوا على امرأة تبيع اللبن، فكأنّ واحداً من الفقراء نظر اللبن فوجده مشوباً بالماء فصبه على رأسها.

قال الشيخ محمد: فلمناه على ذلك ثم رجعنا إلى منزلنا وقد أغلظنَاها فلم ندر بصاحبنا إلا وقد رجع في صورة حمار وله ذنب كذنب الحمار، فعلمنا أنها سحرته، فجئنا إليها واسترضيناها فلم ترض، فدخلنا على مشايخ بلدها فغلبوا عليها ففكّت سحرها عن صورته، وبقي معه ذنب الحمار أبت أن تزيله، فسافرنا من تلك القرية وصاحبنا على حاله، ولم يزل كذلك حتى قدمنا المدينة ونحن في شدّة عظيمة من ذلك الأمر، وقد قلت الحيلة فيه. فسأل صاحبي قَومَة المسجد الشريف أن يبيت في المسجد فأذنوا له، فبات بين تضرع وبكاء ودعاء وتوسل بالنبي ﷺ حتى غلب عليه النوم، فبات حول الضريح المكرم فأصبح وقد أزال الله عنه ببركة النبي ﷺ.

ولله در القائل:

فَلُذْ بِبَرٍّ رحيم بالبريّة إنْ ... عاقتك شدَّةُ دهرٍ عق واعتصِمْ
وافٍ كريمٍ رحيم قد وفا ووقا ... وعمَّ نفعاً فكم ضرٌّ شفا وكمْ
وكم حَبَا وعلى المستضعفين حُباً ... وكم صفا وضفا جود الجبر همْ
حانٍ على كل جانٍ وافٍ إن قصدوا ... واقٍ شفى من شفا جهل ومنْ عَدمْ
كهفِ الأراملِ والأيتامِ كافِلهم ... وافي الندا لموافي ذلك الحرَمْ

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة غرّاء اشتملت على فنون البديع أولها:

بطيبةَ انزل ويمِّمْ سيّدَ الأممِ ... وانشرْ له المدحَ وانثرْ أطيبَ الكَلِمِ

وهي من نظم صاحبنا وأخينا في الله الشيخ الإمام العلامة وحيد دهره

وفريد عصره لسان الأدب، حجة العرب، مجمع أشتات الفضائل شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الهواري[1] نسباً الأندلسي مولداً ومنشأ، قرأها علينا بحضرته في الروضة النبوية في سنة ست وستين وسبعمائة رفيقه وأخوه في الله تعالى الشيخ الإمام العالم العامل رحلة زمانه ونادرة إخوانه أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الغرناطي[2]، وكان قد سألاني أن يسمعا عليّ «صحيح البخاري» فأجبتهما إلى ذلك اغتناماً لمجالستهما واقتباساً من فوائدهما، فكان الشيخ أبو جعفر هو القارئ، فإذا فرغ من قراءة أنشد شيئاً من ديوان الشيخ أبي عبد الله رفيقه، وديوانه ديوان عظيم في مجلدين، وقد يسر الله عليه النظم مع البلاغة والفصاحة ودقة المعنى.

ذكر أنه قال: أقدر أن أنظم في اليوم الواحد بلا كلفة ثلاثمائة بيت، وكان ينظم الأبيات العديدة تقترح عليه وهو على السماط فيملي الكاتب بلا تكلف، وغالب تصانيفه نظماً، ولأبي جعفر نظم حسن بديع نفع الله بهما، وكانا قد سبقت لهما بالمدينة مجاورة في سنة ست وخمسين وسبعمائة فانتفع الطلبة بهما في هاتين المجاورتين، وقرئ عليهما كتب عديدة في العربية والأصلين واللغة والعروض والبديع وغير ذلك، وسمع عليهما الحديث.

وفي المجاورة الأولى شرح الشيخ أبو عبد الله «ألفية ابن مالك» شرحه المفيد الذي عم النفع به واشتهر اشتهاراً عظيماً، وله وللشيخ أبي جعفر تصانيف كثيرة وأوضاع مفيدة، لو رمنا ذكرها ووصف محاسنها لخرجنا عن المقصود، وقرئ علي بحضرتهما تأليفي المسمى «بالعدة في إعراب العمدة» قراءة بحث وتفهم وحصل بذلك خير كثير، فإني وضعته على مثال لم أسبق إليه، وحررته على منوال لم يُنسج عليه فصوَّبا والحمد لله على ما وضعته، وشكرا لي على ما صنعت، جزاهما الله خيراً.

وكان القارئ للكتاب المذكور الأخ الصادق والولد الشفيق العالم العامل المفنن تاج الدين عبد الواحد بن عمر بن عياد الأنصاري[3] المتقدم ذكر والده.

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٢٢ (٣٦١٧)؛ «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٣٩ (٩٠٠).
(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٥٩ (٣٤١)، «الدرر الكامنة» ١/ ٣٤٠ (٨٤٨).
(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢١٩ (٢٧٦٢).

وأخوّة هذين الشخصين العالمين العاملين واتحادهما واتفاقهما في الأخلاق والأقوال والأفعال لم أر مثلهما ولم أسمع بذلك، لا يملك أحدهما دون لآخر شيئاً ولا يتخصص عن صاحبه بشيء من أمور الدنيا قلَّ أو جلَّ، ولا يلبس أحدهما غير ملبس الآخر لكل واحد منهما مثل ما لصاحبه، إن فصلا ثياباً فمن نوع واحد ولون واحد، وكذلك في العمائم والفوط والدلوق وثياب الجمالة وثياب المهنة، وكذلك لباس الشتاء ولباس الصيف، وكذلك الفرش والأوطئة والأنطاع والوسائد والنعال وغير ذلك، وإذا لبسا لوناً لبساه جميعاً بياضاً كان أو غيره لا يمكن أن يغير أحدهما لباسه دون الآخر، يأكلان ويرقدان جميعاً في بيت واحد، وأعرض كلاهما عن الزواج والتسري رغبة في دوام الصحة وخوفاً من الأسباب الموجبة للفرقة.

وكان معهما مملوك لهما يخدمهما، وكان الشيخ أبو عبد الله ضريراً بسبب جدري عرض له في صغره بعد أن دخل المكتب في أواخر السنة الخامسة من عمره، فكان يعتمد على الشيخ أبي جعفر في خروجهما إلى المسجد ورجوعهما، وفي بلادهما كانا كذلك لا يفترقان أصلاً ولا يعتمد على الغلام إلا في النادر، وإذا حصل للشيخ أبي جعفر عذر عظيم، وإذا دخل الإنسان بيتهما لم يفرق بين مجلسيهما إلا بالكتب لقربها من الشيخ أبي جعفر لتساوي الفرشين وجميع ما يتعلق بهما من الأغطية والأوطئة.

ومن أعجب الأشياء أنهما يمرضان جميعاً ويصحان جميعاً، وهذا شاهدته منهما في المجاورة الثانية. مرض الشيخ أبو جعفر في يوم، ومرض الشيخ أبو عبد الله في اليوم الثاني، وتمادى بهما المرض مدة طويلة وكان مرضهما واحداً، وولدا في سنة واحدة أبو عبد الله في المرية، وأبو جعفر بغرناطة، وذلك سنة ثمان وسبعماية ثم اجتمعا في شبوبيّتهما في مجالس العلم، فألف أحدهما الآخر ثم اجتمعا فلم يفترقا، لا فرّق الله بينهما بسوء.

ثم ارتحلا من بلاد الأندلس ودخلا غالب بلاد المغرب ورويا الحديث، وأخذا العلم عن الشيوخ، ولهما تأليف في ذكر من اجتمعا به من الأكابر في رحلتهما، ثم قدما إلى المشرق بعلم كثير وكانا في سنة إحدى وأربعين مقيمين بدمشق، واجتمع بهما أخي عليٌّ ـ رحمه الله ـ في تلك السنة، وكانوا جميعاً في

دار الحديث ثم ارتحلا إلى بلاد حلب فأوطناها إلى الآن، ورتب لهما السلطان في «البيره» من أعمال حلب ما يكفيهما، واشتهر فضلهما وذكرهما، وخدمهما رؤساء البلاد وسَراة الناس، ومدحهما الأدباء وكتَّاب الإنشاء وتخرج بهما الطلبة، وهما اليوم في تلك البلاد ملاذاً للغرباء وملجأ للمظلومين وشفاعتهما مقبولة وكلمتهما عالية، أبقاهما الله تعالى بقاءاً جميلاً.

واعلم أنه كان للشيخ محمد البلاسي عبد اسمه سعيد أعتقه وجعله من جملة الفراشين بالحرم، وأعقب سعيد ولداً مباركاً نجيباً فراشاً في الحرم اشتهر باسم الشيخ محمد البلاسي[١] سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة.

وكان برباط مراغة الموقوف على الفقراء الصوفية المجردين جماعة صالحون أكثرهم مغاربة ممن جاهد واجتهد جمعوا بين العلم والعمل.

منهم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد العصيّاتي كانت إحدى رجليه قصيرة مخلوعة مذبذبة لا يتحمل على الأخرى إلا بعصاتين، وكانت له أحوال عجيبة ومكاشفات صحيحة، ألفه الخدام واعتقدوه وقاموا بحقه لما علموا مكانته، وكان أعظمهم له موالاة وخدمة الطواشي شمس الدين شفيع[٢] رحمهما الله تعالى.

قال لي يوماً: رأيت الشيخ عز الدين الزرندي المتقدم ذكره في النوم، وكان قد توفي في طريق العراق بعد الإقامة الطويلة في الحرمين، فقال لي: سلّم على أولادي وقل لهم: قد حملت إليكم ودفنت بالبقيع عند قبة سيدي العباس، فإذا أرادوا زيارتي فليقفوا هنالك ويُسلّموا علي ويدعوا لي.

قلت: ما ذكره الشيخ صالح من رؤياه حق، فقد شاهدت شخصاً كان مسرفاً على نفسه شديداً في تشيّعه، وكان يوماً يهدم حائطاً، فذكر عنه أنه صدر منه كلام في حق الصّحابة فسقط عليه الحائط فهلك فدفن بالبقيع.

فلما كان اليوم الثاني من موته أصبح القبر خالياً منه ليس في اللحد

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٨٠ (٣٧٨٣).

(٢) هو: شفيع الطواشي، شمس الدين الكرموني. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٤١ (١٧٤٠)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٤١/ ب.

أحد، ولا حول القبر نبش ولا أثر، وقد زال التراب الذي دُفن به القبر حتى انكشف اللبن وليس للتراب أثر، ولا عنه خبر وقد خلا من عند رأسه ثلاث لبنات لا غير، ووقفت على القبر مع القاضي جمال الدين المطري[1] لما شاع في المدينة خبره، وقيل: أصبح قبر ابن هيلان خالياً منه ليس فيه، فأمر القاضي جمال الدين المطري أبا قميص حفار القبور بأن ينزل ويجس اللحد، فهاب والناس حول القبر يأتون من المدينة أرسالاً أرسالاً، ثم دخل أبو قميص بعد العزيمة عليه فنظر وفتش فلم يجد شيئاً، فأدخل عموداً كان بيده وجس به القبر ذاهباً وآيباً فلم يجد شيئاً ألبتّة، ونزل غيره وفعل كفعله فلم يجد الآخر شيئاً!! وكان ذلك آية من آيات الله تعالى، فلما كثر خروج الناس واشتهر أمره أمر يوسف الرومي الوزير يومئذٍ بدفنه فدفن القبر، نسأل الله حسن الخاتمة.

وقال لي الشيخ محمد بن إبراهيم المؤذن[2]: عن رجل صالح كان يدفن موتى المدينة وقد طال في تلك الحرفة عمره. قال: قلت له: هل رأيت يا سيدي من أعجوبة في هذا البقيع؟

فقال: لم أر إلا الخير، إلا أنني حملت ميتاً في أيام الحج ولم أجد من يساعدني عليه غير رجل واحد حملته معه ووضعناه في اللحد، ثم ذهب صاحبي وتركني فذهبتُ أحمل اللبن لأجل لحده، فلما جئت به لم أجد الميت في لحده فذهبت وتركت القبر على حاله!!

وكان في الرباط المذكور من الرجال المنقطعين عن هذه الدار الشيخ قاسم التكروري[3] كان ملازماً للسياحة في الجبال والبرية لا يأتي إلا من جمعة إلى جمعة يقتات بالبقول، ويتتبع مجتمعات الماء التي يربى فيها الحوت كنفج والسدّ وغيرهما، فيصيد منه شيئاً ويقتات منه، وشيئاً يهديه

(١) هو: محمد بن أحمد بن خلف المطري، صاحب كتاب «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة».

(٢) هو: محمد بن إبراهيم بن محمد بن المرتضى الكناني المصري.

(٣) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٧٩ (٣٤٦٢)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٤١ (٦١٢)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٥٣/أ.

لأصحابه وأحبابه، بلغ من قوة عزيمته في دينه أن جعل في عنقه غلا ثقيلاً يتذكر به حال الآخرة، فنهي عن ذلك فأبى حتى قيل له: خالفتَ السُنّة وارتكبت البدعة فترك ذلك بعد شدة، وكان يسرد الصوم أبداً حتى العيدين، فقيل له في ذلك!

فقال: إن أكلت شيئاً مرضت، فقيل له: كل ولو مثل حبة من الطعام، وإلا فتأثم بالإجماع، فكأنه فعل والله أعلم. توفي رحمه الله في «خليص» متوجهاً إلى مكة سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

وأيضاً كان في الرباط المذكور الشيخ عثمان[1] المجكسي[*]، والشيخ موسى الغزاوي من الشيوخ الصالحين، كثيرة مناقبهم عديدة محاسنهم، كان الشيخ عثمان قد اشتغل بطرف من العلم والحديث، ولازم مجالس الشيوخ العالمين العاملين فانتفع بهم وتجرد عن الدنيا، وكان على طريقة السلف الصالح، وكان ذا عبادة وجد واجتهاد لم يبق منه إلا العظم والجلد، يحسبه الذي يراه أنه لكما قام من المرض من صفرة لونه وشدة ضعفه، وكان لا يزال مكشوف الرأس ذا شعرة مسدولة إلى شحمة أذنه لا يحلق رأسه إلا في الحج إتباعاً للسلف، وكانت له أحوال ومكاشفات صحيحة ظاهرة.

وكان ابن أخي محمد بن محمد قد صحبه ولازمه فكان يحكي عنه أحوالاً جليلة، وأصله من الأندلس جاء منها ماشياً إلى مكة المشرفة، فأقام بها سنين وكان يسكن في رباط ربيع، وذكر أنه كان يوماً ينزف الماء من بئر الرباط فثقلت به الدلو فوقع في البئر وهي من أطول آبار مكة ـ وطول آبارها لا يخفى على من حج البيت الحرام ـ فنزلوا إليه فوجدوه سالماً صحيحاً، ثم ارتحل إلى المدينة وسكن الرباط المذكور وكان بينه وبين الشيخ موسى شأن وفِتِنٌ سببها أن الشيخ عثمان اشتغل بالعلم وصحب شيوخ المغرب أهل

---

(١) هو: عثمان المجكسي الأندلسي الغماري. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/٢٥٣ (٢٩٤٥)، «الدرر الكامنة» ٢/٤٥٣ (٢٦٢٠).

(*) في (أ)، (ب): «المحكي»، وفي «الدرر الكامنة»: «المجلس»، وما أثبت كما في: «التحفة اللطيفة» والنسخة (ج).

التربية والدراية، فكان ينكر على الشيخ موسى بعض أحواله التي تخرج عن ميزان الشرع فيقع بينهما عن ذلك التهاجر والشر.

حكى لي الشيخ عثمان أن الأسد عرض له في طريقه ليلة وكان وحده، قال: فجلست بين يديه فصار ساعة يصيح ويضرب بذنبه وساعة يعلو علي بيديه، ثم يرجع عني ويكف يديه كأن من غلها، ولم يزل هذا دأبه معي إلا أن تبلج الصبح فانصرف عني وتركني.

وكانت له كرامات وعجائب ومُغربات يكاد يحكي بعضها إذا طابت نفسه وانشرح لجليسه قلبه، وقد جرى لي معه ما أكد عندي ولايته، وذلك أن المدينة نهب غالب بيوتها عند خروج آل منصور منها، وكان الأمير يومئذٍ طُفيلَ[(١)] بن منصور رحمه الله، وكان ذلك في شهر ذي الحجة في سنة خمسين وسبعمائة، وكنت قد تأخرت عن الحج في تلك السنة، ولم يكن التأخير عن الحج من عادتي، بل لي الآن والحمد لله نحو خمسٍ وخمسين حجة، ولكن كانت الخيرة فيما قدر الله تعالى، وأسفرت العاقبة عن لطف عظيم شملني وشمل أقاربي وجيراني بل وأهلُ زقاقي.

وكان مما جرى أن نهب جميع ما للحُجاج من ودائع في المدينة، وحصل لأهلها من العرب إزعاج وإرعاب عظيم، وتبعهم الصعاليك من أهل المدينة والخيابرة وغيرهم، فلم يتركوا أثاثاً ولا متاعاً، وكان أمراً عظيماً لم يجر مثله في زمن من الأزمان التي أدركناها وسمعنا بها، ومع ذلك فلم يصل أحد إلينا ولا إلى جيراننا ولا لأقاربنا على بعد منازلهم عنا، وذلك ببركة النبي ﷺ وبركة حضوري لأني اجتمعتُ بالأمير طفيل وكلمته في ذلك.

فقال: قد أجرنا حارتك وجميع أقاربك فطب نفساً فما لأحد إلى ذلك وصول، جزاه الله خيراً.

وكنت أخرج إلى المسجد في ذلك اليوم للصلاة فأجد المسجد مغلوقاً فأدور إلى باب النساء فأستفتح فيفتح لي فأجد المسجد خالياً لا

---

(١) هو: الطفيل بن منصور بن جماز بن شيحة الحسيني. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٦٨ (١٨٦٣)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٢٣ (٢٠٣٤)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٤١/ب.

أرى فيه إلا خادماً مجرداً أو فقيراً ترابيًّا، وأمرّ في طريقي فأبصرهم ينهبون الناس ويكسرون الأبواب ويحملون من البيوت الأحمال فلا أقدر على كلام، وجلُّ ما أخذوا أمتعة الحاج وبيوت الخدام، وكانت قضية قبيحة وفعلة شنيعة لم يظهر لها بركة على من تعاطى منها شيئاً عرباً أو حضراً، ولم تبق في أيديهم شهراً حتى محقت، ولم يسلم من الدخول فيها أحد من الأمراء الذين كانوا في المدينة إلا الأمير الكبير الورع الزاهد زين الدين عطية[1] بن منصور أميرنا اليوم، متع الله المسلمين ببقاء دولته وأصلح له الرعية وأصلح لهم منه الطوية.

وخرجت مرة من البيت للصلاة فإذا أنا بأمير كبير قد دخل حارتنا ومعه ما ينيف على عشرين رجلاً من الأعوان، ومعه نجَّار بيده قدّوم فما شككت أنه ظن أني في الصلاة فأراد أن يخلفني على بيتي أو بيت من يعز علي، وكان قبل ذلك في نفسه شيء مني فوقفت في وجهه.

وقلت: خيرٌ، ما هذه الهمة وإلى أين هذه العزمة؟

فقال: لي غرَض.

فقلت له: اجلس ها هنا لأتحدث معك؛ والشرُّ يبدو لي من وجهه، فجلس.

فقلت: ما تريد؟

فقال: عزمي الزواج وما وجدت مفرشة أدفعها في الجهاز، ونحن عازمين على الخروج من المدينة.

فقلت له: عندي ما تريد وهذه ساعة مباركة إذ بدا لك عندي حاجة، ولم يكن ذلك من خلقي ولكن شرح الله صدري لذلك، فدخلت البيت وأخرجت له فراش بيت وكانت مفرشة حسنة جداً فأخذها.

وقال: إن قلت لك التي أطلب أحسن من هذه فما صدقتُ، ثم انصرفت إلى المسجد فرأيت الشيخ عثمان جالساً في الروضة ليس في الحرم

(١) هو: عطية بن منصور بن جماز بن شيحة الحسيني. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٦٤ (٢٩٨٨)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٥٠/ب.

غيره، فلما أقبلتُ عليه بدرني بالكلام، وقال لي: الله ألهمك، الله ألهمك.

قال الله تعالى لموسى عليه السلام: (**يا موسى، خفْ مَنْ لا يخافني**)، فعلمت أنه كاشفني وصوب رأيي، رحمة الله عليه، توفي سنة أربع وخمسين وسبعمائة.

وأما الشيخ موسى فكانت له إقامة طويلة بغزّة قرية من قرى الشام فنسب إليها وإنما هو مغربي، وكان له بغزة سمعة وصولة وفتك بالخاطر.

قال لي: كنت إذا نهيت ظالماً عن ظلمه فلم يمتثل أمري قتلته بخاطري، واشتهر ذلك عنه.

وقال لي: فلما قدمت المدينة المشرفة أردت تلك السيرة فمنعت منها، وكنت رأيت في منامي قبل دخولي المدينة أن رجلاً غلب علي وأخذ مني سكيني فدفنها في كومة ترابٍ في ناحية مسجد مصلى العيد فعلمت أني قد سلبت حالي في التصرف في أهل المدينة، وذلك لبركة النبي ﷺ إذ لا يقدر أحد بحضرته يتصرف بغير أمره.

وقال لي: عزمت عليك مراراً إذ أغظتني في قضية كذا وكذا. وعدد عليَّ قضايا أنكرتها. قال: فمَنعتُ منك حتى رأيتك في النوم متعلقاً بأعلى شباك الحجرة وأنا واقف تحتك ومعي سكين أشير بها إليك وأنت تهزأ بي، فعلمت أني لم أسلط عليك، فكففت وتركت الخاطر عني. وكان يصحب الناس بالمرائي التي له، ويَرَى أنها كالوحي لا تكاد تخطيء فتراه يهجرك ثم يصلك من غير موجب لذلك بينكما.

أخبرني أخي علي ـ رحمه الله ـ أنه قال لي يوماً: أنت تدعي أنك تكشف البواطن فزوجتي هذا شهرها فأخبرني بحملها.

فقال له: كأنك تمتحنني وما أنت بمصدق بحالي! سآتيك إن شاء الله بالخبر.

قال: فغاب عني أياماً ثم جاءني إلى البيت.

فقال لي: زوجتك تلد ولداً يشبه هذه وأشار إلى إحدى بنتي، فكان كذلك فناديته عند الولادة وجئته بالمولود فحنكه، ودعا له وسماه حسناً،

وحسن ظني فيه وتأدبت معه بعد ذلك. توفي رحمه الله في سنة خمس وخمسين وسبعمائة.

وكان برباط الفاضل الشيخ الصّالح الولي الرباني عبد الرّحمن[1] الجبرتي، كان من أرباب القلوب والكرامات وكان طول إقامته بالمدينة إذا صلى الصبح خرج إلى البريّة فما يأتي منها إلى غروب الشمس ولا يعلم أحد مكانه، ينتقل كل يوم في موضع وقل أن يرى في المدينة نهاراً هروباً من الاختلاط بالناس، ويخبر أحياناً بالمغيبات.

وكان يقول لبعض من يأنس به ويحبه: يا فلان ألا تعطيني كذا. فيفرح الرجل بقوله فإذا أعطاه شيئاً امتنع، وقال: إلى وقت آخر إن شاء الله، ويؤانس أصحابه بأنواع مثل ذلك، وكان يقول رحمه الله: إنه من ذرية النجاشي صاحب المواصلة مع النبي ﷺ، وإنه من بيت الملك ببلاده فخرج عن ذلك وصحب الصالحين.

وكانت له مع الشيخ العالم العامل قطب زمانه أبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعي[2]، نفع الله، به سياحات في ظهر المدينة، وكان الشيخ عبد الرّحمن يحكي لبعض أصحابه أنه اتفق له مع الشيخ عبد الله كرامات في أيام السياحة، وكان الشيخ عبد الله قبل توطنه مكة وزواجه بها أقام بالمدينة على قدم التجرد والوحدة والسياحات، ثم تزوج بالمدينة في سنة تسع وثلاثين وسبعمائة الحرة الصالحة العابدة ستيت أم محمد بن علي اليماني، ثم فارقها وارتحل إلى مكة ولم يزل يتردد إلى المدينة ويجاور بها.

ومناقب الشيخ عبد الله وكراماته وأحواله وعلومه ومصنفاته ومجاهداته لا يحصرها حد ولا تنتهي بالعد، كما قيل:

يفنى الكلام ولا يُحيط بوصفه   حَسْبُ المبالغ أن يكون مقصرا

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٦٠ (٢٥٨٥)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٨/ أ.

(٢) هو صاحب كتاب «روض الرياحين» وغيرها من المصنفات. توفي سنة ٧٦٨هـ. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٤٧، «طبقات الشافعية» للأسنوي ٢/ ٥٩٧.

نفع الله به، وكثير من الصالحين يشير إلى أنه قطب مكة وهو خليق بذلك.

واتفق في سنة ست وستين وسبعمائة أن جاء مع القافلة من مكة المشرفة لزيارة النبي ﷺ فجاء بزوجته بنت القاضي نجم الدين وأم أولاده بنت شهاب الدين الإمام، فتوفيت زوجته بنت القاضي نجم الدين في أواخر شعبان، ثم توفيت بنت الإمام أول ليلة من شهر رمضان ودفنتا في قبلة قبة سيدنا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فلما كان بعد العيد خطب مني ابنتي ملوك التي كانت زوجة الشيخ عيسى الهسكوري فزوجتها منه رجاء بركته، نفع الله به.

وكان هذا الشيخ عيسى الهسكوري من الأولياء الكبار له مناقب جليلة، وأحوال جميلة، وطريقة علية، وكان أحد شيوخ الهساكرة هو وأبوه وعمه وبنو عمه لهم الدنيا العريضة والأتباع الذين لا يحصون كثرة، والخيول المسومة والكلمة العالية، فخرج عن ذلك كله في نضارة شبابه وعلو قدره بين أقرانه وعشيرته، وتجرد وصحب الشيوخ على طريقة عظيمة، ولزم الشيخ عمر المغربي صاحب الشيخ عبد المؤمن شيخ المغرب في وقته، وقدم الشيخ عيسى مع الشيخ عمر إلى مصر وكانا من أكبر أصحابه وكان هو إمام الفقراء في الصلوات، وأقام مع الفقراء في زاوية الشيخ عمر السبتي بمصر في الحجارين، وصحبه إلى القدس فمات الشيخ عمر بالقدس بعد أن عمر فيه زاوية للفقراء.

ثم ارتحل الشيخ عيسى إلى المدينة وتردد بين الحرمين الشريفين زماناً طويلاً، ثم أوطن المدينة الشريفة وتزوج البنت المذكورة وصحبها صحبة جميلة وتأدبت بآدابه، واكتسبت من أخلاقه، ثم سافر الشيخ إلى مصر بعد أن أولدها ثلاث بنات، فقتل رحمه الله بعد خروجه من القدس وهو متوجه إلى دمشق قتله قطاع الطريق، فمات شهيداً رحمة الله عليه وذلك في سنة ثلاث وستين وسبعمائة[1].

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٨ (١٩٧٠)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٤٧ (٢١٢٠)، «العقد الثمين» ٥/ ١٠٤ (١٤٨٦)، «طبقات الشافعية للإسنوي» ٢/ ٥٧٩ (١٢٨٩).

وكان من الشيوخ المفيدين المقربين إلى الله ورسوله المنقطعين بالمجاورة بين الحرمين الشريفين الشيخ الصالح الورع المربّي عبد الحميد بن علي الموغاني[1]، كان من أهل الخير والصلاح وإيصال النفع للناس في التربية العليا، قد تخلى عن الدنيا وأقبل على الآخرة، ولزم تلقين القرآن طول النهار في المسجد لا تراه إلا في حلقة بين كبار وصغار وكهول مشايخ، وانتفع عليه من أولاد المدينة خلق كثير، لكن مع التجويد وتحرير وتربية لهم وضبط وشد حتى إنه ليضرب ذا الشيبة بيده ويأخذ بلحيته وأُذُنِه، أقام بمكة هو وأخوه في الله الشيخ الصالح المهذب الشيخ يحيى التونسي، وكانا قد اصطحبا قديماً وتواخيا في الله وصحبا الشيوخ وجالا البلاد على قدم التجرد وزيارة الصالحين ولقاء المشايخ.

واتفق لهما في أيام سياحتهما ومدة تنقلهما في البلاد عجائب وغرائب، ولقيا من الشيوخ السادة الأعلام جماعة كثيرة منهم الشيخ أبو العباس المرسي[2] فمن بعده من المشايخ الشاذلية وغيرهم، وفي أيام إقامتهما بمصر ورد عليهما من العجم الشّيخ العلّامة نادرة زمانه الشيخ نجم الدين الأصبهاني[3] شيخ مكة المشرفة في وقته فصحباه وخدماه واجتمعا به أيضاً عند الشيخ أبي العباس المرسي بثغر الاسكندرية وصحباه معهما إلى مكة المشرفة، وكان مسيرهم على طريق الصعيد.

وحكى لنا صاحبنا الشيخ يحيى بن موسى القسنطيني عن الشيخ يحيى التونسي قال: لما خرجنا مع الشيخ نجم الدين صحبة القافلة في طريق

---

(١) ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١١٢ (٢٣٦٤)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٦/أ، وصوب النسبة إلى: «الموقاني» بالقاف.

(٢) هو: أحمد بن عمر بن محمد الأندلسي المرسي الأنصاري، أبو العباس. ولد سنة ٦١٦هـ، صحب أبا الحسن الشاذلي وصحبه ابن عطاء الله، توفي سنة ٦٨٦هـ وقبره بالإسكندرية. ترجمته في: «طبقات الأولياء» ٤١٨/ ١١٨، «جامع كرامات الأولياء» ١/ ٥٢٠.

(٣) هو: نجم الدين عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد الأصبهاني، ولد سنة ٦٤٣هـ، كان شيخاً جليلاً، فاضلاً مشهوراً، مقصوداً، منقطعاً عن الناس، توفي سنة ٧٢١هـ. ترجمته في: «العقد الثمين» ٥/ ٢٧١ (١٦٢٦).

عيذاب نفد زادنا، وقسّى الله تعالى قلوب أهل القافلة علينا فكنا نحن والشيخ ليس لنا قوت إلا من نبات الأرض، فلما أشرفنا على القرب من قبر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمة الله عليه، قال لنا الشيخ نجم الدين: إذا كان غداً إن شاء الله ستردون قبر الشيخ أبي الحسن وضيافتكم عنده زبيب ولوز.

قال الشيخ: فكان كذلك.

قال: ثم سافرنا فلما وصلنا إلى بلد عيذاب، تلقانا الناس وأضافونا ضيافات كثيرة، فكان الشيخ يبعث الطعام إلى أهل القافلة التي صحبناها فندموا على تفريطهم في خدمة الشيخ.

ثم قال لنا الشيخ: يا يحيى وعبد الحميد، لن تجوعا بعد هذه الجوعة التي حصلت لكما إلى أن تلقيا الله تعالى، فكان كذلك.

وحكى الشيخ يحيى المتقدم ذكره عن الشيخ يحيى التونسي قال: حكى لنا الشيخ نجم الدين أنه كان في ابتداء أمره مشتغلاً بالعلم، وكان له بساتين وأملاك ودائرة كبيرة، فانتقل عن أهله وترك جميع أملاكه وصحب بعض الشيوخ المشار إليهم في زمانه ببلاد العجم فأقام عنده مدة.

ثم قال له: يا سيدي أريد أن تدلنيُ على طريق السلوك؟

فقال له: نعم، امض إلى منزلك واكشف لي عن مسألة كذا وكذا، وأخبرني بما قيل فيها، فذهب ثم رجع وأخبره بما سأل عنه.

فقال له: يا ولدي أقبل على الاشتغال بالعلم، فأقبل عليه، وهو في أثناء ذلك يسأله أن يسلكه في علم الطريقة، فلما ألحَّ عليه في بعض الأيام.

قال له: امض فانظر ما قال العلماء في مسألة كذا وكذا.

فذهب ففتح الكتاب الذي فيه المسألة فوجد جميع أوراقه بياضاً ليس فيها كتب، ثم فتح آخر فوجده كذلك، حتى نظر في كتبه كلها فوجدها صحائف بيضاً. فرجع إلى الشيخ وهو مهتال لما رأى، فأخبره خبره.

فقال: الآن صفا قلبك، وصح توجهك، وصدقت في طلبك، ادخل الخلوة، فدخل الخلوة فأقام فيها أربعين يوماً، ثم خرج وهو جوهرة مضيئة، فسأل الشيخ أن يلبسه الخرقة لينتمي إليه؟

فقال له الشيخ: لست لي تلميذاً، شيخك أمامك!

قال له: يا سيدي فأين أطلبه؟.

قال: هو في ناحية المغرب.

فقال له: يا سيدي لست أعرفه!

فقال: هو يعرفك فاعزم على السفر.

قال الشيخ نجم الدين: فودعت الشيخ وقصدت البلاد أطوفها وكل شيخ أسمع به أقصده وأزوره، وكل زاوية أسمع بها أقصدها، فلم أظفر بقصدي، فبينا أنا متوجه إلى مصر في موضع يقال له: الرمل، وقد أضرَّ بي العطش وآيست من نفسي، فملت من الطريق إلى شجرة وحفرت لنفسي حفرة لأرقد فيها، فإذا أنا بشيخ قد ظهر لي من عرض البرية وبيده ركوة فيها ماء فوقف عليّ، وقال: يا عبد الله أنت عطشان؟

فقلت: نعم يا سيدي.

فقال: اشرب، فشربت حتى رويت وحمدت الله تعالى.

فقال لي: الحقْ بي إلى مصر. وغاب عني: فسرت إلى مصر، فلما دخلت القاهرة قصدني أهل خانقاه سعيد السعداء فسألوني النزول عندهم فوافقتهم على ذلك، ثم إني لم أقم عندهم إلا قليلاً حتى قيل ورد شيخ من الإسكندرية يقال له: الشيخ أبو العباس المرسي(١) تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي(٢)، وهو شيخ الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله(٣).

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) هو: الشريف تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي الشاذلي، شيخ الطائفة الشاذلية، صحب الشيخ نجم الدين الأصبهاني. قال عنه ابن دقيق العيد: «ما رأيت أعرف بالله منه». توفي وهو في طريقه للحج بصحراء عيذاب، وبها دفن سنة ست وخمسين وستمائة. ترجمته في: «شذرات الذهب» ٧/ ٤٨١، «حسن المحاضرة» ١/ ٥٢٠ (٤١).

(٣) هو: تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندراني الشاذلي، صحب الشيخ أبا العباس المرسي وصنف في مناقبه ومناقب شيخه أبي الحسن الشاذلي. قال عنه الذهبي: «كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل». توفي سنة تسع وسبعمائة، ودفن بالقرافة. ترجمته في: «شذرات الذهب» ٨/ ٣٦، «الدرر الكامنة» ١/ ٢٧٣ (٧٠٠).

وخرج أهل الخانقاه لتلقيه، فلم يتفق لي الخروج معهم، فلما وصل الخانقاه قصدته لأسلم عليه، فلما وقع بصري عليه، تحققت أنه الشيخ الذي سقاني في البرية، فاستحييت من عدم خروجي مع الجماعة للقائه، فلما سلمت عليه أنصفني في السلام ثم خلا بي.

وقال لي: أنت قادم ولك علينا حق وإنما جئت لزيارتك، فإذا سافرتُ فالحق بي إلى الإسكندرية.

قال: فأقام الشيخ أبو العباس في الخانقاه ثلاثة أيام ثم سافر، فأقمت بعده يوماً أو يومين، ثم لحقت به، فألبسني الخرقة وتَتَلْمذت له، ثم استأذنته في الإقامة عنده؟ فقال لي: دار إقامتك مكة المشرفة.

قال الشيخ يحيى التونسي[1]: وذلك كله وقع بحضورنا، فإنا كنا مع من تلقى الشيخ نجم الدين ثم تلقيت الشيخ أبا العباس، ثم اجتمعنا مع الشيخ نجم الدين عند أبي العباس بالإسكندرية، وصحبناه من هناك إلى مكة المشرفة، فأقام بها، وأقمت أنا وعبد الحمِيد عنده مدة طويلة، وتزوجت الزوجة التي حنثت فيها بمكة، وهي أم أولاد عبد الحميد، قال: ثم ارتحلنا إلى المدينة فأقمنا بها.

قلت: وكانت وفاة الشيخ نجم الدين بمكة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، ولما حنث الشيخ يحيى في زوجته التي تزوجها بمكة قدم وأراد من يحللها له، فلم يجد من يفعل ذلك ممن يثق به إلا صاحبه الشيخ عبد الحميد، فسعى في زواجه بها، فلما حصلت عند عبد الحميد تشوف الشيخ يحيى إلى أن يطلقها لتحل له، فلم يفعل واغتبط بها.

وقال له: لا أكون محللاً لك، ولم آخذها بهذه النية، بل لصحبة الأدب فاقطع رجاك منها، ولا تكن ممن يفسد ما هو لله بما هو للدنيا.

فكف عنها الشيخ يحيى، وأقامت مع الشيخ عبد الحميد فولدت له إبراهيم وإسماعيل وبنتاً، فقَرأ أولاده القرآن في حياته ورَأَسَ إبراهيم، وكان

---

(١) ترجمته في: «العقد الثمين» ٧/ ٤٥٩ (٢٧٢٠).

يقول قبل سفره: ما أظن أجلي إلا قد قرب فإني مسافر من غير ضرورة، وما أظن ذلك إلا للنقلة إلى التربة، فكان كذلك.

توفي رحمه الله بقطية في طريق مصر، وذلك في سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وعاش بعده الشيخ يحيى التونسي مدة طويلة، وكان حسن المحاضرة يقطع مجلسه بإنشاد الشعر الرقيق، والحكايات الغريبة، والأمثال المستظرفة غير أنه لم تكن له عربية، بل كان فصيحاً بالسجية والسليقة.

وقد سأل معاوية فقال: كيف ابن زياد؟

قالوا: ظريف على أنه يلحن.

فقال: أو ليس ذلك أظرف له؟

قالوا: أو إنما استظرفه لأن السَّليقة وتجنب الإعراب مما يستملح في البذلة من الكلام. ومن ذلك قول الشاعر:

منطق صائب ويلحنُ حينا   واحلى الحديث ما كان لحنا

والسليقة يراد بها طبع الإنسان، يقال: فلان يتكلم بالسليقة، أي: بطبعه لا عن تعلم.

وكان من أكرم الناس فقير الذات ينفق ما بيده، فإذا فني اقترض الألف والألفين، ثم يقضي قضاءً جميلاً، وكان له معتقدون، ورزق حظوة عند القضاة وأكابر الناس لظرفه وحسن أخلاقه ومحاضرته، تولى نائباً في الإمامة والخطابة عن القاضي شرف الدين ابن الأميُوطي، وكانت خطبته كلاماً ملفقاً غير مرتب ولا مفقّر فيحمل في ذلك على السذاجة، وقلة الاحتفال بالتصنع في الأمور، وعاش حتى صار لا يقدر على حبس الإراقة ولو كان في المسجد.

وقال له بعض الخدام: أتعبتنا بغسل موضعك من المسجد.

فقال له: وعلى أي شيء تأخذون الجامكية إلا على مثل هذا؟!

وقال لبعض الشيعة وقد رآه يتوضأ ويمسح على رجليه: لم لا تغسلهما؟

فقال: لأنهما طاهرتان.

فقال له: فإذاً ما غسلت وجهك إلا لكونه نجساً.

وامتحن بالخدام فآذوه وضربوه ضرباً شديداً، واتهموه بأنه تكلم فيهم عند الأمير منصور، ثم إنه صبر ولم يظهر من الجزع ما يوجب التعصب له، بل صبر واحتمل حتى بلغه الأجل.

وكان ـ رحمه الله ـ كلما سمع بحكاية من الصالحين أو غيرهم مما دُوِّن في الكتب يقول: هذه بعينها أو قريباً منها اتفق لي، وإن سمع بمغربة قال: أنا رأيت هذه، لكثرة تغربه في البلاد وسياحته، ومن اجتمع بهم من سائر الطوائف.

وكان الشيخ يحيى القسنطيني من أخص الناس به وأكثرهم ملازمة له على طريق الخدمة أولاً، ثم على طريق الصحبة آخراً، وتخلق الشيخ يحيى القسنطيني بأخلاقه واكتسب من آدابه، وكان ملازماً له في شبوبيته حضراً وسفراً، فتعرف بأصحاب الشيخ ومعارفه، وصاروا له إخواناً من بعده، وكانت وفاة الشيخ يحيى التونسي رحمه الله سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، ومولده سنة إحدى وأربعين وستمائة.

وأما الشيخ يحيى القسنطيني فإنه اليوم من رجال زمانه ورؤساء إخوانه، قرأ القرآن في شبوبيته فحفظه وجوّده، ثم حفظ «الرّسالة» في مذهب مالك، واشتغل بالعلم وسمع الحديث، وأقرأ القرآن وانتفع عليه جماعة، ورزق حسن السمت ووفرة العقل وصدق اللهجة، والصَّدْعَ بالحق مع الدين المتين، وحسن اليقين، ورزق أولاداً نجباء، توفي أكبرهم الفقيه شهاب الدين أحمد في سنة تسع وخمسين وسبعمائة، وكان اشتغل اشتغالاً كثيراً وله محفوظات عديدة، وحصّل علماء. وكان فيه أهلية الترقي إلى الفتيا، وخَلَّفَ ولدين حفظا القرآن وكفلهما جدهما، وفقهما الله تعالى.

وكان من الشيوخ المتصدرين للإقراء والإفادة الشيخ محمد الخراز[1]، كان من المجاورين القدماء الأخيار المتبتّلين لإقراء القرآن

(١) ترجمته في: «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٤/أ.

المفيدين بحسن الصبر وطول البال على الطلبة من غير معلوم له على ذلك بل لله تعالى، انتفع به جماهير أولاد المجاورين وجواهرهم، مثل الشيخ محمد الحلبي وشمس الدين الششتري ونظرائهم، وممن انتفع عليه الشيخ يحيىٰ القسنطيني.

وأخبرني أنه أقرأ القرآن في بلاده بغداد فوق خمسمائة نفس كلهم حفظ القرآن عليه وجوده بين يديه، وكانت صنعته حز للخشب بالمخراط الشريف يعمل السبح ويبيعها ويتقوت بثمنها، أقام على ذلك مدة، وتزوج بنت عليّ[1] الفراش، فرأت معه سعادة لحسن خلقه وطيب عشرته، ثم توفي عن بنت صالحة لحقتها بركة أبيها. توفي في طريق الشام متوجهاً إلى المدينة في الموضع المعروف بالأخيْضر، ومات وهو ساجد في الصّلاة وذلك سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة.

وكان من الشيوخ المتصدرين للإقراء الشيخ الصالح المقري المجود برهان الدين إبراهيم[2] بن مسعود بن سعد القاهري المعروف بابن الجابي المسروري الإربلي الأصل، كان من الشيوخ القدماء المقرئين السبع، أقام بالمدينة بعد إقامة طويلة بمكة، وانتفع الناس به وجودوا عليه، وكان شيخاً مهيباً، حسن الصمت مليح الشيبة متقدماً على أبناء جنسه، استنابه القاضي شرف الدين في الإمامة والخطابة مدة غيبته في القاهرة سنة اثنتين وأربعين، وكان قد استنابه جمال الدين المطري في الخطابة والإمامة أيضاً في سنة ثمان وثلاثين، وكان القاضي شرف الدين غائباً في القاهرة، وكان مجيداً في أدائهما والقيام بهما، وكان قد كف بصره في آخر عمره فصبر واحتسب. توفي رحمه الله سنة خمس وأربعين وسبعمائة، ومولده بالقاهرة في سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

وكان مثله في التصدر والإفادة والجودة والتحصيل الشيخ محمد

---

(١) هو: علي الحجار الفراش. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٩ (٣١١٤)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ١/ ٧٣ (٩١)، «التحفة اللطيفة» ١/ ٨٩ (١٣٦)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٦/أ، «العقد الثمين».

العقيبي[1] المقرئ، كان إماماً في القراءات وموادها ملازماً للمشتغلين، انتفع الناس عليه بدمشق ورأس فيها وانفرد، ثم بمكة ثم بالمدينة، وكان من الأولياء وأهل الفراسة وكان فيه حِدَّة عظيمة على الطلبة وهيبة عليهم. توفي رحمه الله في سنة أربع وستين وسبعمائة.

وكان في الحرم الشريف جماعة من المؤذنين الأخيار، منهم الشيخ الإمام العلامة أقضى القضاة جمال الدين محمد المطري[2] الأنصاري الخزرجي العبادي، كان إماماً من أئمة الحديث والتاريخ والفقه، والمشاركة في العلوم. ولي نيابة الحكم والخطابة والإمامة عن القاضي شرف الدين الأميوطي، وكان متخلقاً بأخلاق كل من ذكرته من الصالحين، ليس منهم شيخ ولا كبير قدر إلا وهو معه في حوائجه يساعده في قليله وكثيره، لم نجد بعد والدنا مثله في الإحسان إلينا والشفقة علينا في تربيتنا، وتعليمنا والسعي في مصالحنا. إن قلتُ: قام مقام والدنا فما تعديت خطّ الاستواء.

كان لكل قادم إلى المدينة كالأهل لهم في إسكانهم وكسوتهم، والتعريف بهم وتربيتهم عند الشيخ والخدام، وكان حسن المحاضرة، إذا جلستَ إليه لم تحب أن تفارقه. لم يأت بعده مثله ولا علمت فيمن كان في عصرنا من له فضله، كان جامعاً للمحاسن والفضائل، صدراً من صدور الأفاضل، وقد تخلل ذكره مع من ذكرنا من الشيوخ العاملين والأولياء الصالحين. لم يسمع أحسن من صوته في المؤذنة، كان يفضل على صاحبه محمد بن إبراهيم[3]، إلا أنه كان لا يبذل علمه كما كان محمد بن إبراهيم، كان في عزة نفسه والمحافظة على مروءته في أعلى المقامات وأسنى التنزهات.

---

(١) هو: ناصر الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله الدمشقي القلعي، ويعرف بالعُقيبي. ترجمته في: «العقد الثمين» ٢/ ٦٣ (٢١٥)، «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٩٧ (٣٨٥٤).

(٢) هو: جمال الدين محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الأنصاري الخزرجي العبادي الساعدي، المعروف بالمطري. مصنف كتاب: «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة». ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤١٣ (٣٦٠٤)، «الدرر الكامنة» ٣/ ٣١٥ (٨٤٥)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٢/ ب.

(٣) يعني: محمد بن إبراهيم الكناني، رئيس المؤذنين. وقد تقدم ذكره.

وقد عرضت لي حكاية عنه فيها تسليكٌ لمن ذاته عَلِيَّة، وتعزية لمن نفسه خسيسة ردية، وذلك أنه كان في بداية شأنه وعنفوان شبابه محبباً إلى أقرانه وإخوانه، لا يخرجون إلى زيارة ولا يجتمعون في مُتَنَزَّه إلا أخذوه معهم، وكان قد شركه في المأذنة والرئاسة بها الشيخ عز الدين المؤذن، لأن المدينة لم يكن فيها من يوثق به في معرفة الأوقات وتحريرها بعثوا لها من مصر ثلاثة رؤساء: أحدهم والد الشيخ جمال الدين أحمد بن خلف، والثاني الشيخ إبراهيم والد محمد بن إبراهيم، والثالث عزْ الدين المؤذن المتقدم ذكره.

فتوفي والد جمال الدين ووالد محمد بن إبراهيم رحمهما الله تعالى، وكانا النهاية في معرفة الوقت وحسن الصوت. وبقي عز الدين فطالت مدته حتى أسن وعجز، وكان حسن الهيئة ذا لحية طويلة ورئاسة مليحة. واتفق أنه خرج جمال الدين المطري يوماً مع أصحابه فباتوا في مسجد قباء.

وقال لعز الدين: قم عني في نوبتي، فأخلفه عز الدين فلم يقم، وبقيت المأذنة شاغرة من الرئيس، فلما جاء جمال الدين تكلم عليه الشيخ عزيز الدولة وأغلظ عليه.

فقال له: ما غبتُ حتى استنبتُ ولكني غرني عزّ الدين المؤذن، فلم يقبل عذره وكثر عليه الكلام.

فقال له جمال الدين المطري: لك عندي غير هذا المأذنة، الطلاق الثلاث يلزمه إن أذنت في هذه المأذنة حتى يموت عز الدين المؤذن ويموت الشيخ عزيز الدولة.

فتركه الشيخ وترك الكلام معه، وصار إذا كان الوقت يؤذن على باب جبريل في الأوقات كلها وأصحابه يقتسمون عليه الجامكية. وكانت الجامكية يومئذ قليلة، فلما طال عمر عز الدين قيل له: اعمل ما عمله غيرك من ترك الزوجة بطلقة مخالعة، ثم ارجع إلى مأذنتك، ثم راجع زوجتك.

فقال: لا أفعل هذا، ولا يسمع عني ذلك ولو كان لي في المأذنة ما عسى أن يكون.

ثم إنه مات عزيز الدولة، فقيل له: إنما كان غضبك من كلام الشيخ وقد مات فافعل ما يفعله الناس، فامتنع وصبر.

فلما بنيت المأذنة الجديدة، قيل له: هذه المأذنة لم تكن حين يمينك موجودة فاستقل بها، فلم يفعل، واستمر كذلك حتى أراد الله تعالى، فجاء عز الدين المؤذن ليلة وقد مضى من الليل نصفه، فدق باب الحرم ودخل وقد لحقه اختلال، فطلع المأذنة الجديدة وتكلم على عادته فأنكر الناس قيامه، ثم سكت ولم ينزل، فطلعوا إليه فوجدوه ميتاً رحمه الله، وذلك في سنة عشر وسبعمائة، وفيها توفي عزيز الدولة أيضاً فانحلت اليمين، وطلع المأذنة في أيام الحريري وكان من أكبر أحبابه، فانظر إلى هذه النفس الأبية والهمة العلية، توفي رحمه الله سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وكان مولده في سنة إحدى وسبعين وستمائة.

ثم خلفه في أخلاقه وسيادته ولده الشيخ الإمام العلامة أبو السيادة عفيف الدين عبد الله[1]، وزاد عليه بالمشيخة في الحديث ولقاء الشيوخ، فإنه رحل إلى العراق وسمع بها الحديث، ثم رحل إلى مصر ودمشق وحلب وكثير من الأقاليم، ولقي من شيوخ هذا الفن ما لا يحصى كثرة، واشتهر ذكره شرقاً وغرباً بسبب هذا العلم وبما كان فيه من مكارم الأخلاق والإحسان إلى الغرباء الواردين عليه.

وكان منجمعاً منقبضاً عن الناس ما عدا الغرباء الواردين عليه، فإنه كان لهم كالأب الشفيق، وانتهت إليه مشيخة الصوفية بمكة والمدينة، فإنه كان في زيّهم ولباسهم وأخلاقهم في أعلى المراتب، وكان إماماً في علم الرجال والحديث مع مروءة وسكينة وحشمة، مع ما رزق من الشكالة الحسنة والخصال المستحسنة، ولم يتزوج قط، بل كان عنده جوار يقومون بخدمته وخدمة أصحابه.

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٧٥ (٢٢١٢)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٨٤ (٢٢٠١)، «معجم الشيوخ» للذهبي ١/ ٣٣٦ (٣٧٢)، «ذيل العبر» للعراقي ١/ ١٥٥، «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٨/أ.

ولما توفي والده جمال الدين ـ رحمه الله ـ قام بخدمة أخيه تقي الدين أبي الحرم عبد الرحمن[1]، وكفل أيضاً ابن أخيه عبد العزيز[2] بن يحيىٰ بن العفيف، فربَّاهما جميعاً واشتغلا بالعلم على الشيوخ، وكان كل شيخ ذي علم يرد المدينة يحسن إليه ويلزمهما العكوف عليه، وكان عبد العزيز حنبلي المذهب فبرع في عدة علوم وأتقنها وكان يحفظ أصولاً متعددة وفنوناً كثيرة على أقرانه وأبناء جنسه، ثم اشتغل بمذهب الشافعي وأقبل على حفظ «المنهاج» للنووي من غير إعراض عن مذهبه، بل ليجمع بين المذهبين.

ثم ارتحل إلى دمشق رغبة في لقاء الشيوخ والأخذ عنهم فتوفي بها، وذلك في سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وكان مولده في رجب من سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة.

وأما أخوه فإنه لم يفارقه حتى مات، وحصل علماً وأفاد وَدَرَّسَ وتعلق بأهداب طريقة والده ورئاسته، ورزق أولاداً نجباء أكبرهم الولد النجيب أبو حامد رباه عمه وانفرد بتربيته وتعليمه، فلو عاش لحصل ببركته خيراً كثيراً، وكان مولده في الحرم بمكة المشرفة سادس عشرين ذي العقدة سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

وكانت محنة الشيخ عفيف الدين التي أصيب بها في دنياه من جهة الأمير ثابت[3] بن جمار في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

وذلك أن الطواشي مختار البغدادي كان وصياً على أولاد العفيف بن مزروع، وكان صديقاً للشيخ عفيف الدين ملازماً له معتقداً فيه، فلما توفي الطواشي كان الوالي في المدينة يومئذ ثابت بن جماز نيابة عن أخيه ودي، فطلب العفيف واتهمه أن للطواشي عنده مالاً، فحلف له أن ليس عنده شيء، فلم يصدقه وأنزله إلى الجُبِّ مع شمس الدين بن عبد العزيز لكونه كان من أخصاء العفيف وأحبابه، وطلبوا حاشية العفيف، فمسكوا ريحان

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٤٧ (٢٥١٨)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٤٠ (٢٣٤١).
(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٩٠ (٢٦٦٧).
(٣) هو: ثابت بن جماز بن شيحة الحسيني، ناب في إمرة المدينة عن أخيه ودي، مات مقتولاً في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة. «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٢٦ (٦٨٩).

عتيق جمال الدين المطري فذكروا أنهم قرروه فلم يقر، فضربه الأمير ثابت بيده ضرباً وجيعاً بالدبوس، فأظهر لهم شيئاً مما هو للعفيف كان قد أخفاه، فأخذوا جميع ما فيه من الكتب والمتاع والأثاث حتى الحصر التي على الأرض، فأما ابن عبد العزيز فأخرج من ليلته.

وأما الشيخ عفيف الدين فبقي فيه نحو يومين وليلتين، ثم خرج على أن يدفع لهم سبعة أحمال رز، فَحُسِبَ ثمنها ألف درهم وخمسمائة وخمسة وسبعون درهماً، وضمنه ابن عبد العزيز وعبد الله بن محمد بن إبراهيم المؤذن، فدفع لهم ذلك بعد أن اقترضه، ولم نعلم أنه قبل من أحد من أصحابه شيئاً لا فيما غرم ولا فيما جدّد في بيته من أثاث وغيره وصبر واحتسب. وكانت عنده ودائع للناس غرمها لأصحابها وأخلف الله عليه وجمّل حاله وأعقبت هذه القصة صاحبها خيراً.

وكان الأمير المذكور قد أمر بإخراج جميع المجاورين غنيهم وفقيرهم في يوم وفاة الخادم المذكور، وأنظرهم ثلاثة أيام ليتجهزوا فيها وصمم على ذلك، ثم تركهم في يوم خروج العفيف بعد شفاعات، ثم شوش عليهم وطلب عشرة آلاف درهم من أحد عشر نفراً، وألزمهم بالخروج من المدينة إن لم يدفعوها، فخرج الجماعة إلى قباء وجرى في ذلك كلام كثير، ثم طلع القاضي شرف الدين[1]، إلى الأمير وتكلم معه كلاماً غليظاً.

وقال: أنا أول من يسافر معهم، فرجع الأمير عن رأيه وبعث إليهم فدخلوا المدينة آمنين.

وأخبر محمد بن يعقوب وزير الأمير أن الحاصل الذي جمعه من بيت العفيف مع حاصل آخر كان له، وحاصل آخر كان لزوجة ولده سعد، خرج به الأمير المذكور في الليل من باب السر الذي في القلعة ودفنه خارج المدينة تحت حوش ودي، وكان معه عبد واحد لم يطلع على ذلك أحد غيره، ثم افتقده بعد أيام فلم يجده، فقرَّر العبد فلم يقرَّ بشيء، فقتله معاقباً

(١) هو: شرف الدين الأميوطي، وقد تقدمت ترجمته.

مخنوقاً. وجملة ما ضاع له تسعة آلاف درهم ومائة درهم، وذلك بعد قضية العفيف بخمسين يوماً.

ثم خرج الأمير من المدينة إلى العرب، فلم يحل عليه الحول حتى قتل في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين، وذكر من حضر الواقعة أن أصحابه انهزموا وتركوه في المعركة غير مدفون، وذكر لي السيد سلطان بن محارد، أنَّ امرأة كان قتل ثابت ولدها فنذرت أنها متى ظفرت بجيفته، لتأخذنّ عظماً من عظامه فتجعله خلالاً لمنسجها تضرب به عند النسج مفتول الصوف، فلما توفي لم تزل تطلب جيفته حتى وقعت بها، فأخذت من عظامه عظاماً، فأوفت بنذرها وجعلته بيدها تتشفّى به، حتى دُخل عليها وسُئلت تركه فتركته بعد حين.

ثم إن الشيخ عفيف الدين اشترى كتبه من الوزير المذكور وعوضه خيراً مما ذهب له، ومات رحمه الله عن غير عقب في سنة خمس وستين وسبعمائة، وكان مولده سنة ثمان وتسعين وستمائة.

وكان منهم الفقيه محمد بن إبراهيم المؤذن، وقد تقدم ذكره في مواضع متعددة؛ كان رحمه الله من أدين الناس وألينهم عريكة وأحسنهم مخالطة، لو دعاه أصغر الناس إلى بيته أو نخله ذهب معه، وكان إذا جلس مجلساً عمره بالذكر والمدح، وكان إذا طلع المأذنة وتكلم فيها يوجد على كلامه روح، وكان ـ رحمه الله ـ لا يزال متبسماً وهو مبهدل في لباسه وحركاته، يحب الفقراء ويخدمهم ويقضي حوائجهم، وكان أمين الحكم في أيام القاضي سراج الدين. توفي رحمه الله سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

وأعقب ولده أبا محمد عبد الله[1]، كان من أحبابنا وأصحابنا بل من أولادنا، وجدنا منه براً عظيماً وأدباً كثيراً، وكان له وجاهة عند أمراء المدينة آل جماز فنفع كثيراً من الناس بشفاعته، وكان محبباً إلى الناس لما احتوى عليه من حسن السيرة وصفاء السّريرة، وكان بينه وبين أخويّ خصوصاً أخي محمداً ملائمة عظيمة، ومحبة أكيدة لا يكاد ينشرح إلا

(١) تقدم ذكر مصادر ترجمته.

معهما، ولا يطلب له أنس إلا بهما. وكان رحمه الله يحب التنزه والمشي إلى متفرجات المدينة ومنتزهاتها، إذا خرج يخرج معه الأطعمة الفاخرة والأشياء المعدومة التي لا تكاد توجد عند غيره، فيتحف بها الجماعة. وكان فيه كرم وطيب نفس، وولي الرئاسة[1] بعد والده وعقَّبَ أولاداً فقهاء نجباء، أفضلهم شهاب الدين أحمد[2]، تفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة وجدَّ في الطلب واجتهد، وشارك في فنون متعددة وهو اليوم من أعيان جماعتهم، ولكن توفي عبد الله والدهم في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، ومولده سنة أربع وسبعمائة.

وكان منهم محمد بن عبد الرّحمن[3] المؤذن هو وأبوه وجده، كان فقيهاً متفنناً اشتغل بالعلم حتى ألفَ وصنف، وكان في النحو واللغة إماماً، وفي علم الأدب والشعر هماماً، وكاتبني بقصيدة له أبانت عن فصاحته وبلاغته وقوة عربيته مطلعها:

حنانيك عبد الله زين المواكب ... فما أنت إلا البَدْرُ بين الكواكب

وأبيات كثيرة. كان من إخواننا في الاشتغال بالعربية، كنا نحضر جميعاً عند والدي[4] رحمه الله، وعندُ الشيخ أبي عبد الله النحوي رحمه الله، ولي معه مباحثات في مسائل كثيرة، وكان ذا حَرَدَةٍ وأنفة، لا يجلس إلا مع الكبار ولا يتكلم إلا بكلمات كبار من غير تكبر، وكان ورعاً ديناً حسن الصورة. لكن توفي رحمه الله في سنة عشرين وسبعمائة.

وكان منهم بل من خيارهم القاضي فخر الدين السنجاري أبو بكر بن ([5]) عمل مؤذناً رجاء بركة النسبة إلى النبي ﷺ، وكان جهوري

---

(١) يقصد بها: رئاسة الآذان، ويطلق لقب ريس على مؤذني الحرم النبوي والمكي.

(٢) هو: أحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم المصري المدني الحنفي المؤذن. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١١٦ (٢١٢).

(٣) هو: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي، ويعرف بالمطري المدني. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥١٢ (٣٩١٦)، «العقد الثمين» ٢/ ١٠٥ (٢٦١).

(٤) سيورد المؤلف ترجمة وافية عن والده بآخر هذا الكتاب.

(٥) سقط بجميع النسخ.

الصوت، على كلامه روح عظيم يدل على خشوعه وحضور قلبه، وكان معظماً عند الناس يقضي حوائجهم ويلبي دعوتهم، وكان له بالقاهرة وجاهة، ينتمي إلى السبكيين فكانوا يرعونه في نفسه ثم في ذريته من بعده، وكان يقال له: سمسار الخير، لكثرة سعيه في مصالح شتى وفي وظائف كثيرة تأسست ببركته وإشارته.

منها: درس المالكية، ودرس الشافعية اللذين رتبهما الأمير سلار، وكذا درس الحنفية الذي بالمدرسة الأركوجية، وسقايات للماء وغير ذلك.

توفي رحمه الله سنة تسع وثلاثين وسبعمائة، ومولده سنة ست وستين وستمائة، وعقب ولده شمس الدين محمداً، كان فقيهاً حنفياً اشتغل بمذهب أبي حنيفة بالقاهرة على مشايخ المذهب، وجاء إلى المدينة مع والده فولي تدريس الحنفية في الشهابية، والأركوجية، وكان من الأخيار ديناً عاقلاً حسن الأخلاق مبادراً لقضاء حوائج الإخوان كهفاً للفقراء والمساكين. وكان مؤذناً حسن الصوت، فتزوج بنت القاضي شرف الدين الأميوطي، فرزق منها ذرية مباركة وسعيدة أصلحهم الله تعالى.

توفي رحمه الله بعد أن نهب بيته في نهبة المدينة المتقدم ذكرها، وكانت وفاته في أوائل سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

وكان منهم الشيخ الفقيه الصالح الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي ونعم الرجل، كان ـ رحمه الله ـ في بدء أمره مشتغلاً بالعلم قد جود القراءات السبعة، وأحكم الفرائض والحساب حتى لم يكن في المدينة مثل بديهته في ذلك، وكان قد جَبَّ نفسه لعارض عرض له خاف على نفسه من السّلطان، غلب على ظنه أنه لا ينفك عنه إلا بما فعل، وزُيّن له أن الذي يفعله أسلم في دينه من حالته التي هو عليها والعياذ بالله، فندم حيث لا ينفعه الندم. وفي مثل ذلك قيل:

كلٌّ يحاولُ حيلةً يرجو بها ... دفعَ المضرَّة واجتلابَ المنفعَةْ
والمرءُ يغلطُ في تصرفِ حالهِ ... فلربَّما اختار العَنَاءَ على الدَّعةْ

ثم إنه حَسُنَ حاله وعبادته وتبتله، ورَغبَ فيه جماعة من الخدام وأدخلوه

في خدمة الحرم الشريف، وقدموه عليهم في حفظ حواصلهم وأوقافهم، ورَأَسَ بينهم رئاسة جليلة ودخل في جملة المؤذنين أصحاب المعلوم.

فلما كبر وأسن نزل عنه، ولم يزل بين الخدام معظماً محترماً مشهوراً بعفة اليد واللسان في إقامة طويلة بينهم وكان قد تأثل دُنيا[1]، فكان يرسل ما فضل عنه إلى إخوته في بلادهم غرناطة حتى إنه لما توفي لم يوجد له ما كان يتهم به من المال، وأوقف كتبه وجعل مقرها في المدرسة الشهابية، وأعتق عبيداً وإماء، وقدم لنفسه ذخيرة صالحة بعتقه خادَمه نجيباً أحد خدام الحرم الشريف اليوم ومن أميزهم عقلاً ومعرفة وديانة، وحصل له به ذكر جميل وخير كثير غير قليل.

وكان أبو عبد الله مُجيداً في صنعة الدهان والتزويق، فعمل في الحرم الشريف مع الدهانين وأثر تأثيراً حسناً، كان لي منه ـ رحمه الله ـ نصيب وافر وودّ عظيم ومبادرة لقضاء حوائجي، وكان يحضر معنا الدرس ويرعانا لما كان بينه وبين والدي جزاه الله خيراً. ولكن توفي رحمه الله في سنة أربع وخمسين وسبعمائة وله إحدى وثمانون سنة ولم يخلف عقباً.

وكان منهم الأخ في الله الشيخ علي بن معبد المصري[2] الأصل الشهير بالقدسي المؤذن، كان ـ رحمه الله ـ ملازماً لوظيفة الأذان والإقامة يغيب الناس ولا يغيب، قل أن تشغر وظيفته الإقامة على الدكة مدة حياته إن حضر أصحاب النوبة وإلا قام عنهم، وكانت نوبته في المأذنة لا تختل أبداً في صيف ولا موسم ولا غير ذلك، وكان ليلة نوبته لا يرقد إلا في المدرسة الشهابية، وإذا كان أيام الصيف خرج عياله إلى نخلهم وأقام هو في المدينة رغبة في الصلاة في الجماعة، وكان من حسن الخلق مع الديانة والصيانة، وقلة الكلام في أعراض الناس، في الذروة العليا والمقام الأسنى، ورزق أولاداً مباركين مؤذنين وبناتاً مباركات، وكان له عائلة كبيرة ولا يهتبل بحالهم ولا يهمه

(١) تأثل دُنيا: يعني اكتسب وصار صاحب ثروة. انظر لسان العرب، مادة: «أثل».
(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٢ (٣٠٩٠).

أمرهم، بل هو مشغول بنفسه وبالقيام بوظائفه مع البهدلة في ملبسه وحاله كله مبهدلٌ.

وكان قدومه إلى المدينة في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، ورغب ابن أخته محمد بن يوسف في الإقامة بالمدينة المنورة وزين له ذلك، فأقام عنده وسعى في أن يكون مؤذناً، فأُذِن له فكان يؤذن احتساباً، ثم شغرت وظيفة ابن الحسيني المؤذن فتولى مكانه، وكان الحسيني من المؤذنين القدماء الأخيار وتزوج محمد ابنة خاله فرزق منها أولاداً مباركين، وكان محمد لا يعرف إلا بخاله فيقال له: محمد بن أخت القدسي، وكلاهما مصريان ليسا من القدس الشريف. وكان الشيخ عليٌّ قديمَ الهجرة بالمدينة من المجاورين القدماء، صحب جماعة من الصالحين الأخيار، وخدمهم ونال منهم، وكان يحكي من أخبارهم وأحوالهم ما يتأسى به وينتفع به من اختل عليه حاله وصدئ من الغفلة قلبه. توفي رحمه الله في سنة اثنتين وستين وسبعمائة وقد قارب الثمانين.

وكان منهم الفقيه الزكي النبيل سراج الدين عمر بن الأعمى[1]، كان من المؤذنين الذين ساروا بين إخوانهم وشرفوا بعقولهم، وآدابهم كان خلطاً فكهاً حسن القراءة حسن الصوت أديباً مؤذناً مُجيداً، وكان مليح الخط جود عليه أكثر أولاد المجاورين، وكان كثير المساعدة للإخوان عند الشرفاء والأمراء، وكان محبباً إليهم مكرماً لديهم، يجسر على الأمراء بالكلام ويقول الجد في صورة المزح، ويقضي حوائجه منهم لنفسه ولمن استغاث به، وترك أولاداً قرّاء مؤذنين، مات أكبرهم محمد في الغرب بعد غيبة طويلة، وخلف ولداً صالحاً نجيباً مؤذناً صيتاً ذا صوت حسن. توفي عمر رحمه الله في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة.

وكان منهم حسن القطان[2] وأحمد القطان[3]، فأما حسن فخلف ولدين من جاريتين تَسَرَّى بهما قرب وفاته فمات وهما حاملتان فولدتا جميعاً

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٥٧ (٣٣٣٠)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٢) هو: حسن بن قاسم القطان. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٨٩ (٩٦٥).
(٣) هو: أحمد بن قاسم القطان. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٢٦ (٢٤٨).

ذكرين، كان خيارهما حسين[1]، نشأ في خير واشتغل بالعلم وولي وظيفة والده في الأذان، وكان صيتاً حسن الأذان حسن العشرة والمداراة فعاش في الناس بعقله، ثم توفي وخلف أولاداً صغاراً لطف الله بهم.

وأما الولد الآخر فتغرب وامتحن في الشام بمحنة قطعت فيها يده وكان بريئاً، وكان من أعقل الناس وأشغلهم بنفسه وتدبير بيته، وكان صيتاً مؤذناً مجتهداً، خلف ولدين صالحين مباركين صيتين، توفي بالشام زمن الطاعون رحمه الله.

ومنهم الفقيه عبد الرحمن بن ياقوت[2] وقد تقدم ذكره في ترجمة الشيخ شرف الدين الخزنداري عفا الله عنه.

وكان من أبناء المجاورين ورؤوساء الناس وصدور الفقهاء، الإمام العلامة يوسف بن جمال القرشي الهاشمي، كان فقيهاً رئيساً محصلاً لعلوم شتى، رحل إلى العراق فتفقه بها على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وأدرك بها شيوخاً أئمة في العلم فأخذ عنهم وانتفع بهم، وكسب كتباً جليلة في كل علم، وكسب مالاً ونخيلاً ودوراً. وكان ذا عيال كثيرة ونفقة غير مقدرة فأفنى جُل ماله في حياته، وباع أكثر كتبه في المدينة، وبعث منها كثيراً إلى الشام فبيع بها.

وكان أخوه الشيخ العلامة علم الدين يعقوب[3] فيه رئاسة وحفظ للمنصب والنسب، فولي القضاء بالمدينة كما سيأتي ذكره، وجرى بينهما من التحاسد والتباغض ما لم يجر بين أحد من الإخوان، وسرى ذلك في عقبهم حتى تلف حالهم وافترقت كلمتهم وطمع فيهم عدوهم، فصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «**إياكم والبغضة فإنها الحالقة**»[4].

وتوفي الفقيه يوسف في حياة أخيه يعقوب، فجفا أيتام أخيه. ثم إن

---

(١) هو: الحسين بن الحسن بن قاسم القطان المؤذن. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٩١ (٩٧٨).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٥٧ (٢٥٦٧).

(٣) ترجمته في: «المغانم المطابة» الورقة ٢٧٠/أ، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٣٤ (١٢٠٨).

(٤) رواه الإمام مالك في «الموطأ»، باب «حسن الخُلُق» ص٦٩٣، الحديث ١٦٧٦.

الشرفاء غرموا الفقيه يعقوب شيئاً بعد التضييق عليه، فرأيت الفقيه يوسف في المنام وهو على حالة حسنة وهو يشير إلى أخيه يعقوب كالمتشمت به.

ويقول لي: ما عرف قدري حتى فقدني.

وخلف الفقيه يوسف أولاداً وبناتاً، كان أدينهم وأصلحهم وأكثرهم اشتغالاً بالعلم وأوصلهم للرحم، الفقيه جمال الدين[1] اخترمته المنية شاباً، وخلف أولاداً مباركين وفقهم الله.

توفي الفقيه يوسف رحمه الله في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ومولده سنة إحدى وستين وستمائة، وتوفي ولده جمال الدين في سنة تسع وخمسين وسبعمائة رحمة الله عليهم.

وكان ممن صحبته في الله الفقيه الفاضل المتفنن المتعبد شهاب الدين الصنعَاني[2]، كان جلُّ عمره في دمشق ثم قدم المدينة فانقطع بها وتأهل وولد له بنت في آخر عمره، كان ـ رحمه الله ـ كثير الصيام لا تكاد تراه مفطراً وكان ملازماً للمسجد، وله من التصانيف عدد كثير في فنون منها في مذهب الشافعي وفي اللغة والعروض وغير ذلك، وتولى نيابة الحكم عن القاضي سراج الدين، وتولى التدريس في درس الحديث للقلانسي قبل جمال الدين المطري.

صحبته طويلاً فلم أسمعه يحلف بالله تعالى، وأخبرني أنه على ذلك منذ عقل عقله، ولا رأيته يخرج مثل غيره لا عند حكومة ولا عند كلام يسمعه في عرضه، ولا يكاد يعاتب أحداً للينِهِ وحسن خلقه وكثرة خيره، وكان قد سلط عليه بعض الناس واشتغل به وهو لا ينزعج لشيء من ذلك، قد أمن الناس شره وبأسه رحمه الله. توفي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة.

وكان من الشيوخ المعدودين في زمانهم من العلماء الحكماء المجيدين، المطلعين على علوم الأولين من حكمة ومنطق وهندسة وفلسفة، أبو محمد عبد الله بن حجاج المغربي[3] الشهير بمكشوف الرأس، لأنه كان

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٤٧ (٧٩٣).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦٢ (٣٥٠)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٣/أ.

(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٩ (٢٠٠٦)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٧/أ.

لا يزال كذلك. كان حبراً منقطعاً للمجاورة مشغولاً بنفسه، وجمع من الكتب الجليلة ما لم يجمعه أحد من جنسه، أتى بها من بلاده، كانت مشتملة على أصول وأمهات، ودواوين من تفسير القرآن، وكتب الفقه والحديث، والتاريخ والطب، والمنطق والحكمة، وعلوم شتى. وكان عنده من كلِّ فن تصانيف عديدة، وكان له عيال وأولاد، كان إذا أراد الحج إلى بيت الله الحرام أدخل عند عياله جميع ما يحتاجون إليه من طعام وماء، وسد عليهم الباب بالبناء حتى لا يصل أحد إلى بيته ولا يطلع على حاله، ولا يزال البيت كذلك حتى يأتي من مكة ويفتح عنهم.

توفي رحمه الله وترك أولاده صغاراً فوَّصى عليهم وعلى ماله وكتبه نور الدين ابن الصفي فقيه الإمامية في وقتهم ورئيسهم، لأنه كان جاره وكان بينهما مؤانسة، ولم تزل الكتب عند ابن الصفي[1] حتى تلفت وأكلتها الأرضة، وذهب خيارُها ووقع عليها المطر.

ثم كبر الأولاد وسافروا إلى مصر، وبعثوا مع القاضي فخر الدين السنجاري بوكالة على تسلم الكتب وبيعها فبيعت، وملأت المدينة حتى صار في كل بيت منها جانب من علوم لا يعرفها أحد من أهل هذا الزمان، ولا يفهمها إلا من عالج أصولها وأدرك شيوخها، ولقد باع بعض الناس منها نحو أربعة عشر مجلداً كل كتاب بدرهم نسخاً مليحة صحيحة في فنون قل من يفهمها في المدينة، توفي رحمه الله في سنة إحدى وسبعمائة.

وكان من الأشياخ المباركين وأحبابنا السالكين أبو البركات أيمن بن محمد السعدي[2]، وكتب بخطه في آخر كتاب أيمن بن محمد بن محمد، وعدَّد من أجداده أحد عشر نفراً كلهم اسمه محمد، كان له كل يوم وليلة ثلاث ختمات، وترك أهله وإخوانه في تونس وهاجر إلى الله ورسوله ﷺ، وكان له ديوان كبير في مدح سيدنا وذخرنا رسول الله ﷺ.

---

(١) هو: نور الدين علي بن الصفي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٧٩ (٣٠٣٦).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٠٣ (٥٨٢)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٤/أ، «الدرر الكامنة» ١/ ٤٣١ (١١٣٤). ومن العجيب أن أسماء آبائه الأربعة عشر محمد، كما ذكره ابن حجر في ترجمته ولكن المصنف يذكر هنا أنهم أحد عشر.

قال لي: رأيت النبي ﷺ في النوم فأنشدته بعض قصائدي فيه، فبصق في فيَّ وقال لي: لا فُضَّ فوكَ. فلم تسقط له سنٌّ، وكان قد جاوز السبعين حين أخبرني بذلك. ولقد أعطيته يوماً خشكانة يابسة قديمة لا تكاد تنكسر إلا بالحجر، فأخذها وقرضها كأنها قطعة سكّر، وكان يأخذ الدرهم النحاس فيقطعه بأسنانه نصفين، وكان أعجوبة الزمان وطرفة الإخوان من أدب وشعر وحكايات، من جلس إليه لا يكاد يحب فِرَاقه، وكان حسن البديهة سريع الجواب.

حكى لنا أنه كان ساكناً في مدرسة في مدينة تونس، قال: فنزلت يوماً في درج المدرسة كنت على عجل، واتفق أن كان قاضي القضاة ابن عبد الرفيع طالعاً في الدرجة ولم أشعر به، فلما سمع حسّي قال قبل أن يراني: من النازل؟

فقلت: الطالع، فغضب عليَّ وأمر بإخراجي من المدرسة. وله مثل هذا كثير، وسأذكر منه شيئاً في ترجمة السراج.

ومن شعره:

بلغتُ بشعري في الصبا وعُقَيبه ... جميع الأماني من جميع المطالبِ
فلما رأت عيناي سبعين حجة ... قريباً هجرتُ الشِّعر هجر الأجانبِ
أيجمل بالشيخ الذي ناهز الفنا ... بقاء على ذكر الصبا والكواعبِ
حثثت السرىٰ ليل الشباب فكيف لا ... أنيخ لدى صبح المشيب نجائبي
لعمرك إن العمر يوم وليلة ... يكران والدنيا مناخ لراكبِ

وقال في معنى قول الحكماء: من طال عمره كانت مصيبته في نفسه.

إذا طال عمر المرء سُرّ وساءه ... على أيّ حال كان فقدُ الحبائبِ
وفي نفسه إن مات قبل انتهائه ... مصيبته فالمرءُ رأس المصائبِ

أنشد لنفسه في يوم العيد:

إنَّ عيداً بطيبة وصلاة ... بمُصلَّى الرسول في يوم عيدِ
نعم ضاق واسع الشكر عنها ... فهي بشرى لكلِّ عبدٍ سعيدِ
كم تمنيتها فنلت التمني ... آخر العمر من مكان بعيدِ

وإذا كان في البقيع ضريحي وتوسَّدتُ طِيبَ ذاك الصعيدِ
فاشهدوا لي بكلِّ خيرٍ ويُسْرٍ عند ربي ومُبدئي ومُعيدِي

وله في الغزل:

وكم رُمت كَتْم الحُبَ عمَّنْ أحبُّه وكيف بكتمِ الحبِّ عن ساكن القلبِ
إذا اختلج السرُّ المصونُ بخاطري تقلَّبَ مني القلبُ جنباً إلى جنبِ
فتبدوا ولا تبدوا سرائرُ لوعتي وتخفى ولا تخفى وفي الحال ما يُنْبِي

وله في النخل وقد رآه مجدوداً:

أنظر إلى النخل وأعناقها قد جرت من تمرها الزاهِي
مثل عروس تمَّ أسبوعها فجرِّدت من حليها الباهِي
ما زينها إلا عراجينُها وكلُّها من حكمة الله

وله أيضاً:

ما لي أجيء إلى الزيارة دائماً فيُقال لي: سر، إنه مشغول
حتى لقد حدثت نفسي أنني فيما يقول القائلون الغول

رأيته بعد وفاته في النوم وتحققت وفاته.

فقلت: يا أبا البركات، أخبرني ما صَنَع الله بك؟ فرأيته كأنه كره العلم مني بموته، فتغير عند ذلك.

فقلت: بالله عليك أخبرني.

فقال لي: والله ما لقيت من الله إلا خيراً.

فقلت: والله لا بدَّ، وكان في ذهني ما كان يحكيه في شبوبيته، وأيام ما كان فيه من التخليط الذي نحن فيه من قراءة الأسباع والربعات والدروس وتناول الصرر.

وقلت: من حاله كذلك لا يسلم من تباعة، ولو بالسؤال عن ذلك.

فقال لي: والله ولا شيء. فأعدت عليه ثلاث مراتٍ، فقبض على شيء يسير من جلد ظاهر كفه بأسنانه. وقال: والله ولا مثل هذه.

فأوقع الله في ذهني أنه في دار الحق وأنه لم يقل إلا حقاً. فبكيت وأردت أن أسأله عن حاله، ثم أنسيت.

وقلت له: أنت صاحبي فلا تنساني واشفع لي.

توفي رحمه الله في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة، ومولده سنة تسع وخمسين وستمائة.

وكان من المشايخ الأجلاء مشايخ الغرب المجولين المسافرين، الشيخ علي بن فرغوص التلمساني[1] رحمه الله. كان له حال عجيب جليل ومقام عظيم، له رحلة طاف فيها كثيراً من بلاد المشرق والمغرب، واستفاد علوماً جليلة من علم الحرف، وأسرار الطلاسم والتربيعات، وعلم السيمياء والكيمياء والروحانيات. وجميع ما تأخذ معه فيه تجد عنده منه طرفاً جيداً، وكان يحكي في مجلسه غرائب ونوادر.

انعطف عليه المجاورون وجميع أهل المدينة وكبار الدولة ووزرائها، وكذلك أهل مكة بأجمعها، وكان يمشي طريق المشيان مع جماعته فلا يقطعها إلا في شهر، لأن العرب كلها صارت تعرفه وتحبه وتعزم عليه، فكان يجعل سفره سياحة، وله مناقب جليلة ومحاسن جميلة لا يسوغ ذكرها هنا، رحمة الله عليه.

وكان من إخواننا الأصفياء الأتقياء المتعبدين المتفقهين الشيخ محمد الهزميري، دخل المدينة وأقام بها مدة طويلة لا يعيش إلا من الحطب، يأتي بالحزمة فيبيعها ويتقوت بثمنها، ثم انتقل إلى قدم التوكل فصحب الشيخ أبا بكر الشيرازي[2]، فكان يأخذ نفسه بالمجاهدة والعبادة وقيام الليل، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان في المسجد الشريف فلا يخرج من معتكفه حتى تتورم قدماه وساقاه، وكان هو والشيخ أبو بكر يتقوتون في كل ليلة بعشر زبيبات، كل واحد خمس زبيبات وأوقات يطويان، حتى إنهما إذا خرجا من معتكفهما لا يعرفان من النحول والذبول، ثم إن الشيخ أحمد

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٩١ (٣٠٦٢)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) تقدمت ترجمته.

التستري زوَّجه ابنته، فلم يقم معها فطلقها وتزوج أخت الفقيه محمد بن صالح[1] نائب الخطابة والإمامة، فرزق منها ولداً صالحاً قارئاً متفقهاً. مات رحمه الله في طريق مكة بوادي الصفراء محرماً بالحج في سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة.

وكان من إخواننا المتّقين الصلحاء المتعبدين الموسوسين في العبادة الشيخ أسعد الرومي[2]، كان من كبار الأخيار، ذا عزلة واجتهاد، وقرأ معنا في سبع ابن سلعوس، فكان يتبع الحروف ويرجع من حيث أوقفه النفس حتى لا يخل بشيء من القراءة، وكان متعوباً في غسله ووضوءه، فلما توفي غسله الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي وطيبه بأطيب الطيب وجهزه أحسن جهاز. توفي بالمدرسة الشهابية رحمة الله عليه.

وكان من المشايخ الكبار المشتغلين بالعلم والعمل أبو عبد الله محمد التكروري الخطيب[3]، كان خطيب بلد سلطان التكرور وهي بلد مالي، وكان خطيب التكرور هذا على طريقة عظيمة من الدين والعلم والبر والصدقة، وتفقد الإخوان وصحبة العلماء وتفقدهم، وتعظيمهم ومحبة أولادهم. وكان رحمه الله فوق ما أصف، ولما توفي جاء الحفارون إلى جهة قبر سيدي عثمان بن عفان رضي الله عنه، فحفروا له في موضع معمور بالأموات منذ كانت المقبرة فانكشف لهم قبر تحت الأرض معقود فيه دكة وهو نظيف كأنه مكنوس كنساً، فوضع فيه كأنه بيت نزيل فيه، وتوفي رحمه الله سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

وكان من المشايخ الصلحاء القدماء في المجاورة بالحرمين الشريفين، أبو فارس عبد العزيز بن زكنون التونسي[4] ـ رحمه الله ـ، كان رحمه الله

---

(١) هو: محمد بن صالح بن إسماعيل الكناني.

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٧٦ (٤٣٩)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٠٤ (٣٨٨٤)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٨٧ (١٣٠٦).

(٤) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٨٠؛ ٢٦٢٨)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٦٩ (٢٤٢٩).

فاضلاً في علم القراءات، متقناً في التاريخ مجتهداً في العبادة، ساكناً محباً في السلامة من الناس ولا يكاد يسلم. قرأ عليه من أولاد المجاورين جماعة كشمس الدين الحليمي وشمس الدين الششتري وطبقتهم، ويقال عنه إنه صحب ابن سبعين، وكان من أحبابنا ولم أر عليه ما يشينه في دينه. اشترى نخيلات وأوقفها، آل أمرها إلى الخراب حتى إنه لا يكاد اليوم أحد يعرفها. توفي رحمه الله في سنة ست وأربعين وسبعمائة.

وكان من أكابر المجاورين المتأخرين أصحاب المجاهدة والصبر العظيم على مشقة العبادة والعزلة عن الناس، شمس الدين[1] الخوجندي[*] رحمه الله، كان يسكن بالكِرا خوفاً من مساكنة أهل الرباط، وكان يعمل أربعينيات يعتزل فيها عن الناس وكلامهم، ويأكل فيها اليسير من الطعام ولا يقتلع الصلاة في المسجد الشريف، بل يجعل على رأسه ما يغطي به وجهه ويمنعه من الاشتغال بالنظر إلى ما يشغله، ويأتي إلى الروضة في الصف الأول فيصلي ثم يرجع في الحين إلى بيته، فلا يزال في صلاة وذكر ودعاء.

أخبرني الفقيه سراج الدين عبد اللطيف ابن العلامة شمس الدين محمد الزرندي ـ وكان جاره وداره تطل على دار الشيخ ـ قال: لا أقوم في ساعة من الليل إلا وأسمعه بين ذكر وقراءة ودعاء واستغفار مع بكاء وعويل، وكان قد بورك له في الطعام.

أخبرني الشيخ شمس الدين الحليمي ـ رحمه الله ـ قال: أعطاني الشيخ صاعاً من الدقيق.

وقال: اعمل منه رشيدة وأرسل لي كل ليلة منها بحفنة مطبوخة.

قال: ففعلت واستمر على ذلك مدة، ثم قال: اعمل لي منه كل ليلة قرصاً. ففعلت مدة.

ثم قال: اعمل منه في كل ليلة جمعة قصعة طعام للفقراء، ففعلت. وكان كل ليلة جمعة يجتمع عنده الفقراء فيذكرون إلى أن يذهب جزء كبير

(١) هو: محمد بن عبد الله الخجندي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٠٤ (٣٨٨٣)، «الدرر الكامنة» ٤/ ٣١٨ (٨٦٠)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٢/أ.
(*) في الأصول الخطية: «الخوجندي»، وفي مصادر الترجمة: «الخجندي».

الليل، ويقدم لهم ذلك الطعام الذي لا يظن أنه يكفي ثلاثة فيأكل منه فوق العشرين. قال محمد[1] المذكور: ولا نزال ننفق مما يعطينا حتى نمل ثم نأخذ الفضلة بعد ذلك.

وأخبرني بذلك جماعة من أهل الخير ممن يعرف حاله قالوا كلهم: لم نر قط مثل بركة طعامه، وكان يتواجد في الذكر ويقوم ويدور في الحلقة فيجد الجماعة منه قوة وصلابة يعجز عنها أقوياء الشباب، بحيث إن الجماعة يملون ولا يمل، ومتى مسك على أحد منهم أتعبه، وكان قد أسن وكبر، وكنت أحضر عنده أحياناً. وكان له وجه وضيء عليه نور العبادة والخير، وله لحية طويلة مليحة تبلغ إلى سرته، ومات رحمه الله عن وصية وتثبتٍ وصدقة بجميع ما يملكه حتى بفراشه من تحته. توفي رحمه الله سنة أربع وستين وسبعمائة.

وكان ممن أدركناه من الأكابر الصلحاء المتقدمين في عمارة الحرم بالنجارة، الشيخ أبو بكر بن يوسف[2] المعروف بالمحجوب النجار، قدم المدينة بعد حريق الحرم بالمنبر الشريف المُوجُود اليوم فوضعه فأحسن وضعه وفي نجارته، وكتب اسمه عليه، وذلك في سنة ست وستين وستمائة، ثم انقطع بالمدينة إلى أن توفي بها رحمه الله، كان مختلطاً بالصالحين متقنعاً بكسب يده، متعففاً عن الأطماع المُدنِّسة للأعراض، مُكباً على الخير.

كنت أجلس إليه فيحكي عن أهل زمانه غرائب وعجائب، وكنت لا أزال أرى حوله عدداً من الحيوان بين هِرَرٍ ودواب قد ألفوه بالإحسان إليهم، وكان يقول: هذا الهِر جدُّ هذا الهرِ، وهذا خال هذا، وهذا ابن عمِّ هذا. قد ربَّى منهم كثيراً وعرف أنسابهم، وكان يحسن إلى الدواب المضيعة في الأسواق ويرى ذلك كله من جملة الصدقات، وربما يتمثل في ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «**في كل ذات كبدٍ حَرّاء أجر**»[3].

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن يوسف الحليمي المتقدم.

(٢) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ١/ ٤٦٩ (١٢٦٤)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٣١/أ، وفيه ذكر باسم: «أبو بكر بن أحمد البخاري».

(٣) «المسند» للإمام أحمد ٤/ ١٧٥ (١٧١٣٤).

أخبرني الشيخ عبد الله بن عمر الخراز ـ وكان حفيد الشيخ أبي
كر ابن بنته عائشة ـ قال: قال لي الشيخ أبو بكر: لما قدمت المدينة لم
كن بها من يتسمى بهذا الاسم، فظهر لي كراهة أهل المدينة مع ما انضاف
ى ذلك من تسمية بنتي عائشة، فهممت بتغيير اسمي.

قال: فرأيت سيدنا رسول الله ﷺ فقال لي: لَمَ تُغيِّر اسمك؟

فقلت له: يا رسول الله إجلالاً لصاحبك رضي الله عنه.

فقال: لا تفعل، انظر إلى هؤلاء الذين تخشى منهم، وأشار إلى آخر
حرم. قال: فنظرت فإذا بسبعين شخصاً أعرفهم من أهل المدينة وجوههم
جوه بني آدم وباقي أجسامهم على صفة الخنازير.

ثم قال لي ﷺ: خذ هذه العصا وأخرجهم من المدينة.

قال: فقلت يا رسول الله أحبُّ أن أُعمَّر حتى أدفنهم.

فقال: ستعيش بعدهم. قال: فانتبهت وأنا مسرور وانصرف عني ذلك
خاطر، وصاروا ينقرضُون طبقة بعد طبقة.

قال: وكنت إذا جئت إلى جماعة الخرازين يقولون: كم بقي من
رمائك؟ فأقول: عشرين، عشرة، خمسة، حتى انقرضوا عن آخرهم في
حياتي. وعاش مئة سنة ونيفاً تغمده الله برحمته.

وكان من المشايخ العلماء الورعين المتنسكين المبرزين في الخير،
شيخ إبراهيم التلمساني الشافعي[1] أقام في المدينة على أحسن طريقة، لا
شبهه أحد في العزلة والانقطاع عن الناس، عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه،
قبلاً على شأنه، متحرزاً من إخوانه، ملازماً لأواخر المسجد يشتغل في
ذهبه طول نهاره، ولا يدخل بيته إلا وقت الوضوء، ولا يأتيه أحد إلا من
تبرك به ويرتجيه، انتفع به الطلبة وتخرج عليه جماعة فظهروا نُجباء عُلماء

---

(١) هو: العلامة الرباني الخاشع الناسك، البرهان إبراهيم بن رجب بن حماد الرواشي الكلابي التلمساني الشافعي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/٦٩٠ (٤١)، «الدرر الكامنة» ١/٧٩ (٢١٣)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٥/أ. ذكرت المصادر المطبوع نسبته: «السلماني» بدلاً من: «التلمساني»، وما أثبت حسب ما ورد في الأصول الخطية للكتاب و«المغانم المطابة».

اخترمتهم المنية شُبّاناً، منهم ولدا الشيخ أحمد الشويكي[1] وكانت أمهما زوجة الشيخ، وكانت زوجة صالحة، ومنهم صفي الدين ابن الشيخ محمد الكازروني[2]، وانتفع به أيضاً الفقيه عبد السلام[3] أخو صفي الدين، وعبد القادر الحجار[4] وغيرهم، وكانت له نية صالحة ينتفع بها من يشتغل عليه ويحسن ظنه فيه، وكان مع هذه العزلة العظيمة والانفراد عن الخليقة يُؤذى بأنواع من الكلام.

ولكن صدق القائل:

ومن الذي ينجو من الناس سالماً ... وللناس قيل بالظنون وقَالُ

فكانوا يرون أنه يقول بالجهة ويشيعون عنه ذلك، ولم أسمع منه ما يدل على ذلك، وكان صفي الدين الكازروني ممن لا يخفى عني حاله، وكان يثني عليه ثناءً كثيراً، وينكر أن يكون له اعتقاد يخالف اعتقاد إمامه الشافعي رضي الله عنه، وكان إذا بلغه ما يقال عنه لا يعاتب قائله، بل ولا يتكلم في عرضه بشيء. وكان لسان حاله ينشد:

دع الناس ما شاؤوا يقولون إنني ... لأكثرِ ما يحكى عليَّ حمولُ
فما كل من أغضبته أنا معتِبٌ ... ولا كلُّ ما يروى عليَّ أقولُ

كان له كتب جليلة في الفقه والأصول والحديث واللغة وغير ذلك، أوقف أكثرها بمكة المشرفة ووقف بعضها بالمدرسة الشهابية، وأعتق عبداً ورباه وأحسن إليه. توفي رحمه الله في سنة خمس وخمسين وسبعمائة.

كان من أصحابه وأحبابه الشيخ علي السخاوي من الفقراءالجياد الملازمين للروضة المشرفة، كان فيه تأنيس كثير لأصحابه ودعاء عظيم

---

(١) هو: أحمد الشويكي الشافعي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦١ (٣٤٩).
(٢) هو: أحمد بن محمد بن أحمد الكازروني الشافعي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٥٤ (٣٠٦).
(٣) هو: عبد السلام بن أحمد بن محمد الكازروني الشافعي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٧٣ (٢٦٠٧).
(٤) هو: عبد القادر بن محمد بن علي القرشي العمري المدني، ويعرف بالحجار. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٩٥ (٢٦٨١)، «إنباء الغمر» ٣/ ٣٥١.

لإخوانه، كنت إذا جئت الصف الأول ولم أجد لي فيه مدخلاً يفسح لي ويعزم عليَّ ويقول:

سم الخياط مع المحبوب ميدان[1] . . . .

وكان لي من الإخوان الفقيه الفاضل العابد الورع الزاهد شمس الدين محمد بن يوسف الحليمي[2] رحمه الله، كان فيه من الخير والصلاح والعزلة عن الناس ما لا مزيد عليه، وكان من الأولياء الأكياس، ومن الناس الذين هم الناس، وكان فاضلاً في مذهب أبي حنيفة مشاركاً في عدة علوم.

رحل إلى دمشق في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، واشتغل على الشيخ علاء الدين القونوي فآثره الشيخ على غيره، واعتنى به وتفرس فيه الخير، فرجع وقد حصّل واستفاد، وكان إذا جلس في مجلس تكلم وأفاد، فَقدتُ من دعاويه وأنسه وولايته ونصيحته ما لم أفقده من أحد من الأصحاب، كان ساكناً جواري حتى مات رحمه الله، فلم أر منه غير الخير والمودة والمحبة في الغيبة والحضر.

كان يقول لي: والله ما وقفت تجاه الحجرة المشرفة ودعوت لنفسي إلا دعوت لك، ولا ختمت ختمة إلا دعوت لك بَدأها وآخرها، وكان يقول: من شدة المودة أسأل الله تعالى أن لا يريني لك يوماً أكرهه وأن يجعل يومي قبل يومك.

وعلى الجملة فكان من إخوان الصفاء وأهل الوفاء ليس من الإخوان الذين قال فيهم:

وإن من الإخوان إخوان نعمة ... وإخوان حيَّاك الإله ومَرحَبا
وإخوان كيف الحال والأهل كلهم ... وذلك لا يسوى نَقِيراً مُتَرّبا

وما أشبه الناس اليوم في توادهم وتصافيهم بقول القائل:

دهرنا دهر افتراق ... ليس ذا دهر التلاقي

---

(1) هذا شطر البيت الشعري:

سَم الخياط مع الأحباب ميدان ... خُضر الجنان مع الأعداء نيران

(2) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/٣١٦ (٨٥٤).

قــلَّ مــا يــلــقــاك إلا ... بــســلام واعــتــنــاق
فــإذا ولَّــيــتَ عــنــه ... ثُــبــتَ مــنــه بــالــطــلاق

نسأل الله تعالى العافية، وأن يذهب عنا التدابر والتحاسد والتباغض بمنّه وكرمه.

ومن أعظم حسناته ـ رحمة الله عليه ـ تربيته لأولاد الشيخ الصالح محمود العجمي الذي تقدم ذكره في ترجمة الشيخ أبي محمد البسكري، وكان قد تزوج أختهم لأبيهم في حياة الشيخ محمود، وكانت وفاته رحمة الله عليه سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. فلما توفيت والدتهم لم يبق لهم أحد يكفلهم وكانوا صغاراً فكفلهم وضمهم إلى عياله، وهم عبد الرحمن(١) وعبد الرحيم(٢) وعبد اللطيف(٣) فأقرأهم القرآن حتى حفظوا، ثم شغلهم بمذهب أبي حنيفة، وكان أبوهم شافعيّ المذهب، وتولى شمس الدين رحمه الله تقرئتهم وتعليمهم العلم بنفسه.

وأخبرنا ـ رحمه الله ـ أنه جمع ما ورثوه من والدهم، ووالدتهم من الأثاث فباعه، فكان مبلغه ثمانمائة درهم، فكان ينفقهم من بعضها ويتّجر لهم ببعضها، ولم يزل ينميها لهم ويوفِّرها عليهم، ويتورع في مالهم حتى بلغ مالهم عشرة آلاف درهم، وكان إذا فضل شيء من غدائهم وعشائهم يأمر بجمعه وحفظه حتى يجتمع منه كِسراً يابسة، فيجعلها لهم غداً مثل البقسماط المثرود، ويجمع فصي تمرهم الذي يأكلونه، فإذا اجتمع باعه وصرف ثمنه في مصالحهم.

وبلغنا أنه كان إذا أُهِلّ الهلال يكتال نفقتهم، فقيل له في ذلك فقال: أخاف أن يتعلق شيء في الصاع من حبّهم فيختلط بحبنا.

فانظر إلى هذا الورع ما أحسنه وإلى ديانته وصبره ومروءته ما أحسنها!!.

وكان رحمه الله عفيف النفس عن التشوف للصدقات الواردة للمجاورين،

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٥٣ (٢٥٤٣).
(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٦٩ (٢٥٩٧).
(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٠٥ (٢٧٠٥).

قليل السعي في الوظائف، متقنعاً باليسير من الدنيا، مظهراً للتجمل في ملبسه وحال أولاده وعياله، من أعقل الناس وأكثرهم نصحاً وأحزمهم رأياً، مخالطاً للناس مبايناً لهم، لا يخوض معهم في شيء مما تختشى عاقبته من أمور الدارين، ولا يذكر أحداً بغيبة، فإن ذكرت بحضرته أنكر أشد الإنكار، وإن سمعها من ذي حرمة التمس للمقول فيه عذراً ومخلصاً، وكان من أحسن الناس خُلُقاً وأكثرهم فكاهة في حق وأحسنهم هَدْياً. وبالجملة فكان حسنة زمانه، ونادرة إخوانه. توفي رحمه الله في سنة ست وستين وسبعمائة.

وهو خال صاحبنا في الله تعالى الفقيه العالم العامل الورع الزاهد شمس الدين محمد بن محمد بن يحيى الخشبي(١) ذي النفس الزكية، والأخلاق الرضية، والطريقة المرضية، اشتغل بالفقه على مذهب أبي حنيفة وشارك في علوم عديدة وأتقنها، ثم أكبَّ على الإفادة والاشتغال ونشر العلم طول نهاره، وصحب الشيخ العالم الرباني شيخ وقته وبركة عصره الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي نفع الله به.

وصحب الشيخ موسى الغزاوي والشيخ سليمان الونشريسي وخلائق لا يحصون كَثرة فاكتسب من أخلاقهم وتأدب بآدابهم وسار على هديهم. وهو اليوم أحد المؤذنين بالحرم الشريف النبوي، وليس فيهم - بل ولا في المدينة اليوم - مَنْ يعلم علم الميقات مثله، وكان قد رباه والده محمد بن يحيى، وأنشأه الشيخ محمد بن إبراهيم المتقدم ذكره، وأصله من العبابيه فرقة كبيرة من أولاد المدينة منهم يوسف الشربشير شيخ الشيعة وفقيهم، وكان جدهم مغربياً سنياً، تزوج من بنات المدينة ومات عن أولاد صغار، فنشأوا في مذهب أمهم، ثم كثروا وانتشروا وتمذهبوا بمذهب الشيعة وغلوا فيه.

وكذلك الفرقة المعروفون بالمزاتيين أبوهم أيضاً من الغرب وهم طائفة كبيرة، وكان الشيخ محمد بن يحيى رجلاً صالحاً متصوفاً متعبداً مشتغلاً بالعلم مؤذناً بالحرم الشريف، استنقذه الله من تلك الطائفة وكان شافعياً أشعرياً متيقظاً في دينه، وإنما اشتغل ولده بمذهب أبي حنيفة لأن والده

---

(١) ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٢٤٧ (٦٦٩).

رحمه الله توفي في سنة خمس عشرة وسبعمائة وخلفه صغيراً، وكان مولده في آخر سنة ثلاث عشرة. فَقُدِّرَ أن الشيخ محمد بن داود[١] تزوج والدته وكان شافعي المذهب، فلما قدم الشيخ شمس الدين ابن العجمي المدينة وأسس قواعد المذهب فيها أمر ابن داود وشمس الدين الخشبي وشمس الدين الحليمي بالاشتغال عليه، ففعلا وكثرت الحنفية بالمدينة ببركتهما، ورزق شمس الدين الخشبي أولاداً نجباء قرة أعين نشؤوا على طريقة والدهم وفقهم الله تعالى.

وخلف الشيخ محمد بن داود ولد وليّ الدين، ارتحل إلى دمشق صغيراً فلزم خدمة العَلَم العالم الشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي، ثم صحب ولده الإمام العلامة قاضي القضاة تاج الدين فسعد بصحبتهما ورأس في دمشق ببركتهما.

وكان من إخواننا الفقيه الأجل العالم العامل المتفنن بهاء الدين عمر بن محمد الهندي الحنفي[٢]، كان من إخواننا الكبار، وأصحابنا الأخيار، كان منقطعاً في الحرم الشريف غالب نهاره للتدريس والإفادة، محباً في الطلبة حريصاً عليهم حتى إنه يبعث للطالب إلى بيته إذا تأخر عن الإتيان، وقرأ عليه بعض الطلبة «الكافية» لابن الحاجب في بيته بالليل حتى أنهاها بحثاً وفحصاً، وكان في علم الأصول والفقه والعربية إمام زمانه، مع حلم وأدب وعقل راجح وحسن خلق. وكان ـ رحمه الله ـ تلحقه حِدَة في البحث ثم يرجع ويستغفر وينصف في المجلس، وكان كثيراً ما يقول: بالله لا تأخذ عليَّ في البحث، فما أراجعك إلا طلباً للاستفادة. وكان عفيفاً عن كل ما يدنس العرض، لم أر أوفى منه في حفظ أصحابه في المغيبة والحضرة.

خرج إلى مكة حاجاً في سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، فرماه بعيره في المحاطب قريباً من مضيق المنحنى فيبست أعضاؤه وبطلت أكثر حركاته،

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٤ (٣٧٥٤).

(٢) هو: عمر بن محمد بن أحمد بن منصور القمطري الهندي الحنفي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٥٢ (٣٣٠٤)، «العقد الثمين» ٦/ ٣٥٤ (٣٠٨٧)، نقلاً عن ابن فرحون.

فحمل إلى مكة وتأخر عن الحج، وودعناه عند توجهنا إلى المدينة فوصانا بوَلديه صدر الدين وأبي عبد الله، ثم لم يقم بعد ذلك إلا قليلاً، وانتقل إلى رحمة الله ورضوانه.

وكان من أصحابنا جماعة مباركين، كانوا إخوة في الله متلائمين، وعلى فعل الخير والاشتغال بالعلم متظاهرين.

منهم الأخوان في الله العاملان العالمان السيدان الشيخ أبو علي الحسن بن عيسى الحاحائي(١)(*)، والشيخ عبد السلام بن سعيد بن عبد الغالب القروي(٢)، كان الشيخ حسن رحمه الله من العلماء الأتقياء الأقوياء في دينهم مع التفنن في علوم عديدة، إماماً في مذهب مالك وفي العربية وأصول الفقه، رُحلة في علم الحساب والفرائض، مشاركاً في اللغة وغيرها، متصدياً للاشتغال، انتفع به الطلبة من جميع المذاهب الأربعة، وكان ساكناً برباط دكالة في حجرة الصالحين، وكان أفضل جماعتنا في الدرس بعد وفاة أخي رحمه الله، وكان حسن الأخلاق مرغباً للطلبة في الاشتغال مع الهيبة العظيمة عليهم. توفي رحمه الله في سنة تسع وأربعين أو في سنة خمسين وسبعمائة.

وأما الشيخ عبد السلام فعاش بعده مدة طويلة، وانتفع به الطلبة المالكية في المذهب، وكان قد جمع إلى العلم الغزير؛ الدين المتين والعقل الراجح، كان في عقله وسكونه وحسن خلقه وجميل معاشرته وسلامة الناس من يده ولسانه بالصبر على الأذى ومقابلة السيئة بالحسنة كقول ابن دريد:

والناسُ ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عنا

وكان قد رأس واشتهر ذكره فلم يزده ذلك إلا خمولاً وانقباضاً، لم أر ولم أسمع منه ما يسوؤني قط، مع الصحبة الطويلة والملازمة العظيمة في

(*) في جميع النسخ: «الحاجاني»، والتصويب من «التحفة اللطيفة» و«المغانم المطابة».

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٨٥ (٩٤١)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٩/ب.

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٧١ (٢٦٠٤)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٦٦، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٨/أ.

الدرس وغيرها، وكان يتأدب معي في الدرس كأصغر الطلبة، يقع بيني وبينه في الدرس خروجاً من حسن خلقه، وكان شيخاً مليح الشكالة، حسن السمت حيياً وقوراً شفوقاً، وكان قد صحب الشيخ أبا هادي شيخ وقته وفريد دهره، مناقبه أشهر من أن تذكر، ومحاسنه لا تعد ولا تحصر، رحمة الله عليه.

وكان الشيخ عبد السلام عنده مقدماً على أصحابه القراء والمشتغلين بالعلم، وكان الشيخ أبو الطيب يقول في حقه: من أراد أن ينظر إلى من يقدر على مساكنة الحية في جحرها فيَسلم منها وتسلم منه، فلينظر إلى الشيخ عبد السلام بن غلاب رحمة الله عليهما.

وكان الشيخ أبو هادي قد جاور عندنا في حدود خمس وعشرين وسبعمائة، فأنزلته عندي وكنت أواليه وأخدمه، وكان منفرداً عن التلامذة والأتباع، وكان أكثر عبادته التفكر، وكان مسكني يشرف على مسكنه، فكان يعبد الله بالفكرة فغالب ما كنت أراه رافعاً بصره إلى السماء مستغرقاً بجميع حواسه في الفكرة، وحصل لي بصحبته خيرٌ كثير.

ولما قدم الشيخ عبد السلام إلى المدينة أقام بالمدرسة الشهابية على قدم التجريد مدة سنين، ثم سعى الله له في الزواج على يد الشيخ الصالح خادم الفقراء الشريف أبي القاسم المهدوي فزوجه بابنة الشيخ يحيى التونسي المتقدم ذكره، وكانت أختها تحت الشريف، وكان الشريف خادم الفقراء عند الشيخ أبي هادي ومن هناك تأكدت الأخوة بينهما. وكان الشريف ذا همة ومروءة وخدمة للفقراء ومحبة في الصالحين. توفي في ذي الحجة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة ووصى على أولاده الشيخ عبد السلام فخلفه فيهم بأحسن الخلافة، وكانت وفاة الشيخ عبد السلام في أوائل سنة ست وستين وسبعمائة.

وكان من قدماء الطلبة الشيخ قاسم السلاوي[1] كان من إخواننا الفضلاء العلماء الأكياس، وكان يحضر الدرس عند والدي رحمه الله، وكان

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٨٠ (٣٤٦٣)، نقلاً عن ابن فرحون.

من النجباء المتفننين ماهراً في علم الفرائض، نقالاً للفروع. وكان من الزعماء الذين تركوا شهامتهم وقوة بطشهم في بلادهم وهاجر إلى الله ورسوله، وكان فقيراً ضيق الحال.

وكان مقدماً في العلم والتعليم مُعَلّمُنا الشيخ محمد السبتي(١)، كان بلا شك من المحدثين، وكان من قدماء المجاورين، وله على أولاد المجاورين بل وأهل المدينة يد طولى ومنةٌ عظيمة في تعليمهم القرآن، إن قلت: إنه لم ينجب أحد من الأولاد في زمانه على يد غيره من المعلّمين فلست من الكذابين!! وكان في كُتّابه فجعل العرفاء فوق مَنْ دونهم، وقدَّم على كل طائفة واحداً منهم، وانتظم له سلك التعليم أكثره بالتخويف والتهديد، وكانت له فراسة عظيمة في الوِلْدَان حتى إنه ليقول للواحد منهم: أنت كنت في مكان كذا، وفعلت كذا وكذا، فيكون ذلك حقاً!! وكان يُهاب في غيبته أكثر من حضوره.

ومما جرى لنا يوماً معه أن الطواشي شفيعاً الكرموني جاء إليه يوماً فقال له: إنَّ عُمار الحرم قد فقدوا مُرَبّعة خشب مدهونة يكون قدرها ذراعاً في ذراع، وما نظن أخذها إلا بعض الأولاد. فقال: اذهب فستأتيك إن شاء الله.

ثم قال لنا: اقرأوا وارفعوا أصواتكم، ففعلنا.

ثم قال لنا: اسكتوا فسكتنا.

فقال: قم يا حسين فأت بالمربعة. فقال: ما أخذتها وجعل يبكي.

فقال له: أقرا على حالك. ثم دعا بعض الأولاد.

وقال له: امض إلى بيته وقل لأهله: حسين يقول لكم: ابعثوا لي المربّعة التي أتيتكم بها البارحة. فما كان إلا قليلاً إذ جاء بها وهو ينظر فبهت فضربه، ثم أمر بجميع الصبيان فضربوه، وكانت فراسته قلّ أن تخطئ.

---

(١) هو: محمد بن عبد الله السبتي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٠٥ (٣٨٨٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

وكان يقول للصبيان: أنت تكون ظالماً، وأنت تكون فقيهاً. فما يتعدَّى أحد منهم فيما علمتُ ما توسم فيه، وكان يعزم على الجان ويستحضرهم، وكان حجابه مشهوراً بالنفع يأخذ ورقة على طول المصروع فيكتبها له ويعلّقها عليه فيبرأ من حينه، ولم يزل كذلك حتى أفلجوا بنته، وكانت تزحف ثم انطلق نصفها الأيمن وبقيت كذلك حتى توفيت، ولم يرجع عن حاله معهم حتى أفلجوه هو أيضاً.

أصبح ذات يوم قد صرع في وسط داره وقد بطل كله، فرأيته بعد العزة والقوة يمشي في الأسواق يزحف وقد نفر عنه مَنْ كان يعرفه، وصار من الحاجة والقلة بحيث إنه يسأل ويطلب فلا ينظر إليه ابتلاءً من الله تعالى، نسأل الله العافية. وبقي على ذلك سنين متعللاً حتى توفي رحمه الله، وولد ولده مهدي اليوم مقيم بالسوارقية توفي في حدود عشرين وسبعمائة.

وكان ممن صحبته في الله تعالى الشيخ عثمان التكروري[(١)]، والشيخ إلياس[(٢)]، والشيخ صالح بن عمر الحاجاني[(٣)]، والشيخ محمد التلمساني[(٤)]، والشيخ إبراهيم المكْناسي[(٥)]، والشيخ أبو محمد البسكري[(٦)]، والأخوان الصالحان علي[(٧)] ومحمد السلاويان.

فأما الشيخ عثمان فكان من الأخيار الصالحين المشتغلين بالعلم، خرج من المدينة في أثناء السنة يريد القدس الشريف هو وجماعة معه، فهلكوا بالعطش في الطريق ومات عن غير عقب، رحمه الله.

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٥٣ (٢٩٤١)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) هو: إلياس بن عبد الله المغربي المالكي. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٩٥ (٥٢٩)، نقلاً عن ابن فرحون، «المغانم المطابة» الورقة ٢٣١/ب.

(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٥١ (١٧٧٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٤) لم أجد له ترجمة.

(٥) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٩٤ (١٥٤)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٢/أ.

(٦) هو: أبو محمد عبد الله بن عمر البسكري. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٦٦ (٢١٨١)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٥٠/أ، «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٨٠ (٢١٨٦).

(٧) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٨ (٣١٠٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

وأما الشيخ إلياس فكان من الأخيار المعدودين، كان في سلامة القلب وحسن السيرة والتفرد عن الخلق على قدم عظيم، قرأ على الشيخ أبي عبد الله القصري، وكان من أكابر أصحابه وممن انتفع به، وكان موته فجأة. وذلك أنه خرج يوماً إلى البقيع فزار أهله وسلّم عليهم، ثم رجع فما بات إلا معهم، رحمه الله تعالى.

وأما الشيخ صالح فكان من أخواننا وأصحابنا القدماء، وكان ممن توسط حاله بين التصرف في أمور الدنيا والآخرة، وكان سعيه في معيشته بتعفف وديانة، وكان من أحسن الناس خلقاً وأرعاهم صحبة، كثير التلاوة لكتاب الله تعالى، توفي عن عقب صالح مباركين مشتغلين بالعلم، فأما أكبرهم فحبب إليه التغرّب فاستقر بالقاهرة، ومات عبد الرحمن[1] غريباً شهيداً، وكان قد حصل واشتغل وسمع كثيراً تغمده الله برحمته، وأقام بالمدينة سراج الدين عمر[2] فاشتغل بالفقه والحديث، وقرأ القراءات السَّبْع على الشيخ محمد بن صالح المتقدم ذكره وانتفع به ولزم الخير وأهله. وكانت وفاة والدهم في طريق مكة المشرفة محرماً بالحج بالمفازة التي بين بدر ورابغ، وذلك في سنة أربع وأربعين وسبعمائة.

وأما الشيخ محمد التلمساني، فكان من أهل الخير والصلاح، مكباً على الاشتغال بالفقه، وكان خصيصاً بالشيخ العلامة أبي العباس الشاذلي[3] رحمه الله، وكان محباً للعلماء وخدمتهم، طالباً للسلامة والعزلة، قليل السعي في طلب الدنيا، وكان يشتغل بتجليد الكتب وانتفع الناس به في ذلك، خلف ولداً مباركاً نجيباً مشتغلاً بالعلم حصل وانتفع، وقام ببر والده بعد وفاته فخلص ذمته من أشياء كانت عليه ولم يوص بها، فأداها مع عجزه وضعفه، نفعه الله بنيته وأعانه على فعل الخير. وتوفي والده رحمه الله في سنة أربع وخمسين وسبعمائة.

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٣٢ (٢٤٥٥)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٤١ (٣٢٦٠)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٣) هو: أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الشاذلي الفاسي، كان فقيهاً، فاضلاً متقناً، إماماً في أصول الفقه، توفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١١١ (١٩٨)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٣/ ب.

وأما الشيخ إبراهيم المكناسي، فكان والده من أصحاب الشيخ أبي محمد البسكري رحمه الله، وقد تقدم ذكر ذلك، وكان إبراهيم على طريقة حسنة وديانة وعزلة، وكان حافظاً لكتاب الله صيتاً حسن الصوت والأداء، وكان من القراء في سُبع ابن السلعوسي، ومن أحسنهم مراسلة وموافقة للجماعة، وخلف أولاداً قراء نجباء مشتغلين بالعلم، عاشوا بين الناس بعفتهم وعقلهم وصيانتهم، وأعلاهم في ذلك منزلة الفقيه عبد الله[1]، له ورع وديانة واشتغال بالعلم. توفي والدهم رحمه الله في سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

وأما الشيخ أبو عبد الله البسكري فكان من المشايخ الصلحاء الأخيار، مكباً على الاشتغال بالعلم والعمل، كثير العبادة والعزلة. وكان من أعيان جماعتنا في الدرس، وكان هو قارىء الدولة في التهذيب، واشتغل وحصل وكتب بخطه كثيراً وخلف ولداً مباركاً.

وأما الشيخ الصالح أبو الحسن علي وأخوه أبو عبد الله محمد السلاويّان، فكانا على قدم عظيم في العِفَّة والديانة والانقطاع عن الناس، وكان الشيخ علي مشتغلاً بالعلم وله مَحفوظات في فنون من العلم. وكان يشتغل بالخياطة ويتقنع بما يفتح الله تعالى عليه فيها، وكانا على قدم الشيوخ الذين ذكرناهم أولاً، ولهما عقب صالح نشؤوا في عبادة الله تعالى، والاشتغال بالعلم والتبهدل في الطريقة، والعفة وحسن السريرة، والانقطاع عن الناس، وفقهم الله تعالى وأعانهم.

وكان من إخواننا وأصهارنا الشيخ شهاب الدين أحمد بن بالغ المصري[2]، كان من أكرم الناس وأحسنهم خلقاً، وأبذلهم لما في يده، وأحبهم في الاجتماع بالأصحاب ولو غرم عليهم المئين من المال، وكان يسعى في دنياه بتعفيف ودين ورضى بما قدر وقسم، وكان يخدم الشريفة

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٦ (١٩٥٧).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٠٣ (١٧٤)، نقلاً عن ابن فرحون، «المغانم المطابة» الورقة ٢٣١/أ.

زينب زوجة الأمير منصور، فيذهب في وسط السنة إلى العراق ليقبض حوالة كانت لها، ويتسبب لنفسه وينتفع بما يفتح الله تعالى عليه، ويجلس مجاوراً في سكون لا يتكلم إلا بخير، ولا يسعى إلا في خير، حتى يقل ما في يده فيسافر ويسلمه الله تعالى.

ولقد مررت عليه يوماً في الموسم وهو جالس في وسط الحرم وهو ينظر في الناس.

فقلت له: مثلك يجلس في هذا الوقت ولا يسعى في مصالحه والموسم تغتنم أيامه!!

فقال: والله مالي فيه حاجة، ولا معي ما أتعب نفسي فيه. اجلس حتى نتفرج على سعي الناس فيما لا يفيدهم.

قلت له: وما ذاك؟

قال: انظر إلى بعض الناس يدخل من هذا الباب بجد واجتهاد، حتى أقول: هو في جهد عظيم، فإذا وصل إلى الباب الآخر رجع على عقبيه، ثم يذهب إلى الباب الآخر، ثم يرجع.

قال: فقلت له: ما خبرك؟

فقال: مالي هناك شيء أطلبه، غير أن نفسي لا تدعني استقر.

وقلت له يوماً: يا شهاب الدين لم لا تشتري لأولادك داراً ونخلاً، يكون لهم ستراً من بعدك؟ وكانت تحته خالتي الشريفة مباركة بنت الشيخ عبد الواحد الشريف الحسيني.

فقال لي: يكون تحقق أني أعلم أن زوجتي تتزوج من بعدي، وأن ابنتي تتزوج، وأما ولدي فله الله تعالى إن كان شقياً فلا ينفعه ما أتركه، وإن كان سعيداً فلا يضره أن لا أترك له شيئاً.

ثم اشترى لهم داراً ونخلاً، فكان الأمر من بعده كما قال سواء. تزوجت المرأة، ثم تزوجت البنت بأخي علي فسعدت معه، وولدت منه أولاده النجباء.

وأما ولده شمس الدين محمد[1] فلم ينتفع بما تركه له بل انفق جميعهم على بيعه، وسافر ولده إلى البلاد، وفتح الله عليه وتزوج وولد الأولاد، وعاش بغير ما تركه له والده، وكان من أعقل الناس وأحسنهم خَلقاً وخُلُقاً وأجملهم صحبة، وكان قارئاً حسن الصوت، وكان الشيخ شهاب الدين من الشيوخ العارفين الذين في كلامهم عظة للمتعظين. وتوفي شهاب الدين في سنة تسعة عشر وسبعمائة، وتوفي ولده محمد في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، رحمهما الله تعالى.

وكان من إخواننا شمس الدين محمد بن عبد العزيز الجبرتي[2] ـ تقدم ذكر والده في صدر الكتاب ـ وكان شمس الدين على بر وصدقة وإحسان إلى الناس، وإيثار للفقراء، وكان من رؤساء المدينة وأجاويدها، ذا همة عليه ومرؤة سنية، وكان ممن يرجع إليه في الرأي، صحب بعد والده أمراء مصر، وأخصهم به الملك نائب السلطنة، فأحسنوا إليه ووالوه لما وجدوا فيه من الديانة والخدمة وحفظ المودة، وكان يقضي حوائج الناس بما في يده وبما هو عند غيره، يسعى في تحصيله ولو يرهن من حلي عياله كراهة أن يرجع سائله خائباً.

وكان مشهوراً بالذكر الجميل، ووليَ شهادة الحرم الشريف، والنظر على جميع ما يأتيه من الحواصل، وما ينشأ فيه من العمارات، والنظر على الميضأة التي على باب السلام التي أنشأها السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي في سنة ست وثمانين وستمائة.

وكان إليه المرجع في جميع الآراء الصادرة عن شيوخ الحرم الشريف، وملك الأملاك الحفيلة من النخيل والدور، قل من نال من أولاد المجاورين مثله، وخلف أولاداً نجباء، وأعقلهم وأرأسهم ولده الكبير سمّي باسم جده عبد العزيز[3] وباشر وظائف والده، وقام مقامه في الحفاظة والنباهة، والكياسة والمروة، وسياسة الناس ولين الجانب. توفي شمس الدين رحمه الله في سنة خمس وستين وسبعمائة.

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤١٢ (٣٦٠١).
(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٢٥ (٣٩٥٥)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٨٧ (٢٦٥٦).

وكان من قدماء المجاورين وذوي العقل والرأي منهم الشيخ أحمد السقا[1]، كان أول دخوله المدينة يتسبّب بسقي الماء من العين، ثم أغناه الله عن ذلك فعاش بعقله بين الناس، ورأس حتى كان وزير الأشراف، وكان أميناً حافظاً وكان متواضعاً لا يستنكف عن عمل يعود نفعه على نفسه وعياله، وربما خرج إلى البر فيأتي على دابّة بما يحتاج إليه من حشيش وحطب، وغير ذلك.

خلف ذرية صالحة ذكوراً وإناثاً، فمن أولاده علم الدين سليمان[2] رأس بين إخوانه، قارئاً خدوماً للإخوان، تولى نظارة الربط والأوقاف من النخيل وغيرها، فلم يُر أحسن منه قياماً بها من العفة والنصح، وعمر رُبطاً كثيرة كانت قد أشرفت على الخراب، وقل أن يشبهه أحد من أبناء جنسه في حسن طريقته، أعانه الله تعالى.

وكان من أولاد المدينة من نسل المجاورين «المشاكير» جماعة كثرة فضلاء أصلهم من مكة ينتسبون إلى قريش، وكان جدهم اسمُه مشكورٌ، أدركت ولده عبيد مؤذناً بالحرم الشريف، وكان اسمه عبد الرحمن[3]، وكان له إخوة أحدهم حسن بن مشكور[4]، والآخر أحمد بن مشكور[5]، وعلي بن مشكور[6].

فأما عبد الرحمن فخلف محمداً[7] وعلياً[8] ومشكوراً.

وأما نور الدين علي فحاز من المناصب أجلها، وكان من فضلاء

(١) هو: أحمد بن عبد العزيز المدني السقا. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١١٤ (٢٠٢)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) هو: أبو الربيع، سليمان بن أحمد بن عبد العزيز. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤١٦ (١٦١٤).

(٣) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٥٤ (٢٥٤٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٤) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٢٨ (٩٥٥)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٥) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ١٥٦ (٣٢٠)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٦) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠١ (٣٠٨٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٧) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥١٧ (٣٩٢٩)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٨) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٨٨ (٣٠٤٦)، نقلاً عن ابن فرحون.

الشافعية، وولي شهادة الحرم الشريف ووزارة أمير المدينة، وكان كاتباً نحريراً فقيهاً فطناً فهماً، تبتل آخر عمره وأقبل على العبادة والورع حتى لقي الله تعالى، وخلف أولاداً مباركين مشتغلين بالعلم أوسطهم المسمى باسم جده عبد الرحمن[1]، وفقهم الله تعالى.

وأما محمد فقرأ وجود، ورأس وأعقب ولداً نجيباً مشتغلاً بالعلم، مخالطاً للرؤساء، ذا عقل وديانة وحسن مداراة للخلق، وكان غالب المشاكير يتسببون بالعطارة.

توفي عبيد بن مشكور في سنة سبعمائة، وولده محمد في حدود تسع وعشرين وسبعمائة، وولده علي في سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وأخوه مشكور في سنة ثلاث وخمسين، وعمهم حسن في سنة ثلاث وأربعين، وخلف ولداً ارتحل إلى بعض قرى الشام ورأس فيها.

أما علي بن مشكور فخلف ولده يوسف، وانتقلت ذريته إلى وادي الصفراء وهم اليوم بها.

وكان من أولاد المدينة ومشاهير بيوتهم الشكيليون، أصلهم أيضاً من مكة جدهم مسعود النجار أسنَّ حتى اختلط، وكان قد تأثل[2] مالاً من نخيل ودور، وكان زراعاً مبختاً في التجارة، وله ذرية صالحة من الأولاد وأولاد الأولاد كلهم قراء.

انجب أولاده الفقيه حسن[3] خلف أولاداً وأولاد أولاده كلهم قراء، وكان قد اشتغل بالفقه والنحو وشارك في غير ذلك، وكان ولده محمد[4] بن حسن مشتغلاً بالعلم مؤذناً بالحرم الشريف توفي سنة خمسين وسبعمائة. وبقي اليوم ولده أحمد[5] هو من جملة المؤذنين أيضاً ويتلو حسناً في

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٤٢ (٢٤٩٣).

(٢) يعني: اكتسب.

(٣) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٨٧ (٩٥٤)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٤) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧٠ (٣٧٢٩)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٥) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ١٥٦ (٣١٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

الفضيلة ويزيد عليه في أشياء أخوه عبد الله[1]، رأس في زمانه وكان صهر القاضي سراج الدين وكان أسن أولاده محمد بن مسعود، ولد له حميدان[2] وحسين[3].

فأما حميدان فكان قارئاً رئيساً، وولي الحسبة في أيام ودي[4] في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وكان له هيبة وهمة، وحسن سياسة، وكثر ماله وعمر المغسلة من ماله، ولم يطل عمره. توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

وأما حسين فكان قارئاً مُجوّداً حسن الصوت، لم يسمع أصوت منه ولا أحسن قراءة، وغالب الشكيلين كانوا قراء في سُبع ابن السلعوس، وكانوا يتسببون بالعطارة.

وكان من أولاد مسعود الفقيه عليان مشتغلاً بمذهب أبي حنيفة، وكان رجلاً ديناً منعزلاً عن الناس، متسبباً في العطارة وغيرها على طريقة حسنة، ومن إخوته مبارك بن مسعود كان زراعاً على طريقة جده، ولكل منهم عقب صالح مشتغلون بأنفسهم وسد خلتهم متقنعون في دنياهم، رحم الله من خلفهم.

وكان بالمدينة من أهل الخير والصلاح جماعة من البكريّين إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ينتسبون، كانوا أمنة للخدام والمجاورين، لهم حكايات حسنة ومناقب كثيرة، وكانوا يسمون بالخلفان. أبادهم الدهر لم يبق منهم اليوم في المدينة بشر، وارتحل بعضهم إلى مصر فأقاموا بها وتناسلوا فيها. وكان بالمدينة منهم شخص يقال له جمال[5]، وكانت له صورة جميلة، وأفعال جليلة، وكان الشيخ أبو عبد الله القصري إذا رآه يقول: ينبغي أن يتزوج هذا زوجتين وثَلَاث ويعان على ذلك حتى يكون له بالمدينة ذرية بكرية. توفي رحمه الله وخلف بنتاً فتزوجت ثم توفيت رحمهم الله أجمعين.

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٩٢ (٢٢٥٧)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٢) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٠٨ (١٠٦٧)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٣) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٩٧ (٩٩٥)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٤) هو: الشريف ودي بن جماز بن شيحة الحسيني.
(٥) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٤٧ (٧٩٤)، نقلاً عن ابن فرحون.

وكان بالمدينة جماعة من العمريين ينتسبون إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانوا جماعة كثيرة لهم شوكة وحرمة، وكلمة نافذة، وكانوا أهل حشمة وخيل، وعبيد وأتباع، ولهم بالمدينة أملاك عظيمة وكانوا أهل نصرة لأهل السُنّة مختلطين بالمجاورين والخدام، وكانوا حسنة زمانهم وزينة وقتهم، وكان جمال الدين المطري بهم خصيصاً وكان شيخهم علي بن مطرف[1] قتل شهيداً مخنوقاً في المدينة المشرفة. وله قصة يطول شرحها، وذلك في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

كان لنا منهم الأخ الصالح المقري الفقيه الحنفي عزّ الدين حسن بن يعلىٰ العمري[2] رحمه الله، كان في الحقيقة حَسَنة زمانه منهم، منعطفاً على قراءة القرآن، وعلى صحبة الإخوان والنصيحة لهم، والقيام بواجب الشرع والبغض على أهل الشر والبدع، رحمه الله تعالى وغفر له. خلف ذرية صالحة كلهم قرأ القرآن وَجوده واشتغل بالعلم وتبتل له. توفي رحمه الله في سنة ست وسبعمائة.

وكان في المدينة جماعة من ذرية الأنصار، لهم حارة يسكنونها وحدهم منهم: عبد الله الحاذي، كانت جدتي لأمي منهم، وكان الحذاة اسم علم عليهم، وإذا قيل: فلان من الحذاة، علم أنه من ذرية الأنصار، وكانت تحكي عن أيامها وأهلها غرائب من سلامة الباطن والسذاجة والتعفف الذي لم يسمع مثله عن أجدادهم رضي الله عنهم، وكانت قد أسنت وعمرت ممتعة بسمعها وبصرها حتى جاوزت المئة، أو قريباً منها والله أعلم.

أخبرتني عن أخ لها أنه دخل بيته بالمدينة فوجد حية منطوية على بيت الطهارة، فضربها وقتلها فلم يخرج من موضعه حتى سقط سقف البيت عليه فمات. وهذه القضية تشبه قضية الأنصاري التي جرت يوم الخندق في زمن النبي ﷺ.

وكانت قد أدركت النار التي خرجت شرقي المدينة، وكانت تحكي لنا

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠١ (٣٠٨٩)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ٢/ ١٢٩ (٢٩٧).

(٢) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٨٨ (٩٥٦)، نقلاً عن ابن فرحون.

عنها عجائب، وكانت تحدثنا أيضاً عن حريق الحرم الشريف. توفيت رحمها الله في سنة تسع وثلاثين وسبعمائة.

فأما ظهور النار فكان آية عظيمة، فيها تصديق لما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة.

قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببُصرى»**(١).

وقد شرح كثير من الناس أمرها وأرخوا خبرها، وبعضهم يزيد على بعض في وصفها، وسأذكر خلاصة ما قيل في ذلك معتمداً على ما نقله الشيخ الإمام العلامة الحافظ المؤرخ ذو التصانيف المفيدة شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن إسماعيل ـ الشهير بأبي شامة ـ الدمشقي الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ في كتابه (ذيل الروضتين في أخبار الدولتين)، نقله من رسائل وصلت إلى دمشق من المدينة(٢).

فمن ذلك كتاب القاضي شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني(٣) قاضي المدينة يومئذٍ، كتبه إلى بعض أصحابه.

قال: لما كان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة أحد شهور سنة أربع وخمسين وستمائة حدث في المدينة في الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشر مرات. وذكر بعضهم في كتابه أربع عشرة مرة.

قال: والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة الشريفة اضطرب لها المنبر، حتى إنا سمعنا منه صوتاً للحديد الذي فيه.

قلت: وكان المنبر على غير هذه الصفة اليوم، واضطربت قناديل الحرم الشريف.

وزاد القاشاني: ثم في اليوم الثالث وهو يوم الجمعة، زلزلت الأرض

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب خروج النار (٧١١٧)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار (٢٩٠٢).

(٢) انظر «ذيل الروضتين»، ص١٨٩، وما بعدها.

(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٢٨ (١٦٦٩).

زلزلة عظيمة إلى أن اضطرب منام المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، ثم بعد ذلك انقطعت الزلازل وانبجست من الأرض نار عظيمة، كان ابتداؤها مثل مسجد رسول الله ﷺ، ثم تزايدت حتى صارت مثل المدينة العظيمة، وما ظهرت لأهل المدينة إلا ليلة السبت فاشفقوا منها إشفاقاً عظيماً.

قال القاضي سنان: وطلعت إلى الأمير، وكان عزّ الدين منيف بن شيحة، وقلت له: قد أحاط بنا العذاب ارجع إلى الله تعالى؛ فأعتق كل مماليكه، ورد على الناس مظالمهم.

زاد القاشاني: وأبطل المكس.

قال سنان: ثم قلت للأمير: انزل إلى النبي ﷺ، فهبط. وبتنا في المسجد ليلة الجمعة، وليلة السبت ومعنا جميع أهل المدينة، حتى النساء والصغار، ولم يبق أحد في النخيل. حتى جاء إلى الحرم الشريف وبات الناس يتضرعون ويبكون ويصلون، وأحاطوا بالحجرة الشريفة، كاشفين رؤسهم وأقروا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله عزّ وجلّ واستجاروا بنبيه ﷺ، وأخلصوا إلى الله تعالى وتاب كل من في المدينة.

ثم ظهرت النار لها ألْسُنٌ تصعد في السماء أكثر من علو ثلاث منائر، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يصير كالسّحاب الأبيض، وبقيت السماء كالعلقة، والناس في مثل ضوء القمر وألسنة النار حُمر طالعة تظهر في الليل مثل المشاعل، وأيقن الناس بالهلاك، وبقيت على حالها تلتهب التهاباً عظيماً وهي كالجبل العظيم وكالمدينة عرضاً، يخرج من وسطها مُهُود وجبال نيران تصعد في السماء ثم تهوي فيها، ثم تخرج كذلك ثم تعود، وحسه كالرعد، وبقيت كذلك أياماً ثم سالت سيلاً ناراً في وادي احيليين، موضع شرقي المدينة بالحرة، ووراء قريظة على طريق السوارقية مسيرة من الصبح إلى الظهر، وتزايد ذلك السيل من النار وسد الطريق ثم طلع إلى الحرة وهو بحر نار يجري، وفوقه حرة تسير إلى أن قطعت وادي الشظاة وسدت طريق الماء، والحجارة مع النار تتحرك وتسير وهي تأكل الحجارة وتذيبها، ثم صار يخرج من النار حجارة ترمي بها خلفها وأمامها حتىً بنت لها جبلين خلفها وأمامها ولذلك انسد طريق الماء، ولها صوت

عظيم من آخر الليل إلى ضحوة النهار، ثم انحدر ذلك السيل مع وادي الشظاة حتى حاذي جبل أحد، وكادت تقارب حرة العريض، وخاف الناس منها خوفاً عظيماً ووجلت القلوب، ثم سكن قتيرها الذي يلي المدينة وطفيت مما يلي العريض بقدرة الله تعالى.

ورجعت تسير في الشرق، واستمر عظمها وزيادتها في تلك الحرة وهي ترمي بشرر كالقصر وتأكل الأرض والحجارة.

وذكر جمال الدين المطري أن عزّ الدين سنجر[1] أخبره أن الأمير منيف بن شيحه بعثه يكشف خبرها، فقرب منها، فلم يجد لها حراً ولا ألماً وراها تأكل الحجر دون الشجر[2].

وذكر أنه وضع فيها سهماً فوقع فيها النصل ولم يتغير العود، وأنه أدار السهم فاحترق الريش فقط، وقدر طول ذلك الوادي من النار بأربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف قامة. وهو يجري على وجه الأرض، وتخرج منها مَهادٌ وجبال صغار فتسير على الأرض، وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك، فإذا جمد صار أسود وقبل الجمود لونه أحمر، وأما أُمُّ النار الكبيرة فهي جبال نيران حُمر، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة، وكان ضوؤها يرى بمكة المشرفة، والشمس والقمر من يوم طلعت ما يطلعان إلا كاسفان.

قال العلامة أبو شامة: وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من سبب ذلك، إلى أن بلغنا الخبر عن هذه النار، وكل من ذكر هذه النار يقول في آخر كلامه: ولا أقدر أشرح وصفها على الكمال.

وقال سنان في آخر كتابه: وما أقدر أصف عظمها، وما فيها من الأهوال.

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٢٩ (١٦٧١)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) قال المطري في «التعريف»، ص٦١: «... وظهر لي معنى أنها كانت تأكل الحجر، ولا تأكل الشجر، أنها كذلك لتحريم سيدنا رسول الله ﷺ شجر المدينة. فمنعت من أكل شجرها إكراماً له لوجوب طاعته ﷺ على كل مخلوق...» انتهى.

قال القاشاني: وكتبت هذا الكتاب، ولها شهر في مكانها لا تتقدم ولا تتأخر. وذكر جمال الدين المطري أنها بقيت ثلاثة أشهر.

ومما قيل في هذه النار:

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يا رب بأساءُ
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها ... حملاً ونحن بها حقّا أحِقاءُ
زلازل تخشع الصمُّ الصلاب لها ... وكيف يقوى على الزلزال شماءُ
أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت ... عن منظرٍ منه عين الشمس عشواءُ
بحرٌ من النار تجري فوقه سُفنٌ ... من الهضاب لها في الأرض إرساءُ
كأنما فوقه الأجبال طافية ... موج علاه لفرط الهيج غثاءُ
ترمي لها شرراً كالقصر طائشة ... كأنها ديمة تنصبُّ هطلاء
منها تكاثف في الجوِّ الدخانُ إلى ... أن عادت الشمس منه وهي دهماءُ
قد أثرت سفعة في البدر لفحتها ... فالتمّ من بعد ذاك النور ليلاءُ
فيا لها آية من معجزات رسو ... لُ الله يعقلها القوم الألباءُ(1)

وفي هذه السنة أصاب بغداد غرق عظيم، حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثير من البلد، ودخل الماء دار الخلافة وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً، وتلف من خزانة السلاح شيء كثير، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتخرق أزقة بغداد.

وفي السنة الثانية أخذت التتار بغداد، وانقطعت الخلافة من بغداد.

وفي ذلك يقول العلامة أبو شامة:

بعد ست من المئين وخمسين ... لدى أربع جرى في العامِ
نار أرض الحجاز مع حرق ... المسجد مع تغريق دار السلامِ
ثم أخذ التتار بغداد في ... أول عام من بعد ذاك بعام
لم يُعَنْ أهلها وللكفر أعوان ... عليهم يا ضيعة الإسلام

---

(1) انظر تمام القصيدة في «ذيل الروضتين» ص١٩٣.

وانقضت دولة الخلافة منها صار مستعصم بغير اعتصام[1]

وأما حريق المسجد الشريف، فكان من أول ليلة من شهر رمضان من هذه السنة المذكورة، وكانت ليلة الجمعة، وكان ابتداء حريقه من الزاوية الغربية من الشمال، وذلك أن بعض الفراشين دخل إلى خزانة ثَمَّ ومعه نار فعلقت في آلات ثَمَّ وأعجزه طفيها.

ونقل جمال الدين المطري، أنه احترق فيها[2]، ثمّ اتصلت النار في السقف بسُرعة ودبت في السقوف آخذة قبلة، فأعجلت الناس عن قطعها بعد أن نزل الأمير واجتمع معه غالب أهل المدينة، فلم يقدروا على قطعها، وما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد جميعها، ووقع بعض أساطينه، وذاب رصاصها واحترق سقف الحُجرة الشريفة صلى الله على ساكنها وسلّم، ووقع ما وقع منه في الحجرة وعلى القبور الشريفة، وكان ذلك قبل أن ينام الناس، وأصبح الناس يوم الجمعة فعزلوا موضعاً للصلاة.

وكتب بذلك إلى الخليفة المستعصم بالله أبي أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور، فبعث الصناع والآلات على الموسم، وابتدى في عمارته في أول سنة خمس وخمسين وستمائة.

فلما شرعوا في العمارة لم يجترؤا على النزول إلى القبور الشريفة المقدسة ليكنسُوا ما عليها، فكاتبوا الخليفة في ذلك، فلم يرد في ذلك جواباً لاشتغاله بالتتار، واستيلائهم على أعمال بغداد في تلك السنة، فأبقوا ذلك على حاله وعمروا سقف الحجرة وما حولها إلى باب جبريل وإلى القبلة، وسقف الروضة الشريفة إلى المنبر.

ثم كانت وقعة التتار ودخولهم بغداد في شهر المحرم أول سنة ست وخمسين، فقتل الخليفة المذكور.

ثم وصلت الآلات من مصر فعمروا بها، وكان المتولي عليها الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك الصالحي، ووصل أيضاً

---

(١) انظر تمام القصيدة في «ذيل الروضتين» ص١٩٤.

(٢) يعني ذاك الخادم.

من صاحب اليمن آلات وأخشاب، وهو الملك المظفر، وعمل منبراً وأرسله في سنة ست وخمسين، ولم يزل يخطب عليه إلى سنة ست وستين وستمائة، فأمر الملك الظاهر بإزالته فأرسل هذا المنبر الموجود الآن، وقد تقدم ذكره مع الشيخ أبي بكر النجار الذي وضع هذا المنبر الشريف مع صناع معه.

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة تولى ملك مصر والشام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي، فكمل في أيامه المسجد الشريف على ما كان عليه قبل الحريق، رحمة الله عليه، وكان ابتداء العمارة في سنة ثلاث وستين، ففرغ في أربع وستين.

وأنشد الإمام العلامة أبو شامة لبعضهم(١):

لم يحترق حرمُ النبي لحادثٍ يُخشى عليه ولا دهاه العارُ
لكنما أيدي الروافض لامست ذاك الجنابَ فطهرته النارُ

وسأذكر طرفاً من وقعة التتار إذا تكرَّر ذكرها استطراداً، وتلخيص ما وقع: أن وزير المستعصم مؤيد الدين محمد بن محمد بن العلقمي الرافضي كان بينه وبين أبي بكر بن المستعصم والد بكر عداوة عظيمة لأذيتهما لإخوانه الرافضة، ونهب محلتهم المسماة بالكرخ، فكاتبَ التتار وحرضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على الرافضة من النهب والخزي، فظن المخذولُ أن الأمر يتم له، وأنه يقيم خليفة علوياً.

فأرسل أخوه إلى هولاكو وسهّل عليه أخذ بغداد، وطلب أن يكون نائباً لهم عليها، فوعده بذلك، ثم ساروا ونزلوا على بغداد، فأشار ابن العلقمي على المستعصم بالله أني أخرج إليهم في تقرير الصلح، فخرج الخبيث وتوثق لنفسه ورجع.

فقال للمستعصم: إن الملك هولاكو قد رغب أن يزوج بنته بابنك

---

(١) ذكر السخاوي في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٠٧، عند ذكره لترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكناني، أنه قال: وجد مكتوباً في بعض جدران الحرم الشريف في الحريق، وذكر البيتين.

الأمير أبي بكر، وأن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع الملوك السلجوقية، ثم يرتحل عنك.

فأجابه الخليفة إلى ذلك، وخرج إليه الخليفة في أعيان الدولة، ثم استدعى الوزير العلماء والوزراء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمه، فخرجوا إليهم فضربت رقابهم، وصار يبعث إلى طائفة بعد طائفة، فتضرب أعناقهم حتى بقيت الرعية بلا راع، ثم أمر هولاكو بالمستعصم وولده أبي بكر فَرُفِسا حتى ماتا، ثم حينئذ دخل التتار بغداد، وبذلوا السيف واستمر القتل والسبي نيفاً وثلاثين يوماً فقلّ من نجا.

ويقال: إن هولاكو أمر بعدِّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانية آلاف وكسور، فعند ذلك نودي بالأمان.

ثم هلك ابن العلقمي في السنة المذكورة قبل شهر رجب وخيب أمله، وانعكست عليه آراؤه وأكل يده ندماً، فإنه بعد تلك الرتبة الرفيعة ووزارة العراق منفرداً أربع عشرة سنة، ولي وزارة التتار مشاركاً لغيره، وانحطت رتبته حتى كان يركب إكديشاً، وكان ذا حقد وغلٍّ على أهل السُّنة، وكان المستعصم آخر الخلفاء العراقيين، وكانت دولتهم خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين سنة، وكان هذا الخليفة حليماً كريماً سليم الباطن قليل الرأي حسن الديانة، لكنه كان لا يخرج عن رأي العلقمي، وبقي الوقت بلا خليفة ثلاث سنين.

هذه نبذة من وقعة التتار لا يسع هذا المختصر ذكر تفاصيلها، وقد خرجنا بذكر هذه الأشياء عن المقصود لكن لفوائد تتشوق النفوس إليها، وتتم الفائدة بالوقوف عليها، ولنرجع إلى ما نحن بصدده.

فأقول: وكان للحرم الشريف أُبّهة عظيمة ومنظر بهي، كنت إذا دخلت المسجد الشريف وجدت الروضة المشرفة قد غصت بالمشايخ المعتبرين مثلي! ومثل الشيخ أبي محمد البسكري، والشيخ عبد الواحد الجزولي، والشيخ عز الدين الزرندي، والشيخ أبي بكر الشيرازي، والشيخ أبي العباس بن الشريف أحمد الخراز، والشيخ علي الواسطي، والشيخ أبي الربيع سليمان الغماري، والشيخ عبد الله بن حريث، والشيخ أبي عبد الله

القصري، وجمال الدين المطري، وعبد الله الحمداني، وجماعة الخدام الذين تقدم ذكرهم لك، ومثل هؤلاء السّادة كثير.

وكان في صحن المسجد الشريف صفوف عليها جلالة ومهابة وخفارة، يستحي الإنسان يمر بين أيديهم، كان في وسط الحرم صفٌّ للقرشيين الجمالين، والصيحانيين شيوخاً حِساناً بشيبات حسنة، مبيضين ثيابهم يحيكون عمائمهم، عليهم هيبة وسكون ووقار.

منهم جمال القرشي جدهم الكبير، وحسين القرشي، وأحمد القرشي، وأولادهم وأولاد أولادهم مثل يعقوب بن جمال، ويوسف بن جمال، وكان يجلس إليهم جماعة حالهم مثل حالهم.

وصف آخر دونهم للبصريين والجزريين، وصف آخر للعمريين، كان شيخهم نور الدين علي بن مطرف يجلس عن يمينه وشماله أكابر العمريين ومشايخهم، ذوو أبّهة وهيبة وصور جميلة.

ثم صف آخر للمشايخ من الفقراء المتنسكين المجاورين في رباطاتهم، كشيوخ العجم على حدة، وشيوخ المغاربة على حدة.

وصف آخر للخدام المحبرين على نسق من تقدم من هيئاتهم وصفاتهم، كأن تلك الصفوف سرج من نورهم وجلالتهم.

وكان في الرواق الشرقي جماعة من أعيان الفراشين، من أهل الخير والصلاح، وعظم المنزلة.

منهم: الشيخ علي الفراش[1] كان من الفقراء الجياد المجردين له رواية وسماع قديم، وسمع الناس عليه كثيراً وله خدمة للمشايخ الكبار، وحضر وقعة عكا فأبلى فيها بلاءً حسناً، وكان يحكي عنها عجباً، كان فيه من الأنس والحكايات المعجبات وأخبار الصالحين ما لا مزيد عليه، وكان يحاول النجارة والبناية والحجارة، وكلُّ ما دخل فيه من الأعمال أتقنه وأحكمه، لم أدرك في الفراشين مثله، رزق ذرّية صالحة محفوظين مباركين قُرّامهم، وأولادهم من بعدهم، وفيهم من هو مشتغل بالعلم على مذهب

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٩ (٣١١٤)، نقلاً عن ابن فرحون.

الإمام أحمد بن حنبل مع الديانة العظيمة والورع والتصوف، وكل نسائهم ومن توالد منهم على خير وصلاح وسذاجة نفع الله بهم. وتوفي الشيخ علي الحجار في سنة أربعين وسبعمائة.

ومنهم الشيخ عبد الله الخضري تقدم ذكره.

ومنهم أحمد الأميني[١] كان من عقلائهم ورؤوسائهم وجامع شملهم.

ومنهم علي بن ميمون[٢] والد يوسف العجيلي، وولده على طريقته وسلامة باطنه وقلة شره.

ومنهم سعيد الهندي[٣]، كان شيخاً حسناً على طريقة عظيمة في الديانة وملازمة الروضة.

ومنهم عمير السوارقي[٤] من قدماء الفراشين رغبة في التقرب بالخدمة لا أن يُحصّل منها دنيا، له حسنات كثيرة وأوقاف عديدة وعتقاء، وصحبته إلى مكة في طريق المشيان، فكان محافظاً على دينه، وله أولاد مباركون. توفي سنة ست وستين وسبعمائة.

ومنهم الحاج بُردة عتيق الحريري[٥]، كان رجلاً صالحاً مباركاً مشغولاً بنفسه، لا يعرف الفضول ولا أهله، انقرضت ذريته.

ومنهم سعيد الباجي[٦]، ليس له ذرية.

ومنهم عنبر الصرخدي[٧]، كان من أتباع الشيخ عز الدين شيخ الحرم، وكان يظن أنه من عتقائه لمخالطته عياله، وترك أولاداً صغاراً كفلهم الشيخ عز الدين وأقرأهم القرآن وكفل أولادهم من بعدهم حتى انقرضوا.

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦٣ (٣٥٤)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٢) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٣ (٣٠٩٥)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٣) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٠٩ (١٥٦٧)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٤) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٦٠ (٣٣٥٢)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٥) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢١٢ (٦١١)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٦) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٤٠٩ (١٥٦١)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٧) ترجمته في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٦١ (٣٣٥٩).

ومن قدمائهم اليوم إقبال الحريري[1]، أسن وكبر وهو على طريقة حسنة من السكون والاشتغال بنفسه.

وكان من الذين أدركتهم من أعيانهم اثنا عشر فراشاً كان منهم الشيخ عمر الفراش[2]، كان يقرأ القرآن وكان من ألطف الناس بنيةً وحديثاً وخدمة.

وممن دخل معهم في أواخر الوقت رغبة في التماس بركة الخدمة، الشيخ يوسف الصعيدي الشهير بصبي الخطيب، كان من قدماء المجاورين، على طريقة حسنة قرأ القرآن على الشيخ عبد الحميد وغيره، وكان ملازماً للسراج قاضي المدينة فعرف به، وكان نقيباً على الفقهاء، وكان يُلبس القضاة جميعهم ثياب الخطابة، وصحب خلقاً من الصالحين، وخدم كثيراً من الشيوخ المتقدم ذكرهم، له عليّ خدمة وموالاة عظيمة، وفقدت دعاه ومحبته. توفي سنة ست وستين وسبعمائة، وقد ناف على الثمانين، رحمة الله عليه.

وكان ممن أدركته من السقائين بالحرم الشريف الشيخ محمد السقا، المعروف بأبي حسين، هو جد أولاد الشيخ محمد الكازروني لأمهم، كان حسن الوجه طويل السبَلَة، تصل لحيته إلى سرّته، وربما عثر بها، حسن الصوت، كانت له بالمدينة إقامة طويلة ومجاورة جميلة، كان ـ رحمه الله ـ يملأ المسجد الشريف بالدوارق يصفُّها من باب الرحمة إلى باب النساء، ويجعل في أعناق الدوارق مقطعاً يقيدها به حتى لا تسرق ولا تغيَّر من مكانها، وما علمته يأخذ على ذلك أجرة.

حكى لي رحمه الله أنه ربى من شاربه سبلتين حتى طالتا، وجعلهما منعطفتين على فمه كالقرنين.

قال: وكان مشايخ المجاورين والعلماء منهم يقولون لي: السُنّة قص الشارب، فأنقص ما طال من هذين القرنين الذين شوَّها وجهك وغيَّرا جمالك!

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ١٩٤ (٥٢٦)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٥٨ (٣٣٣٥)، نقلاً عن ابن فرحون.

فأقول لهم: هذه سُنّة شيخي، لا أتركها لقولكم.

قال: فبينما أنا ذات ليلة نائم، إذ رأيت النبي ﷺ في المسجد الشريف والناس حوله، وأنا من وَرَاء الشباك الحديد الذي في القبلة في دار آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال: فكلما هممتُ بالدخول من الشباك يدخل رأسي، فإذا بلغ إلى أحد القرنين منعاني من الدخول، ورأيتهما قد صارا من حديد، فعجزت عن إدخالهما، فاحترق قلبي من شدة الألم على عدم وصولي إليه ﷺ، ثم انتبهت وتناولت المقص وقصصتهما من ساعتي قبل قص الرؤيا، فلما أصبحت شكرني الجماعة على ذلك، فقلت: والله ما فعلته إلا لأجل كذا، وعلمت أن الخير كله في اتباع السُّنّة.

ثم خلفه في سقي الماء بالحرم الشريف، وفي السقاية التي كانت في المسجد المتقدم ذكرها، الشيخ حسين بن علي بن رستم الشيرازي[١]، كان من الشيوخ القدماء على طريقة حسنة، وتسبُّب في الحلال بتعفف وصيانة، وخلف ولدين.

أحدهما: الفقيه الفاضل شمس الدين محمد[٢] بن حسين اشتغل بالطب ورحل إلى الشام، وخالط الصوفية ورأس فيهم، وتخلق بأخلاق أهل زمانه وتأدب بآدابهم.

والآخر: حسن[٣]، فيه مكارم الأخلاق وخدمة للفقراء وموالاة حسنة، أعانه الله تعالى وسدده وأصلحه.

واعلم أنا لم نقصد إلا ذكر من اشتهر بالعلم والعمل، أو بالمناقب الحسنة، والطريق المستحسنة، فإنْ تخلل أولئك ذكر مَنْ هو أنزل منه درجة، فما ذكرته إلا استطراداً أو لمقصد ينبني على ذكره، ولو تتبعت ذكر من أدركته في المدينة من الأخيار وذكر مناقبهم لمُلأت الأوراق بما يحمّل النجيبات العِتاق، لكن اقتصرت على من حضر في فكري، وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب، والله الموفق.

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٩٥ (٩١١)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٧١ (٣٧٣٧)، «الدرر الكامنة» ٢/ ٤٢٨ (١١٤٦)

(٣) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٧٥ (٩١٨)، نقلاً عن ابن فرحون.

وكان رؤوساء المدينة يوالون المجاورين ويخدمونهم، ويتقربون إلى خواطرهم بقضاء الحوائج والهدايا والطرف، مع حسن الاعتقاد فيهم والتماس بركتهم وأدعيتهم.

منهم: نور الدين علي بن الصيفي[1]، كان من رؤساء المدينة وخيارهم، وكان يوالي المجاورين ويخدمهم في قضاء حوائجهم، مع جلالة قدره وعلو كلمته ومحبّة الأمراء له، وقد تقدم أن الشيخ العالم العلامة أبا محمد عبد الله بن حجاج[2] الشهير بمكشوف الرأس لما توفي أسند وصيته إليه لما كان بينهما من المودة، وفي هذا دليل على ما ذكرناه، وله في هذا الباب مناقب كثيرة.

ومنهم نور الدين علي بن يحيى[3]، صاحب الرباط المشهور والسقاية، وكان يتحبب بالمجاورين والخدام، ويخدمهم ويقضي حوائجهم.

حكى لي الشيخ جمال الدين المطري رحمه الله، أن الشرفاء في سنة فتنة اقتسموا المدينة في زعمهم لينهبوها، وكانت المدينة محشوة بالأشراف منهم المداعبة في حارة الخدام ساكنين معهم مخالطين لهم، وكذلك البدور في حوش الحسن وما حوله، والوحاحدة في السويقة وما حولها، والمنايفة عند المدرسة الشهابية، وآل منصور في البلاط. فأرجفوا بالناس وأشاعوا أنهم يغلقون أبواب الحرم بعد صلاة الصبح على الناس، ويعقبونهم على بيوتهم فينهبونها، وأنهم يقتلون من في الحرم من الناس، وكان لذلك أسباب وترتيبات من أهل الشر، فاستعدّ المجاورون والخدام لذلك، واستصحبوا أسلحتهم عند خروجهم وعند دخولهم.

فقام نور الدين علي بن يحيى في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وصاح بأعلى صوته: أيها الناس، الفتنة خامدة، لعن الله مثيرها، وكرر ذلك مراراً.

---

(١) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٧٩ (٣٠٣٦)، نقلاً عن ابن فرحون.
(٢) تقدم ذكره.
(٣) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٠٤ (٣١٠١)، نقلاً عن ابن فرحون.

فقام الناس إليه وكثر الكلام واللغط، ولم يزل ابن يحيى يسكن ما عند الناس، وساعده أشياخ مثله في حلمه وعقله.

قال الشيخ جمال الدين[1]: فسكنت الفتنة وتركوا حمل الأسلحة، ولم تزل كلمة المجاورين والخدام واحدة يُهِمّ كبيرهم ما يُهِمُّ صغيرهم، ويقومون لقيام أضعفهم، وهم اليوم في خَلَف نرجو من الله صلاحه، تستعين إحدى الطائفتين على الأخرى بغير جنسهم ليهينوهم ويذلوهم. فإنا لله وإنا إليه راجعون، أعاذنا الله من شرور أنفسنا ومن الشيطان الرجيم.

وكان علي بن يحيى وزيراً للأمير منصور لا يخرج عن رأيه، وربما كان يستخلفه على المدينة في بعض الأحيان لوثوقه بعقله، وحسن رأيه وسياسته للأمور. توفي رحمه الله في سنة سبع وعشرين وسبعمائة.

ثم ولي الوزارة يوسف بن مقدم، وكان من بيتها وأهلها، إلا أنه شدد وأخذ الناس بالهيبة والقوة حتى استغاث الناس منه، فعزل وبعده أقام ابن يحيى من السوقة الذين ليس لهم قدم في الرئاسة حسنة، فصارت سيئة، فوليها ابن النجار وعلى يديهما انتشر، وسبب محاولتها خرّج أهلَها من المدينة وتمكن منها عدوهم.

وكان مثل ابن يحيى المتقدم في العقل والسياسة والرئاسة نجم الدين يوسف الرومي، وكان وزيراً للأمير طفيل، رحمه الله توفي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة، وهو الذي أنشأ الدرجة الموجودة اليوم لبئر أريس بقباء، عمرها في سنة أربع عشر وسبعمائة.

وكان الجماعة الخرازون قد ابتدؤا في عمارتها، فسألهم أن يتركوا ذلك له ليفوز بحسنتها، وكان الحامل لهم على ذلك أنهم كانوا إذا جاؤوا إلى مسجد قباء لا يجدون ما يتوضؤن به إلا من الحديقة الجعفرية، فكانوا يتحرجون من دخولها لما سمعوا أنها مغصوبة من ملاكها.

وكان هؤلاء الجماعة ـ رحمهم الله ـ قد خرجوا لعمارة بئرين بذي الحليفة، كانتا مردومتين، غير البئرين اللتين عند المسجد اليوم، وخرج

---

(١) هو: المطري، وقد تقدم.

معهم جماعة كثيرة من الخدام والمجاورين، وتبعهم من الناس خلق كثير، فكانوا ينيفون على المئة، وأقام الناس على حفرها وبنائها نحواً من شهر، وفي كل يوم يأتيهم من المدينة ما يكفيهم من الطعام، وكان أكثر ذلك من عند الخدام.

وكان الشيوخ يحفرون بأنفسهم حتى إن الشيخ محمد الخراز وقع عليه وهو في البئر حجر فشج وجهه ورأسه، وأيقنوا بوفاته فنزلوا به على أعواد كالميت وتركوه في بيته، ولم يقطعهم ذلك من العمل، وما ظنّ أحد أنه يعيش منها، فسلمه الله تعالى بحسن نيته.

وعاش إلى أن توفي في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وانتفع الحاج بهاتين البئرين نفعاً عظيماً، واليوم أكثر العرب يستقون منها، وكانوا يفعلون في المساجد الدامرة والأوقاف الخربة كذلك.

واليوم نحن في حال غير ذلك الحال، كان الخدام ذلك الزمان يثابرون على فعل المعروف، ويزدحمون على مواساة الفقير، ويرحمون الشيخ الكبير، ويقيلون عثرة الصغير، ويسترون عورات الناس.

وكان كبار الخدام يجلسون مع شيوخهم بعد صلاة العصر على الدكة التي بين باب جبريل وباب النساء، فلا يمر صغير إلا أغاثوه ورحموه، ولا يمر بائع حطب أو حشيش قد كسدت بضاعته، إلا شروها بأوفى ثمن ليفرجوا عنه من غير حاجة منهم إليه، ولا يمر بهم صغير من أولاد المجاورين إلا فرحوا به وقبّلوه ولطفوا به، يشركون فقراءهم في معلومهم.

إذا غضب أمير المدينة على أحد من المجاورين طلع أكابرهم إلى القلعة، ودخلوا على الأمير وخلصوه، وربما طيبوا نفس الأمير بشيء من مالهم.

وكذلك إن وقع أحد في غرامة، أو جناية، أو دين ثقيل، أغاثوه وساعدوه، ولم يزل المجاورون يعرفون لهم حقهم، ويصبرون على جفوتهم وعلى عزتهم عليهم، وعلى ما عساه يصدر منهم، لأجل ما يصدر منهم من الإحسان واللطف والحمية، ونرجو من الله أن يعيد تلك المؤاخاة، ويلم شعث المصافاة.

فإن قلت: أين أولئك الناس الذين هم الناس؟

قلت: نرجو أن يعود ذلك قريباً؛ لأن الجامع باق لا يبيد ولا يفنى، وهو السُنّة المحمدية، والشريعة السنية العلية، فتجمعنا إن شاء الله السُنَّة التي تخلصنا من أهل البدعة، فنكون إن شاء الله تعالى أخوة متناصرين، وعلى الخير متعاونين، لا يأتينا الشيطان من طريق ولا باب، ولا يكلِمنا عدو بظفر ولا ناب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

واتفق في بعض السنين تضييق على القاضي سراج الدين[1] من الأمير، وطلب منه عشرة آلاف درهم، فتنكد من ذلك وجاء إلى الخدام، وشكى إليهم فأدخلوه الحجرة ومنعوا أحد يصل إليه، ثم إنه خدع فخرج فطلبه الأمير إلى القلعة، ومنعه من النزول للصلاة ثم خلوا سبيله، واحتالوا عليه حتى أخذوا منه ما طلبوا.

فعزَّ ذلك على الخدام وأشاعوا القضية، فوصل الخبر إلى السلطان، فاحتاط على خُبز الأمير، وعزل عنه غلمانه ونوابه، فاعتذروا بأن الأمير ما أخذها إلا قرضاً، ودفعوا المال لوكيل القاضي، وجاءته الدراهم محمولة إلى المدينة.

وكم أعدد من محاسنهم، وأذكر من مآثرهم، وكلما ذكرت القوم وصفاتهم ازدادت الحرقة وثارت اللوعة لفقدهم، تغمدهم الله برحمته، وأسكنهم فسيح جنته.

صاحَتْ بهم حادثاتُ الدَّهرِ فانقلبوا مُستبدِلين عن الأوطانِ أوطانا

أخلوا مدائنَ كان العزُّ مفرشَها واستفرشوا حُفَراً غُبْراً وقيعانا

وكان على طريقة الوزيرين المتقدمين في العقل والرئاسة، وجمع الكلمة وتسديد الأمور؛ عز الدين حسن بن علي سنجر[2] المسكي، كان

(١) هو: سراج الدين عمر بن أحمد الدمنهوري. وقد تقدمت ترجمته.

(٢) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٧٩ (٩٣٢)، نقلاً عن ابن فرحون، «الدرر الكامنة» ٢/ ٢٤ (١٥٣٢).

وزيراً للأمير طفيل رحمه الله، وكان عاقلاً حليماً سايساً للأمور، لم ينخرم نظام دولة الأمير طفيل إلا بعد وفاته.

وسأذكر من قضاياه الحسنة قضية واحدة تدل على غيرها.

وهي: أن الأمير طفيل كان في سنة ست وأربعين قد نفد ما في خزانته من التمر، فوفد عليه جماعة من العرب يطلبون الكيل من عنده، وكان التمر في المارستان فاضلاً عما يحتاجه الفقراء، فأخبره بعض الناس بذلك وزيَّن له طلب ذلك التمر من القاضي والشيخ على سبيل القرض إلى أيام الصيف، وكان القاضي يومئذ تقي الدين الهوريني[1]، فأرسل إليهما الأمير طفيل في ذلك، وطلب منهما نحو خمسمائة صاع، فلم يمنعاه، وألانا القول لرسوله، فطمع الأمير طفيل في قضاء حاجته، وأخبر وزيره المذكور بذلك، فنزل من عنده واجتمع بالقاضي نور الدين الزرندي[2]، وقال له: قد عَلمتُ أن الأمراء كالأسود، إذا لاحت لهم فريسة وثبوا عليها من غير نظر في العواقب، وقد بلغني ما أجاب به القاضي رسول الأمير في قضية كذا ولم يرضني ذلك، وأنا أسأل من إحسانك أن تجتمع بالقاضي وتأمره بالتصميم على المنع في هذه القضية.

فقال له القاضي نور الدين: هذا يدل على كمال عقلك وحسن نظرك، ولكن ينبغي أن تخبرني بوجه المفسدة التي نخشاها؟

فقال له: اعلم أن الأعداء كثير، والضد قائم، وأخذ تمر المارستان فيه شناعة، وربما أشاع الأعداء عند السلطنة أن الأمير طفيل أخذ تمر المارستان قهراً، فيترتب على ذلك ما لا يخفى عليك.

فشكره القاضي نور الدين الزرندي على ذلك، واجتمع بالقاضي وأخبره بذلك فَسُرَّ القاضي بذلك، فلما جاءه رسول الأمير يستنجز وعده قال له: لا سبيل إلى ذلك، وأغلظ له في القول، فأخبر الأمير وزيره بذلك، فقال له: لا تتكلم في ذلك، وخوفه من العواقب، فرجع الأمير إلى قوله وسكت عن القضية.

---

(١) هو: عبد الرحمٰن بن عبد المؤمن الهوريني.

(٢) هو: علي بن يوسف بن الحسن الزرندي.

فانظر إلى عقل هذا الوزير وحسن تدبيره وسياسته!! توفي رحمه الله في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

وكان من أعظم الناس موالاة للمجاورين واختلاطاً بهم القاضي نجم الدين مهنا[1] بن سنان، كان هو القاضي في الحقيقة من بين سائر قرابته، وبه يناط الحل والعقد، وإليه ترجع محاكمات الشيعة وأنكحتهم وعقودهم وغير ذلك.

وكان مع هذا يتحبب إلى المجاورين ويمدحهم بالفضائل الحسنة ويستقضيهم الحوائج، ويحضر مواعيدهم ومجالس الحديث، ولا يصلي قط إلا في الروضة المشرفة، وكان يستعمل التقية كثيراً.

وكان إذا نسخ كتاباً ومرّ به ذكر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، يترضى عليهم بالخط تَقِيَّةً، وكان يحط على أصحابه من الفقهاء الإمامية ويتبرأ منهم، وله فيهم هجو ظريف فمن ذلك قوله:

أرى الدنيا تميل عن الكرام ... وترغب في مصاحبة اللئام
فيزداد اللئيم بذاك لُؤماً ... ويصبح ساحباً ذيل احتشام
وينسب نفسه للعلم حُمقاً ... وعند الله فهو من الطَّغَام
ويفتي المسلمين بغير علم ... ويخبط خَبط عشوى في الظلام
فكم أفتى بتحريمٍ لحِلٍّ ... وكم أفتى بتحليل الحرام
فمن حفظ الزيارة فهو مُفتٍ ... يدرِّس في الفروع وفي الكلام
كذاك من اشترى كرَّاً وصلى ... عليه فإنه رأس السنام
تشدُّ إليه أكوار(*) المطايا ... ويقصد في المهمات العظام
ولو قد جاءه شخص كبير ... وباحثه لكان من العوام
وما صلى وصام وقام إلا ... ليحفظ ما حواه من الحطام

---

(١) هو: قاضي المدينة، مهنا بن سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني الإمامي، كان حسن الفهم جيد النظم، يترضى عن الصحابة إذا ذكروا، ويتبرأ من فقهاء الإمامية، توفي سنة ٧٥٤. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/٣٦٨ (١٠٠٣)، «المغانم المطابة» الورقة ١/٢٦٧.

(*) في (أ): «أطوار».

ولو تلف الذي هو في يديه إذاً ترك الصلاة مع الصيام
فقد ترك الزكاة لأن فيها خروج المال وهو إليه ظامي
وأما الخُمْس فهو به بخيل ويبخل بالبشاشة والكلام
ألم تسمع كلام الله حقّاً وقول الله أحسن في النظام
بأنا لا نمهلهم لخير ولكن كي يزيدوا في الأثام
فمهلاً سوف ترتجع الليالي عطاياها ويجذب بالخطام
ويطلب أن يقال ولات حين وقد خلص المخف عن الزحام

وكان لديه فضيلة وعربية وآداب، وحسن محاضرة. توفي سنة أربع وخمسين وسبعمائة.

وكان مثله خلائق متصفون بهذه الأخلاق، ولم أعده منهم وأذكره فقد كادوا يكونون على الفكر لبدا، وفي قصص من ذكرنا للألباء رشدا، وإنما أردت أن يقف ذو العقل الوافر، والنظر السديد الباهر، على شيء من حال المتعاصرين من قبل وقتنا فيرى ما بين العصرين وأهلهما!! سامح الله الجميع بفضله وكرمه.

فـصـل
في ذكر قضاتنا وأئمتنا

وكان أولى أن يكونوا أحق بالتقديم في الذكر، غير أن قصدي من معظم من ذكرته، تنبيه من قدمته، وإنما ذكرت من سواهم تبركاً بهم، وحضاً لغيرهم على اقتفاء آثارهم، فالضد يظهر حسنه الضدُّ، ولم أجر فيما ذكرته على منوال، ولا رتبته على مثال، بل من سبق إلى الفكرة ذكره قدمته، ومن أخَّره الفكر لم يسرع به الذكر.

فأول من أدركته من قضاتنا وأئمتنا الشيخ الإمام العلامة سراج الدين عمر[1] بن أحمد الخضري بن ظافر بن طراد بن أبي الفتوح الأنصاري الخزرجي، كان ـ رحمه الله ـ فقيهاً مجيداً أصولياً نحوياً متفنناً في علوم جمة، حدث عن الرشيد العطار، وأجاز له الشريف المريسي المنذري، وتفقه بعز الدين بن عبد السلام قليلاً، ثم بالسديد التزمنتي، والنصير[*] بن الطباخ وأئمة وقته.

٧قدم المدينة سنة اثنتين وثمانين وستمائة متولياً للخطابة، وكانت الخطابة بأيدي آل سنان بن نميلة الشريف الحسيني، وكان الحكم أيضاً راجعاً إليهم، ولم يكن لأهل السنة خَطيب ولا إمام ولا حاكم منهم، والظاهر أن ذلك منذ استولى العبيديون على مصر والحجاز، فإن الخطبة في المدينة كانت باسمهم.

فلما كان في سنة اثنتين وستين وستمائة، وقع في مصر قحط ووباء لم

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٢٨ (٣٢١)، «الدرر الكامنة» ٣/ ١٤٩ (٣٥٣)، «طبقات الشافعية» للإسنوي ٢/ ٧٢ (٦٦٢).

(*) في «الدرر» و«طبقات» الأسنوي: «البصير».

يسمع في الدهور بمثله، وكاد الخراب يستولي على وادي مصر، حتى ذكر أن امرأة خرجت وبيدها مُدّ جوهر فقالت: من يأخذه بمدين؟

فلم يلتفت إليها أحد، فألقته، وقالت: لا أريد شيئاً لا ينفعني وقت الحاجة، فلم يلتفت إليه، واشتغل العبيديون بما أصابهم من ذلك، فحينئذ تغلب الخلفاء العباسيون على الحجاز، وأقيمت الخطبة لهم من ذلك العهد إلى يومنا، والله أعلم.

وكان أخذ الخطابة من آل سنان في سنة اثنتين وثمانين وستمائة، واستمروا حكاماً على حالهم، وكان لأهل السُنّة إمام يصلي بهم الصلوات فقط، وكان السلطان يومئذ الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، فأول خطيب خطب لأهل السُنّة القاضي سراج الدين، وكان السلطان بعد ذلك يبعث مع الحاج شخصاً يقيم لأهل السُنّة الخطابة والإمامة إلى نصف السنة، ثم يأتي غيره مع الرجبية إلى ينبع، ثم إلى المدينة، وكل من جاء لا يقدر على الإقامة نصف سنة إلا بكلفة ومشقة، لتسلط الإمامية من الأشراف وغيرهم عليه.

فأوّل من خطب السراج كما تقدم، ثم من بعده شخص يقال له: شمس الدين الحلبي(١)، ثم من بعده شرف الدين السخاوي(٢)، ثم استقر سراج الدين المذكور خطيباً فخطب بالمدينة أربعين سنة، ثم سافر إلى مصر يتداوى فأدركه الموت بالسويس متوجهاً إلى مصر، وذلك في سنة ست وعشرين وسبعمائة.

وأما الأئمة من أهل السُنّة فلم يزالوا بالمدينة قبل هذا التاريخ، وأدركت ذرية لمحمد(٣) إمام الحرم، كان معظماً عند الشرفاء محبباً إليهم، وقد مَلَك أملاكاً أصلهم من تمليك الشرفاء له كأثارب وغيرها، وبلغني أن

---

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) هو: أبو عبد الله، محمد بن موسى بن أبي بكر السخاوي القاهري المالكي، قاضي طيبة ونزيلها، ولد سنة تسع عشرة وثمانمئة، توفي سنة خمس وتسعين وثمانمئة. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٣٩ (٣٦٤٣).

(٣) يعني: أبا عبد الله محمد السخاوي، المتقدم ذكره.

عبد المنعم كان وزيراً له، وكان مدرساً في المدرسة الشهابية، وكان يجلس للتدريس والسيف معروض بين يديه، وكان مدرس المالكية يومئذ الشيخ أبا إسحاق له كتب في المدرسة بخطه أوقفها، وكان منهم رجل صالح عالم مصنف وهو صاحب «**الضوابط الكلية في علم العربية**».

وكان منهم النظام له ذرية وكان لهم بالمدينة أملاك، وذكر أنهم أقاموا في منصبهم مستضعفين يجنيهم الشرفاء ويؤذونهم، فارتحلوا بأولادهم وتركوا أملاكهم.

وكنت أسمع من كبار أهل المدينة أن الشرفاء بعثوا إليهم وأمنوهم على أن يرجعوا إلى المدينة، فلم يفعلوا حتى أخذت أملاكهم وتُملكت.

وبالمدينة موضع يسمى: «سيّما النظامية» منسوباً إليهم، وكان موضع يقال له «الإماميّة» منسوبٌ إلى إمام المسجد الشريف.

فلما قُرر القاضي سراج الدين بالمدينة خطيباً فلطالما عملوا معه من القبائح والأذى ما لم يصبر عليه غيره فصبر واحتسب، وأدركت من أذاهم له أنهم كانوا يرجمونه بالحصباء وهو يخطب على المنبر.

فلما كثر ذلك منهم تقدم الخدام وجلسوا بين يديه، فكان هذا هو السبب في إقامة صف الخدام يوم الجمعة قبالة الخطيب، وخلفهم غلمانهم وعبيدهم خدمة وحماية للقضاة، وتكثيراً للقلة ونصراً للشريعة.

فانظر كيف كان اتحادهم واجتماع قلوبهم!! رحمهم الله تعالى.

وكان يصبح باب بيته عليه مغلوقاً، وفي بعض الأحيان يلطخونه بالنجاسة ويتبعونه بكل أذى وهو صابر، وربما عذرهم لاحتراقهم على خروج المنصب من أيديهم بعد توارثهم له، فقد كان سنان[1] قاضي المدينة خطيبها، وكذلك ولده عبد الوهاب فيما يغلب على ظني.

حكى لي الشريف سلطان بن نجاد أحد شيوخ الشرفاء الوحاحدة قال: أدركت القاضي شمس الدين سنان يخطب على المنبر ويذكر الصحابة

(١) هو: سنان بن عبد الوهاب بن نميلة، وقد تقدم ذكره.

ويترضى عنهم، ثم يذهب إلى بيته فيكفر عن ذلك بكبش يذبحه ويتصدق به، يفعل ذلك كل جمعة عقب الصلاة.

ومما حكاه ابن جبير في «رحلته» وعده من غرائبه التي رأها في رحلته، أنه قدم المدينة زائراً مع الحاج، فحضر صلاة الجمعة وهم بالمدينة.

قال: فطلع الخطيب وكان من الشرفاء الإمامية فخطب ثم جلس في أثناء الخطبة، وتقدم من عنده غلمانه يطوفون على الناس ويأخذون منهم شيئاً للخطيب فجمعوا له شيئاً ثم جاؤوا به إليه فرده، وقال: لا يكفيني، فعادوا على الناس الرجال منهم والنساء فزادوهم فلم يقبل، والناس في ضيق من تأخير جمعتهم.

قال: ثم لم يزل كذلك حتى قرب وقت العصر فنزل وصلى[(١)].

ثم إن السراج[(٢)] تزوج بنت القيشاني وكان رئيس الإمامية وفقيهها، حتى قيل: إن المدينة لم يكن بها من يعرف مذهب الإمامية حتى جاءها القيشانيون من العراق، وذلك أنهم كانوا أهل مال عظيم، فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال ويعلمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به، وعضده الأشراف في ذلك الزمان، ولم يكن لهم ضد، ولا في مصر ولا في الشام من يلتفت إليهم، لأن الملك العادل نور الدين الشهيد كان حاكماً على البلدين، لكن همه الجهاد ولا يستقر له قرار.

ثم ولي بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فسار على طريقة الملك العادل وزاد عليه، وكان صاحب المدينة أبو فليته قاسم[(٣)] بن المهنا يَحضر معه الفتوحات، ويلازمه في الغزوات، فلم يكن أحد يجسر على الكلام في الإمامية في ذلك الزمان.

---

(١) انظر رحلة ابن جبير، ص١٧٩، وما بعدها.

(٢) يعني: سراج الدين الدمنهوري. وقد تقدم ذكره.

(٣) هو: أبو فليته القاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا الحسيني، كان أمير المدينة في أيام الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يستصحبه معه في غزواته حتى حضر معه أكثر فتوحاته. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٣٧٨ (٣٤٥٨).

ولما صاهرهم السراج انكف عنه الأذى قليلاً، وصار يخطب ويصلي من غير حكم ولا أمر ولا نهي.

وكان إذا عقد في البلد عقد نكاح بغير إذن علي بن سنان[1] وأمره، طلب الفاعلين لذلك وعزرهم وسلط عليهم الشرفاء، وكان المجاورون وأهل السُنّة إذا أرادوا عقد نكاح أو فصل حكومة على مذهبهم، يأتون والدي ليعقد لهم أو يصلح بينهم.

فيقول لهم: لا أفعل حتى يأتيني كتاب ابن سنان، فيذهبوا إلى علي بن سنان فيعطونه ما جرت به عادته، فيكتب لهم إلى والدي ما صورته: (يا أبا عبد الله اعقد نكاح فلان على فلانة)، أو (اصلح بين فلان وفلان).

ولم يزل الأمر على ذلك حتى كانت أيام شيخ الخدام الحريري، وقد تقدم ذكرها وتاريخها، فكثر المجاورون وسألوا الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يكون لأهل السُنّة حاكم يحكم بينهم، ويحملهم على مذهبهم، فجاء تقليد بذلك للقاضي سراج الدين وجاءته على ذلك خلعة وألف درهم، وكان فيه معرفة ومداراة.

فقال: أنا لا أتولى حتى يحضر الأمير منصور[2] بن جماز، فأحضروه.

فقال له السراج: قد جاءني من السلطان مرسوم بكذا، وأنا لا أقبل حتى تكون أنت المولي لي، فإنك إن لم تكن معي لم يتم أمري ولا ينفذ حكمي.

فقال له: قد رضيت، وأذنت فاحكم ولا تغير شيئاً من أحكامنا ولا حُكَامنا.

فاستمر الحال على ذلك يحكم بين المجاورين وأهل السُنّة، وآل سنان يحكمون في بلادهم على جماعتهم وعلى من دعى إليهم من أهل السُنة، فلا

---

(١) هو: علي بن سنان بن عبد الوهاب بن نميلة. ذكره في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٧٨ (٣٠٣٣)، نقلاً عن ابن فرحون.

(٢) هو: منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم الحسيني.

يقدر أحد على الكلام في ذلك والتقدم في الأمور لهم، وأمر الحبس راجع إليهم، والأعوان تختص بهم، والإسجالات تثبت عليهم، والسراج يستعين بأعوانهم وبحبسهم.

استمر ذلك الحال مدة السراج حتى مات، وكان السراج - رحمه الله - يواسي الضعفاء ويتفقد الأرامل والأيتام ببره وزكاته، ويقصدهم في بيوتهم بنفسه، وكان لا يرد من سأله قرضاً، بل يأخذ منه ويعطيه ما أراد، وكان قبل ولايته الحكم طوعاً للناس الذين عاصروه من أهل الصلاح، يصلي كما يشتهون من تطويل وتقصير، وتكميل السورة في الركعة وملازمة الطيلسان ومسح جميع رأسه.

وكان إذا جلس للدرس ينتظر كبار أصحابه، وكان مراراً يبعث إلى والدي وهو في بيته بأن الجماعة ينتظرونك، فيتوضأ ويصلي الضحى، ثم يخرج إليه فيجده جالساً مع الجماعة لم يشرع في الدرس.

فلما ولي الحكم تنكرت عليهم أخلاقه، وصار يرمي عليهم كلمات يغيظهم بها وإن لم يكن تحتها طائل، فنفرتْ نفوسهم منه، وتفرقوا عنه.

كان يحضر درسه جمال الدين المطري ووالدي وجماعة المالكية وغيرهم، والشيخ أبو عبد الله النحوي وكان من الأئمة الكبار، يقال: إنه كان يتقن اثني عشر علماً، وكان منهم الشيخ عز الدين الزرندي، وكان منهم الشيخ الأديب أبو البركات، فما من هؤلاء أحد إلا نفر عنه، وفارق درسه لما يسمع منه.

فجلس يوماً في درسه فلم ير من الجماعة أحداً إلا من لا نوبة له فقال: أين أصحاب اليمين أين أصحاب الشمال؟ أصحابنا ضد الأنصار يكثرون عند الطمع، ويقلون عند الفزع.

وقال له بعض الطلبة: قال الشيخ أبو إسحاق: في هذه المسألة كذا، فقال: قلقل الله أنيابه.

فقيل له في ذلك، فقال: تقلقلت منذ زمان، وإذا قيل له قال النووي قال: كذا نعلك النووي.

ويقول للمالكية: أنتم تقولون الكلب حيوان ذو صوف، فلحمه لحم خروف، فيتأذون من ذلك.

وكان يحضر درسه أيضاً الفقيه الفاضل أبو العباس أحمد[1] الفاسي فجلس يوماً قريباً منه، وكان يتجاهل.

فقال: من هذا؟ فقال: أنا أحمد الفاسي، فقال له: من فَسى يَفسو فَسْوا فهو فاسي.

ولقيه الشيخ أبو البركات بعد أن ترك درسه وخرج من المدرسة وسكن رباط دكالة، فقال له السراج: من هذا؟ وكان يظهر التعامي وقلة السمع وما هُما به، فقال: أنا أبو البركات، فقال: بل أبو الهلكات، فقال له أبو البركات: طائركم معكم وافترقا، ولقيه يوماً في الطريق، فقال له: أنت أبو البركات؟

فقال: نعم، فقال: أوحشتنا أوحشنا أنسك.

فقال له أبو البركات:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال له السراج: فالراحلون أنت، وافترقا وكان فيه صبر عظيم، واحتمال كثير.

وكان في أيامه رجل إمامي من حلب، وكان يسكن في دار تميم الداري له ثروة ورئاسة، فكان يجلس السراج على طريقه عند باب الرحمة، فإذا دنا منه يقول له: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]، هكذا أبداً وهو لا يجاوبه ولا يعيد الكلام له.

حتى انتقم الله له منه، وذلك أنه كانت له جارية كأنه نقم عليها شيئاً فعاقبها حتى قتلها، فبلغ ذلك الأمير منصور فمسكه ودخل بيته وأخذ منه ألف دينار.

---

(١) هو: أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الشاذلي الفاسي، ناب في قضاء المدينة وكان صدراً في العلماء، توفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١١١ (١٩٨).

وتقدم ذكر وفاة السراج، وكان مولده في سنة خمس أو ست وثلاثين وستمائة، رحمة الله عليه.

ثم ولي منصب الحكم بعده الشيخ الإمام العالم الفاضل علم الدين يعقوب بن جمال القرشي المتقدم ذكره، وكان الفقيه علم الدين نائباً للقاضي سراج الدين في الأحكام، فلما توفي السراج سعى له بعض أصحابه في الاستقلال بالمنصب ووجدوا من رضي بمنصب الخطابة والإمامة، فأجيب إلى ذلك وولي القضاء.

وولي الخطابة والإمامة الأخ في الله بهاء الدين بن سلامة المصري، كان فاضلاً أديباً من صدور الكُتَّاب الرُّؤساء المعتمد عليهم، وكان يفك الخط المعمى بسرعة حسب ما يقف عليه يكتبه تحته نثراً كان أو نظماً، وكان له خط حسن قليل المثل، وربما كان يكتب المصاحف ويهديها لأصحابه من الأمراء فيبعثون بالألف درهم وما قاربها على كل مصحف.

ثم تخلف عن صنعة الكتابة للسلطان، فأبقى السلطان عليه معلومه وزاده معلوماً آخر في دمشق، وأقام بالمدينة سنتين، ثم عزل نفسه واستقال، لأنه لم ير نفسه أهلاً لما شرطه الواقف من معرفة القراءات ومعرفة الفرائض، فخاف على دينه وآثر رضى ربه، فأرسل يستقيل.

فلما عزل ولي القاضي شرف الدين الأميوطي الوظيفتين جميعاً، وعزل القاضي علم الدين.

وكان الفقيه يعقوب(١) رحمه الله حاكماً عادلاً فقيهاً فاضلاً رئيساً، وكان مقدماً عند القاضي سراج الدين يحبه ويعظمه ويشاوره.

قال لي رحمه الله: والله ما فرحت بهذا المنصب وإني لأرجو أن يقيلني الله تعالى منه، وذكر لي أنه رأى في المنام كأنه على سطح قباء وأنه على طرف الحائط قد تدلى ولم يبق إلا أن يسقط فيهلك، وهو من الخوف

---

(١) هو: علم الدين يعقوب بن عبد الله القرشي. ترجمته في: «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٣٤ (١٢٠٨)، ويسرد ذكره باسم: يعقوب بن جمال، وذكره السخاوي في مقدمة «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٩، عند ذكره لمن تولى الخطابة والإمامة بقوله: «... وهو العلم يعقوب بن جمال القرشي الهاشمي المقري...». فليلاحظ.

في أعظم ما يكون حتى نجاه الله تعالى، فكان ذلك تسلية له عند العزل.

وكان قد جرى في أحكامه على السّداد وخصوصاً على الخدام، ومنعهم من الشمع والدراهم وغير ذلك مما يجمعونه في صندوق النذر في أيام الموسم، وقال لهم: هذا يجري في مصالح الحرم لا يجوز لكم قسمه بينكم، فتضيقوا من ذلك وعزَّ عليهم فغلبهم عليه ولم يصرف لهم منه شيئاً رحمه الله[1]، توفي رحمه الله في سنة خمس وأربعين وسبعمائة، ومولده في سنة ثمان وثمانين وستمائة.

ثم ولي الخطابة والإمامة الشيخ الإمام العلامة زين الفقهاء صدر المدرسين شرف الدين أبو الفتح محمد[2] بن القاضي عز الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ كمال الدين أبي المجد اللخمي الشافعي المصري، المعروف بابن الأميوطي تغمده الله برحمته، كان شرف الدين فقيهاً فروعياً حافظاً للمذهب، قلَّ أن رأيت مثله في حفظه وغزارة علمه، وأما كلامه على الحديث واستنباطه لعلومه وما يُستلوح من فوائده فالعجب العجاب.

قال لي أخي علي رحمه الله: قطعت هذه البلاد شرقاً وغرباً لم أر أحداً يتكلم على الحديث مثله، وكان كريماً جواداً، حسن المحاضرة لين العريكة حتى ينحرف فكأنه غير الذي تعرف، ولما قدم المدينة عرض على القاضي يعقوب بن جمال النيابة عنه في الأحكام فامتنع، فنزل له عن تدريس المدرسة الشهابية فقبلها واستمر مدرساً للشافعية محبباً إلى الناس.

وكان في القاضي شرف الدين شدة على الأشراف، وكان له هيبة عظيمة سقاهم المر وأذاقهم الصَبِر، وأما سطوته على الإمامية وتوبيخه لهم

---

(١) ورد في حاشية النسخة (أ) تعليقة للشيخ عبد الستار الدهلوي ناسخ هذه النسخة قوله: «قف على محل النذور الواردة في مسجد المدينة من الشمع والدراهم، ما حكمه (...)، وقد أقره السخاوي وحسنه».

وفي مقدمة «التحفة اللطيفة» للسخاوي ٢٩/١، عند كلامه على القضاء وفي مجرى كلامه على الشيخ يعقوب بن جمال القرشي، وأنه قال للخدم: «لا يجوز لكم قسمه بينكم»، قال السخاوي معترضاً: «وما هو محق فيه». انتهى.

(٢) تقدم ذكره.

في المحافل وسبهم على المنبر، فأمرٌ مشهورٌ لا يحتاج إلى وصف، ولا تكاد السنين تبيد ذكره.

وكان إذا قام في الأمر لا يرجع عنه ولو خُوِّف في عاقبته، وكان متمسكاً بالسُّنَّة يتبع أشدها ويحمل نفسه على أشقها، رأيته في يوم صائف محرماً متجرداً راكباً على حمار لم يزل عليه حتى كمل حجه ورجع إلى المدينة ليس له مركب غيره، ورأيته وقد أكلته الشمس وتقشر جلده ودمي وجهه، فعرضت عليه الركوب في الشقدف[١] فلم يفعل.

وكان قد أراد أن يسوي الحفرة التي في محراب النبي ﷺ ببنيان أو أخشاب فلم يوافَقْ على ذلك، فترك الصلاة في المحراب وصلى عن يسار المحراب قريباً من الشباك، واستمر على ذلك حتى مات رحمه الله، وقد تقدم الكلام على ذلك.

وهو الذي أبطل صلاة النصف من شعبان، وكان تبطيلها عزيزاً على النفوس فقد اعتادوا صلاتها، ومبتدعات كانت معها.

منها: زينة المسجد الشريف، وكثرة الوقيد، وكثرة النساء واختلاطهم بالرجال، والصياح من الصغير والكبير حتى لا يبقى للحرم حرمة ولا يملكه القوم.

وكان له غيرة على أهل السُنّة وإن علم من كثير منهم الكراهة له، فيسدد أحوالهم ويقيم حرمتهم عند أمراء المدينة ويجاهد بنفسه في حقهم.

وله تواليف مفيدة في الكلام على الحديث وغيره، منها: (الجواهر السَّنية في الخطب السُّنِّية) قل أن يخلو منها خطبة إلا وفيها ذكر البدعة وأهلها، وتوبيخهم لما هم عليه.

ونزل مرة من على المنبر لضرب رجل من الإمامية كان يتنفَّل زيادة على تحية المسجد، ويؤدِّي ظهر الجمعة أربعاً في أثناء ذلك التَّنفل، لأنهم لا يعتقدون إقامة الجمعة إلا خلف إمام معصوم، وهذا كان عادتهم معه ومع

(١) الشقدف: هو ما يوضع على الجمل يجلس فيه الراكب، وهو يشبه الهودج بالنسبة لركوبة النساء.

غيره، فنهاهم عن ذلك فانتهوا إلا من قوي تشيعه وتعصبه، فكان يصيح عليهم وهو على المنبر ويأمر بجرهم إلى عِنده فيضربهم.

وكان الإمامية يصلون صلاة العيد في المسجد الذي في المصلى المنسوب بزعمهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمنعهم من الصلاة فيه، وألزمهم بالدخول مع أهل السُنّة في المسجد الموجود اليوم، وذلك في يوم عيد الأضحى من سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

وكان عليهم سيفاً لا يغمد، لكنه لم يتعرض لحكامهم، فكانوا في أيامه على عادتهم مع السراج، وكان يحبس في حبسهم ويستعين بغلمان الوالي، وكان حبس المدينة واحداً يجلس فيه الأمير والقاضي، وهو الموجود اليوم في ساحة القلعة.

كان لي معه ـ أعني القاضي شرف الدين ـ مقامات سُوءٍ لا يحسن ذكرها هنا، لأنها مبنيّة على حظوظ نفوس الحسدة الذين كانوا حوله، حتى إني وصلت أنا وهو إلى الملك الناصر لما حج حجته الثالثة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، فأمره السلطان أن لا يتعرض لي وأن ينصفني من نفسه، ووصّى صاحب المدينة بمراعاتي والنظر في الأحوال التي أشكوها منه، فلم يفد فيه ذلك.

ولما تحقق الأمير طفيل ـ رحمه الله ـ أني معهم مظلوم، وأنهم قد تظافروا وتعاضدوا على أذيتي عند القاضي شرف الدين، ودخل عليه مراراً كثيرة، بعث إلى أحمد الفاسي نائب القاضي شرف الدين ونفاه إلى خيبر، واستقر بها مدة، ولم يرجع إلا بعد أن استعطفه شرف الدين ودخل عليه مراراً كثيرة، فلما جاء من خيبر أقام أيّاماً قليلة، ثم توفي إلى رحمة الله في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة، وتهدد الأمير طفيل بقية الجماعة البُعداء الذين أهلكهم فعلهم، وما الله بغافل عنهم، والموعد بيني وبينهم يوم القيامة.

هذا مع كونه إذا رآني عظمني وقام لي ونوه في المجلس بذكري حتى أقول صَفَا قلبه، فإذا خلى به شياطين الإنس عطفوا قلبه إلى كلامهم، ثم إنَّ الله تعالى أحوجه إلى مساعدتي له في قضية، فساعدته فيما طلب، وبذلت

جهدي له وحصل على مقصوده. فصَفا قلبه وأعرض عن جميع ما كان سمعه، ورأيت منه إنصافاً أزال ما رأيت منه من الشقاء والتعب، رحمه الله وعفا عن من كان التسبب.

ولهذه الأطراف تَتِمّات فيها عجائب وتحتها غرائب، لو بسطت القول فيها لخرجت عن المقصود، وإنما الغرض التنظير بمن فيه تفريع بأهل زماننا، والله تعالى يغفر للجميع.

واستناب القاضي شرف الدين في فصل الخصومات دون الخطابة والإمامة، الفقيه أحمد الفاسي[1] المراسني.

ثم الفقيه العالم الفاضل الأصولي الفروعي أبا العباس أحمد[2] التادلي، وكان ورعاً عفيفاً ديناً فاضلاً في مذهب مالك، إماماً في أصول الفقه، وله شرح «رسالة ابن أبي زيد» كتاباً حفيلاً ممتعاً، وله «شرح عمدة الأحكام» من أحسن ما وضع عليها، وله «شرح تنقيح القرافي» في أصول الفقه لم يوضع عليها فيما رأينا أحسن منه، وكل تواليفه وتقاييده مفيدة.

وتولى درس غشاوة فلم يتناول من تمر الحديقة التي تفرق اليوم على الجماعة شيئاً بسبب ما ذكرناه في ترجمة الشريف يعقوب، وكان يصرف نصيبه إلى الفقيه محمد التلمساني لكونه من طلبة المدرسة الشهابية.

ثم نقم عليه القاضي شرف الدين شيئاً، منها: دخوله في قضية ابن مطرف في العهن. فإن الفقيه شهاب الدين التادلي أثبت له محضراً مشتملاً على أنَّ بيع عليّ المذكور للعهن، كان وهو في الحبس مقهور مغصوب، وأن البيع باطل، فلما أثبت التادلي المحضر لنافع بن علي بن مطرف توجه إلى رباط الفخر وأخذ جميع ما فيه من التمر، فغضب القاضي شرف الدين ولم يصلِّ بالناس صلاة الظهر ولا أحد من جهته، وصلى بالناس ثلاثة أئمة، عز الدين الواسطي، وأخي علي، وشخص

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ١٦١ (٣٤٦).

(٢) هو: أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن التادلي الفاسي. ترجمته في: «الديباج المذهب»، ص٨١، «المغانم المطابة» الورقة ٣٣ب، «التحفة اللطيفة» ١/ ١١١ (١٩٨).

آخر، ولم يأت يوم الجمعة إلا بكلفة بعد أن دخل عليه مانع بن علي، وذلك في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

ثم عزله واستناب شيخنا الإمام العلامة جمال الدين المطري في الحكم والخطابة والإمامة، فكان جمالاً للمنصب رحمه الله، توفي القاضي شرف الدين رحمه الله بالمدينة ودفن شامي قبة سيدنا عثمان رضي الله عنه. وذلك في سنة خمس وأربعين وسبعمائة. ومولده بالقاهرة سنة أربع وسبعين وستمائة.

ثم ولي بعده الحكم والخطابة والإمامة الشيخ الإمام العلامة تقي الدين عبد الرحمن(١) بن جمال الدين بن عبد المؤمن بن أسيد بن عبد الملك الهوريني الشافعي المصري، قدم المدينة في ذي الحجة آخر سنة خمس وأربعين.

وكان ـ رحمه الله ـ من قضاة العدل، انتهت إليه الرئاسة والسياسة مع العلم الغزير والعقل الراجح الذي ليس عليه من يد، لم يرق المنبر أحسن منه صورة وشكالة وشيبة، مع الهيبة العظيمة، والقيام في الحق والنصرة للشرع.

وفي تلك السنة استنابني في الحكم عنه فسلكت مع الناس سبيل السياسة وسددت الأحكام، وجريت على الصلح بين الخصوم، فَمَال إليَّ أهل المدينة، ورأوا أني لا آخذ منهم شيئاً في حكم ولا إثبات، ولا وراقة، بل ربما أعطي من عندي مَنْ أتحقق ضرورته من الغرماء، فأحبني أهل البلد ومالوا عن قضاة الإمامية واعتزلوهم وتركوا المحاكمة عندهم، حتى إنَّ القاضي حسن بن سنان الملقب عزير، صار يجلس على باب زقاقنا فإذا رأى الخصمين دعاهما إليه فلا يلتفتان إليه، لأنهم كانوا إذا حكموا ألحقوا المحكوم له رسولاً أو ورقة يطلبون منه شيئاً، وإن كتبوا ورقة طلبوا عليها أجراً، ويقبلون من الشهود من كان من رعاع الناس.

وبلغني أنهم اجتمعوا بالأمير طفيل وشكوا عليه ما يلقون مني، فقال

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ١٣٧ (٢٤٧٩)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٧/أ، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٣٤ (٢٣١٨).

لهم: إذا سكت عنكم وعن أحكامكم فلا تطلبوا منه غير ذلك.

وقال لي القاضي نجم الدين مهنا بن سنان ـ وكان أعلمهم وأرأسهم ـ: قطعت رزقنا يا فلان.

فقلت له: ما تريدون مني إذا لم أتعرض لكم؟

فقال: والله ما قطع رزقي إلا أنت، صرتَ تكتب للناس بلا شيء، فمن بقي يأتي إلينا؟! وكان مهنا بن سنان كاتب المدينة.

ولم أزل معهم كذلك حتى خمل ذكرهم، وماتوا أحياء، ولم يبق لهم في البلد أمر ولا نهي إلا في الشيء التافه والأمر النادر.

ولقد أدركت من حكامهم فوق عشرة من آل سنان ومن الصفيان الذين كانوا عند رباط المعين كلهم يحكم ويفصل الخصومة، إلا أن الحكم كان له إذا حكم عليه القاضي من آل سنان أو يقول: ارفعني إلى الفقيه فيرفعه ولا يراجعه، وكان الفقيه علي[1] يصلح ويسدد من غير أن يتطلع لشيء بخلاف القضاة يومئذٍ، ثم لم يزل أمرهم يتقاصر، وعددهم يقل، حتى مات كبارهم.

ثم إن الفقيه الهوريني[2] كفَّ بصرُه في أثناء تلك السنة بسبب ماء نزل في عينيه، فسافر إلى مصر مع الحاج ليقدح عينيه ويعود إلى المدينة، واستمريت نائباً عنه في سنة سبع وأربعين، وشدّدت على الإمامية في نكاح المتعة ونكلت بفاعلها، وحملت الناس على مذهب مالك، وأخملت البدعة وأظهرت السُنّة، وعزرت من تكلم في الصحابة رضي الله عنهم، فلم يزد الناس إلا طاعة وإقبالاً.

وفي تلك السنة لقيني عز الدين حسن المسكي وزير الأمير طفيل، وكان من الوزراء العقلاء.

فقال لي: يا فلان خرج اليوم ملك من يد صاحبه يساوي عشرة آلاف، بشهادة فلان وفلان، والله هذان ما يقبلان فيما يساوي عشرة دراهم، كيف

(١) هو: علي بن سنان بن نميلة، وقد تقدم ذكره.

(٢) في جميع النسخ: «الحوريني» وهو تصحيف.

يحل لكم تبقى المدينة بلا شهود؟ فأمرته أن يأمر غلام الأمير فينادي في الأسواق: لا يضع أحدكم خطه في ورقة إلا أن يكون مرضياً عند الحكام.

ولما وصل القاضي تقي الدين إلى مصر، أقام بها يعالج عينيه بالقدح، فسعى عليه بدر الدين حسن[1] صهر القاضي شرف الدين الأميوطي فعزلوا القاضي تقي الدين، وكان يحب الإقامة بالمدينة رغبة في الوفاة بها، فلم ترجع إليه صحة عينيه حتى خرج عنه المنصب، وسيأتي ذكر ولايته الثانية وذكر وفاته ومولده رحمه الله.

ثم ولي الحكم والخطابة والإمامة الشيخ الإمام الفاضل المتفنن، بدر الدين حسن[2] بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القيسي الشافعي المصري، وقدم إلى المدينة في شهر ذي الحجة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكان مقيماً في المدينة مع القاضي شرف الدين وينوب عنه في بعض الأحيان، وكانت ابنة القاضي شرف الدين عنده.

فلما وصل إلى المدينة حاكماً، حاول أن يسلك في طريقته وأحكامه مسلك القاضي شرف الدين، وكان حاكماً جزلاً صلباً مهيباً فأقام بالمدينة سنة تسعٍ وأربعين وسنة خمسين، وكان قد شدد على الأشراف وكتب إلى السلطانِ يشكو من طفيل، كما فعل القاضي شرف الدين مع طفيل أيضاً، فلما بلغ طُفيلاً الخبر صدر منه كلام وتهديد في جهة القاضي بدر الدين، فلما بلغه ذلك خاف على نفسه، فخرج إلى مكة معتمراً ومعه جماعة مثل محمد بن الشويكية[3]، ومحمد بن بالغ[4]، ومختار الزمردي[5] وغيرهم من الجماعة.

---

(١) هو: بدر الدين حسن القيسي، الآتي ترجمته.

(٢) ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٢٧١ (٩١٠)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «الدرر الكامنة» ٢/ ١٢ (١٤٩٨).

(٣) ذكره في «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٨٤ (٣٨٠٥).

(٤) هو: محمد بن أحمد بن بالغ. ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤١٢ (٣٦٠١)/٤٥٢ (٣٦٧٧).

(٥) ترجمته في: «المغانم المطابة» الورقة ٢٥٨/ب.

ولما توجه إلى مكة استنابني في الحكم إلى الموسم، ثم قدم مع الحاج وسافر إلى مصر واستمريت نائباً عنه حتى جاء الخبر أنه توفي بالقاهرة في أثناء سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وجاء الخبر إلى طفيل بأنه قد عزل، وولي إمارة المدينة سعد بن ثابت(١) فخرج منها طفيل رحمه الله.

ثم ولي الحكم والخطابة والإمامة القاضي الأجل الخطيب المصقع، شمس الدين أبو عبد الله محمد(٢) بن زكي الدين عبد المعطي بن سالم بن عبد العظيم بن محمد الكناني المصري الشافعي العسقلاني المحتد المعروف بابن السبع، ذكر أنه تفقه بالقاضي نجم الدين ابن الرفعة، وأنه قرأ القراءات على الشطنوفي، وأن مولده سنة ثمان وستمائة بالقاهرة، وكان - رحمه الله - بشوشاً للناس محسناً للأصحاب حليماً كريماً جواداً، وكان شاهداً عدلاً بالقاهرة.

فلما ولي الأحكام الشرعية، ثقل بها فما حملها ولم يقم برسمها ولا شرطها، لأنه لم يلحق بمن قبله في علومهم ولا في قيامهم بحرمة المنصب، وكان عاملاً على السياسة والمسالمة فاشتغل الناس به، وطعنوا عليه بأنه لم تجتمع عليه شروط الواقف، وهي العلم بالقراءات، ومعرفة الأصلين وغير ذلك، وبكونه إذا دخل الحجرة المشرفة للزيارة يقبل الأرض عند تمثله بين يدي النبي ﷺ، وبأشياء لا يليق ذكرها كانت سبباً في عزله. وكانت ولايته وولاية الأمير سعد في سنة واحدة، وهي سنة خمسين وسبعمائة.

ولما إستقر الأمير سعد في المدينة، بدأ بمنع آل سنان وغيرهم من التعرض للأحكام وعقد الأنكحة وغيرها، ورد الأمر جميعه لأهل السُّنة تقرباً إلى قلوب السلطنة بإظهار السُّنة وأهلها، وإخمال البدعة وأهلها، وأمر

---

(١) هو: سعد بن ثابت بن جماز بن شيحة الحسيني. ذكره في «التحفة اللطيفة» ١/ ٣٨٥ (١٤٤٩)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٤٢/ب، «الدرر الكامنة» ٢/ ١٣٤ (١٨١).

(٢) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٢٩ (٣٩٦٨)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٣/أ، «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٠ (٨٠).

بالنداء بالمدينة في يوم الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة أحد شهور سنة خمسين وسبعمائة: أن لا يحكم في المدينة مع القاضي شمس الدين غير فلان، ومن تعرض ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فمن يومئذٍ انقطع أمرهم ونهيهم بالكلية، وظهر عَلَم أهل السُنّة، واجتمعت الكلمة، ووجدنا على الحق أعواناً، ثم إن الأمير سعداً منع أيضاً أن يدخلوا معه إلى الحجرة المشرفة إذا أراد الزيارة، وأقام مقامهم الفقيه برهان الدين إبراهيم بن عبد الله المؤذن وصاروا كما قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ١١٨] الآية.

ولما تمَّ الأمر لأهل السُنّة وانقطع دابر القوم، وقع بينهم افتراق الكلمة وطهرت من الفتنة، فأسخطوا بذلك الرحمن، وأرضوا الشيطان، وأصبح كل من المجاورين فيما بينهم وبين الخدام متحزبين أحزاباً منتظرين لبعضهم عذاباً، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن شر الشيطان الرجيم.

ولما رأيتهم على هذا الحال، وقد كثر بينهم القيل والقال، لزمت بيتي رغبة في السلامة، متمثلاً بقول العلامة أبي شامة، رحمه الله:

ألا يا لائمي مالي سوى البيت موضعُ ... أرى فيه عزاً أنه لي أنفعُ
وقد يسر الله الكريم بفضله ... غنى النفس مع شيء به أتقنَّعُ
وفي حسن ظني أنّ ذا يستمر لي ... إلى الموت إن الله يُعطي ويمنعُ

ولنرجع إلى ما كنا فيه من أخبار القاضي شمس الدين ابن السبع رحمه الله، كان خطيباً مصقعاً إذا خطب على المنبر، يسمع من طرف السوق مع ما في السوق من اللغط، ولو أنصت له منصت من أعلى سور المدينة سمع كلامه، مع الفصاحة العظيمة وحسن الأداء، وبدت منه سقطات لا تليق بالحكام، واشتهرت عنه بين الناس، منها: أنه صَحّف المثل المشهور: (إذا قالت حذام فصدقوها). فنطق بها بضم الخاء المعجمة وتشديد الدَّال المهملة، ويقال: إنه زعم بذلك خُدام الحرم الشريف النبوي.

فلما كانت سنة أربع وخمسين وسبعمائة سافر جماعة من المجاورين وأشاعوا عنه تلك الأشياء، وكان القاضي عزّ الدين بن جماعة من أعظم

الناس كراهة في ولايته المدينة المشرفة، وكذلك الشريف أبو العباس الصفروي المغربي.

وكان للصفروي وجاهة عند الأمراء فشجع المجاورين على الكلام مع الأمراء فيه، فكتبوا فيه قصة وعددوا فيها ما نقموا عليه، وساعدهم في باطن الأمر القاضي عز الدين والصفروي، رحمهما الله، فعقد لهم مجلس في دار العدل وأحضر الحجازيون[1] جميعاً، فشهدوا عند القاضي عز الدين بمحضر القضاة الأربعة، فقبل شهادة بعضهم، وثبت ما نسب إليه فعزل، وولي القاضي بدر الدين ابن الخشاب[2]، وبعث باقي القضاة في وسط السنة نجاباً إلى المدينة بالعزل، ويستنجز محضراً بصدق ما شهد به عليه في القاهرة، فتقدمت في ذلك، وأثبت محضراً بذلك، وبعث إليّ بدر الدين ابن الخشاب يسألني القيام بالوظيفة نائباً عنه، فرأيت أن ذلك قد تعين عليّ لضيعة المنصب النبوي.

وكان الأمير شيخو يشدُّ من ابنِ السبع، فأخذ مرسوم السلطان بالكشف على ابن السبع في المدينة وبعثه مع الأمير سيف الدين عمر شاه أمير الركب المصري، وبعث معه خلعة وتقليداً، فوقع لي مجلس عظيم مع الأمير عمر شاه ومع الحافظ الإمام شمس الدين ابن النقاش، وجماعة غيرهما من المتعصبين له، فردهم الله بالحق، وردَّ أمير الحاج المرسوم والخلعة، وسيأتي ذكر ولايته الثانية.

واستقر في المنصب الشيخ الإمام العالم الأوحد وحيد دهره، ونادرة عصره، بدر الدين إبراهيم[3] بن أحمد بن عيسى القرشي المخزومي المعروف بابن الخشاب، وكان قدومه إلى المدينة في ذي الحجة من شهور سنة أربع وخمسين وسبعمائة، وقدم معه قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة مجاوراً بأهله وأولاده، وقدم معه صهره الشيخ الإمام العالم صدر القضاة

---

(١) في (ب): «المجاورين». ولعلها الصواب.
(٢) هو: إبراهيم بن أحمد بن عيسى القرشي المخزومي. وستأتي ترجمته.
(٣) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ١/ ٦١ (١١)، «الدرر الكامنة» ١/ ١٢ (١٦)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٣٤/ ب.

فخر الدين ابن الكويك، وكان معهم أيضاً الشيخ شهاب الدين ابن النقيب، وكانت سنة حسنة تنقضي في ذكر محاسنها الأزمنة.

وكان القاضي بدر الدين ابن الخشاب حَسنة زمانه، قد جاوز الذروة العليا والغاية القصوى في العلم الباهر، والعقل الوافر، وحسن الفصل للخصومات مع الجزالة والهيبة والقيام في الحق، حاكم إن قيل حاكم، وقام بالخطابة والإمامة أحسن قيام، وانقضت تلك السنة كأنها أحلام، وكان القاضي شمس الدين ابن السبع مجاوراً بمكة.

ولما خلت الديار المصرية من القاضي عز الدين ابن جماعة، تكلم نور الدين ابن شمس الدين ابن السبع لوالده وساعده الأمير شيخو، فجاءنا الخبر في الموسم الشامي بأن بدر الدين ابن الخشاب قد عزل ورد ابن السبع إلى منصبه، فلما جاء الركب المصري جاء التقليد والخلعة لابن السبع، واستقر في المنصب من أول سنة ست وخمسين وسبعمائة، وجرى على أخلاقه المعهودة، وسألني أن أكون نائباً عنه، فامتنعت.

فكان يقول لي كلما لقيني: أنا أسألك الله العظيم عند هذا النبي الكريم كلما زرته أن يسخرك لي، وإذا سألني عن خطبته أقول له: حسنة، يقول هذه إجازة منك والله، ويسر بذلك، ولا ينقم على أحد من الجماعة الذين تكلموا فيه في القاهرة، وحاسن الناس ومشّى الحال، وقام بوظائفه على طريقة أشبه من طريقته الأولى، وكان يذكر أنه يعرف بابن السبع من جهة الخؤولة، لأن جده لأمه كان رجلاً صالحاً ركب السبع فجرى عليه هذا اللقب.

وأما جده لأبيه فكان أميراً صاحب أقطاع، عتيقاً لشخص لم يحضرني الآن اسمه، وذكر أنه سمع الكتب الستة على الشيخ شرف الدين الدمياطي، و«السيرة» على الأبرقوهي، ولبس منه الخرقة بإلباسه من الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمهم الله، واستمر في الوظيفة إلى الحادي عشر من شهر ربيع الآخر أحد شهور سنة تسع وخمسين وسبعمائة، فاتفق في صبيحة العاشر من الشهر المذكور أن جاء ركب كبير إلى أن قربوا من باب البلد ونزلوا تحت القلعة، ولم يتحقق الناس منهم وظنوا أنهم قَفْلٌ من أهل ينبع.

ثم كشف الحال أنهم جماعة الأمير جماز بن منصور قدم المدينة متولياً لها بمرسوم السلطان، ومعه القاضي تقي الدين الهوريني متولياً، ومعهم مرسوم بعزل شيخ الخدام عز الدين دينار، وولاية الشيخ افتخار الدين، فعجب الناس من وصولهم إلى أبواب المدينة ولم يبلغهم الخبر.

وفي صبيحة الحادي عشر دخلوا المدينة، وخرج آل جماز من المدينة أشر خروج، حفاة فارّين من الأسوار والأبواب، فنادى الأمير جماز في أصحابه: أن لا يتبعهم منكم أحد، ومَنّ عليهم وعفى عنهم.

واستقر في القلعة الأمير جماز، وفي منصب الحكم القاضي تقي الدين الهوريني، وفي مشيخة الحرم الخزنداري نيابة عن افتخار الدين، واستقر القاضي تقي الدين على عادته في فصل الأحكام، وسياسة الأنام مقبلاً على العبادة والاشتغال بما يقربه من الله، وجريت معه على العادة في نيابة الحكم، فحاول الأمير جماز رجوع الإمامية إلى ما كانوا عليه، وأذن ليوسف الشريشير أن يحكم بين الغرماء، وظهرت كلمتهم، وارتفعت رايتهم، وأظهر الأمير لي وللمجاورين الجفاء والغلظة في الكلام، فسافر الناس في أثناء السنة إلى مصر وتحدثوا بذلك فبلغ السلطان فاغتاظ لذلك، وبلغه أيضاً ما جرى للشيخ ضياء الدين الهندي من الضرر في القلعة، فبعث مع الموسم شخصين أشقرين شقيين فقتلاه، وانتقل إلى رحمة الله شهيداً فباءا بذنبه.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فلما كان في أول سنة ستين وسبعمائة توفي القاضي تقي الدين إلى رحمة الله تعالى، وذكر أن مولده في سنة أربع وتسعين وستمائة تغمده الله برحمته، ووصل الخبر بموته إلى القاهرة.

فولي المنصب الشريف الشيخ الإمام العلامة المتفنن تاج الدين محمد بن عثمان الكركي(١)، فوصل إلى المدينة في آخر سنة ستين وسبعمائة، وكان

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن عثمان بن الخضر الأنصاري الصرخدي، ثم الكركي الشافعي... ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٣٥ (٣٩٨٢)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٦/أ، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٧ (١٣٥)

فاضلاً في مذهب الشافعي رضي الله عنه، وفي أصول الفقه، مشاركاً في العربية وغيرها، تفقه بالشيخ برهان الدين ابن الفركاح وطبقته مثل قاضي القضاة ابن البارزي وغيره، ومولده في سنة عشر وسبعمائة.

وجاء إلى المدينة بأخلاق رضية، ونفس زكية، فوجد اختلافاً كثيراً فَسَكّنه، وعيوباً جمة فَسَترها، وتحبب إلى قلوب المجاورين والخدام، واستمال الطلبة وحضهم على الاشتغال، وتبتل للإفادة فعكفت على محبته واعتقاده القلوب، وانطلقت الألسن بذكره وشكره.

وكنت أقول لأصحابي: هذا رجل لا يتطرق العيب إليه، ولا يجد العدوّ فيه مطعناً. فلما طالت إقامته في المدينة وكبر سنه وأولاده، لاذ به وبهم جماعة من شباب الطلبة الذين لم تحكمهم الليالي والأيام، ولم يربُّهم ذوو النهى والأحلام، فأظهروا إليه النصيحة بالكلام في أعراض أصحابه، ونقل مجالسهم إليه، والتنميم عليهم.

فأفسدوا عقيدته في أصحابه، وكان رجلاً متخيلاً، فصار يحمل نصحهم له على الغش له والنصيحة مرّة، فيتحقق عداوتهم له ويصدق النمامين بالظن والحدس والتخمين، وصار يتكلم في المجالس العامة بما تفر عنه الكبار وذوي العقول الراجحة.

ثم سعوا بينه وبين الخدام فأفسدوا ما بينه وبينهم من الأُلفة والمحبة، وكان قد فوض إلى الشيخ إفتخار الدين أحكام الحرم والوظائف، والكلام على الربط والأوقاف، وكنت ألومه على ذلك فلا يرجع إلى كلامي ففسد حال الناس من الجهتين، وأضرمت نار الفتنة، وافترقت الكلمة، وتحزب الناس أحزاباً، وحاول أن يعيد الأمور التي تتعلق به إليه بعد أن جعلها بيد الشيخ، فلم يتمكن من ذلك.

فاستحكم الفساد، وصارت آراؤه تصدر عن مشاورة الشبان، وبدت منه أشياء لا تليق بعقله وحسن سياسته، ونفر عنه أكثر المجاورين والخدام، ومالت عنه قلوبهم واجتمعت كلمتهم على غيره. فحينئذٍ أسفر له ضوء الصبح، وتبين له سبيل النجح، فلم يكن تلا في الحال، وانفرد في غوغاء أهل قيل وقال.

وفي مثل ذلك يقول القائل:

لا خير في الناس فَوْضَى لَا سَرَاة لهم ... ولا سَرَاة إذا جهالهم سادوا

إذا تولى سراةُ الناس أمرهم ... نمى على ذاك أمرُ الناس وازدادوا

تُهدى الأمورُ بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

واتفق له مع الخُدام موطن في بيته حضره جماعة من الأشراف، فلولا لطف الله تعالى لكان يحكي يوم الدار.

ولما سافر الناس إلى مصر قلّ الشاكر وكثر الشاكي، وكان قد عزلني عن نيابته في الأحكام، فجاءني في أثناء السنة وهي سنة خمس وستين وسبعمائة، توقيع شريف بأن أجري على عادتي في الأحكام، وأن لا يتعرض لعزلي أحد من الناس الحكام، وجاء للخدام أيضاً ما قويت به شوكتهم، وعلت به كلمتهم، فحينئذٍ أقبل على شأنه، حافظاً للسانه، متحرزاً من إخوانه.

ثم سافر إلى مصر مع الركب المصري ليمهد الأحوال، ويدرك جميع الآمال، فلما وصل إلى مصر تحقق أن سعيه في ذلك يسقط حشمته، وينقص حرمته، فاختار المقام بمصر فعزل.

وولي المنصب الشريف الشيخ الإمام العلامة جامع أشتات الفضائل، شمس الدين محمد بن سليمان الشهير الحكري المصري الشافعي[1]، وصل المدينة المشرفة في ذي الحجة سنة ست وستين وسبعمائة، إمام فاضل في مذهب الشافعي رضي الله عنه، رحلة في علم القراءات وما يتعلق بها من العربية والتصريف وغير ذلك، له تآليف عديدة مفيدة، منها: (شرح الحاوي) و(شرح الألفية)، وغير ذلك، وقام بالخطبة والإمامة أحسن قيام، لم يل هذا المنصب أحد ألين منه عريكة، ولا أكثر تواضعاً، ولا أصح منه سريرة، ولا أصفى قلباً للمجاورين، غير أنه وجد عند الخدام بقايا ذلك العناد الذي تأسس في أيام القاضي تاج

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٤٨٤ (٣٧٩٨)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٥/ب، «الدرر الكامنة» ٣/ ٤٥١ (١٢١٥).

الدين، فحاول إصلاح ذلك بالقوة والشدة فزادوا في مناصّته على الحد، وجرى بينه وبينهم مقامات لا يليق ذكرها، وصار حاله مع شيخ الخدام كما قيل:

بُليتُ بشخصٍ صاحبٍ غيرِ مُنصفٍ إذا جاءه وصلي أتاني جفاؤه
إذا ما استوى أمري تعوَّج أمرُه مخالفةً في كلّ شيءٍ أشاؤه

فصل

قد عنّ لي أن أذكر من أدركته من أمرائنا ومدة ولايتهم على سبيل الاختصار، معرضاً عما يتعلق بقصصهم، وشرح حالهم وسيرهم مع رعاياهم، إلا ما لا بد منه، فإن ذلك هو المقصود والذي أردناه.

فأول من أدركته من الأمراء الأمير عز الدين جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن حسين بن جعفر بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن فاطمة الزهراء البتول وعن ذريتهما الطيبة الطاهرة، وحشرنا في زمرتهم، ونفعنا بمحبتهم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كان الأمير جماز ـ رحمه الله ـ شجاعاً مهيباً سايساً حازماً، ذا رأي مصيب وهمة عالية، ترقت همته إلى أن قصد صاحب مكة وهو الأمير نجم الدين أبو نمي محمد[١] بن صاحب مكة أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني، وحاصره وانتزع منه مكة المشرفة، فاستولى عليها وحكم فيها وأقام بها مدة يسيرة، ثم عادت إلى أبي نمي، وذلك في سنة سبع وثمانين وستمائة[٢].

وكان والده الأمير شيحة متولياً على المدينة انتزعها من الجمامزة في سنة أربع وعشرين وستمائة، وطريق وصولها إليه أن صاحب المدينة المتولي عليها في أيام الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله العباسي، هو الأمير عز الدين أبو فليته قاسم[٣] بن مهنا،

---

(١) ترجمته في: «العقد الثمين» ١/٤٥٦ (١٤٤).

(٢) انظر: «إتحاف الورى» ٣/١١٨، حوادث سنة سبع وثمانين وستمائة.

(٣) تقدم ذكر ترجمته.

هكذا ذكره مؤلف «الروضتين في أخبار الدولتين» النورية، والصلاحية.

قال العلامة أبو شامة في «الروضتين»: وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، تغمده الله برحمته، محباً في الأمير قاسم بن مهنا، يستصحبه معه في غزواته وفتوحاته، فحضر معه أكثر الفتوحات، وكان السلطان صلاح الدين يجلسه عن يمينه ويستوحش لغيبته، ويستأنس بشيبته.

قال: وما حضر الأمير قاسم مع السلطان صلاح الدين حصار بلد أو حصن إلا فتح الله تعالى على المسلمين، فكان السلطان يعتقد بركة نسبه الطاهر، ويكرمه ويتحفه بأجل الكرامات.

وكانت فتوحات السلطان صلاح الدين ومآثره الحسنة للإسلام والمسلمين تحاكي فتوحات الصحابة رضي الله عنهم.

وقد عدّد صاحب «الروضتين»[١] منها شيئاً كثيراً.

فمن كلامه حكاية من كتاب كتبه السلطان صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد: (والآن قد خلص بحمد الله القدس الشريف من أيدي النصارى، وجميع مملكة القدس وضياعه وأعماله، والكرك أيضاً وحصونه، والشوبك وأعماله وجميع البلاد الشمالية إلى منتهى أعمال بيروت، وجميع أقاليم أنطاكية، وعسقلان وعكا ونابلس وطرابلس والرملة).

وذكر في موضع آخر نسخة من كتاب السلطان وعدّد فيه خمسين موضعاً ما بين مدينة كبيرة وصغيرة وحصون حصينة.

قال: وهذا خلاف ما لكل من الأعمال التي حولها.

وكان رحمه الله قد أفنى عمره في الجهاد لا يفتر عنه فصلاً متوالياً حتى توفي إلى رحمة الله تعالى، وكان الذي رباه ودربه على ذلك ورقاه إلى الرتبة العالية، الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بن زنكي آق سنقر رحمة الله عليه.

---

(١) انظر: «الروضتين في أخبار الدولتين»، ج٢ ص١٢٥ وما بعدها.

وقد خرجت بذكر هذين الملكين عن المقصود الذي أردناه لكن لمصلحة عظيمة، وهي إقامة الحجة على المتأخرين من الملوك، فإنهم يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير!!

فقد أظهر الله تعالى الحجة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد إن وفقه الله الكريم وسدده.

وكان الملك العادل الكامل نور الدين ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً، متمسكاً بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير مجاهداً في سبيل الله تعالى، وكان مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سُنّة يتبعها.

وقال أبو الحسن ابن الأثير[1]: وقد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين.

وكان كثير الصدقات، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار، مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك، وبنى أيضاً سور بعلبك، وكمّل بِناء سورِ المدينة[2] الشريفة النبوية، وهو سُورُها الموجودُ اليوم[3]، واسمه مكتوب على باب البقيع، رحمه الله.

وأجرى العين التي تحت جبل أُحُد وأظنها عين الشهداء، فإن العين التي أجراها معاوية مستبطنة للوادي وقد دثرت، ورسومها موجودة إلى اليوم، والله أعلم.

---

(١) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ٩/ ١٢٤.

(٢) لمزيد المعرفة ببناء سور المدينة، انظر: رسائل في تاريخ المدينة/ الرسالة (٢)، نشرها حمد الجاسر.

(٣) يعني إلى حياة المؤلف، وقد جدد السور بعد ذلك. انظر المصدر السابق.

وأما السور الذي داخل المدينة فإنما أحدثه الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور الأصبهاني، وكان وزيراً للشهيد الوالد الملك العادل، ثم استوزره بعد زنكي ولده غازي بن زنكي، وكان ممن يضرب به المثل في الجود والكرم والإحسان إلى أهل الحرمين، وعمر الحرمين الشريفين، وبنى الرباط المقابل باب جبريل الشهير برباط الأصفهاني، وكان يدعى له على المنبر النبوي.

ويقال: اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور.

وذلك أن العرب كانوا قد استباحوا أهل المدينة مراراً، فكانوا لا يتركون لأحد ما يواريه ولا ما يسد جوعته، فبنى عليهم هذا السور المذكور، فاحتموا به من العربان. وهذا السور باق إلى اليوم، قد أدخله الناس في دورهم وتملكوه. وكانت وفاة جمال الدين الوزير في سنة تسع وخمسين وستمائة.

ولنرجع إلى ذكر مآثر الملك العادل، رحمه الله، فمن جملة حسناته أن بنى بالموصل الجامع النوري، وبحماة الجامع الذي على نهر العاصي، وجامع الرها، وجامع مَنْبِج، وبيمارستان دمشق، ودار الحديث بها.

وله من المناقب والمآثر ما يستغرق الوصف.

وكان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن بيت مال المسلمين بعده، إلى أن حضر الفقهاء واستفتاهم فيما يحل له أخذه من مال المسلمين، فأخذ ما أفتوه به ولم يتعرض إلى غيره ألبتة. ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب، وأبطل المكوس من جميع بلاده، ومنع شرب الخمر وقمع البدع، وأخرج الروافض من حلب وأعمالها، وشتت شملهم، وكان ورده من نصف الليل إلى طلوع الفجر في صلاة وتلاوة وذكر.

وبعثت إليه زوجته تستقل النفقة على نفسها وعيالها فتنكر ذلك. وقال: من أين أعطيها! والله لا أخوض نار جهنم في هواها، فإن كانت تظن

أن الذي بيدي من الأموال هي لي، فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين وأنا خازنهم عليها، فلا أخونهم فيها. ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً وقد وهبتها لها فلتأخذها.

قال ابن الأثير: وكان بالجزيرة رجل من الصالحين، وكان نور الدين يكاتبه، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة. فكتب إليه بقوله: ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل بغير فائدة.

فكتب إليه بخطه: (والله ما يحمَلني على ذلك اللهو والبطر، إنما نحن في ثغرِ العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب ولا يمكننا ملازمة الجهاد شتاء وصيفاً إذ لا بد للجند من الراحة، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف والكر والفر في المعركة، فقصدنا أن نروضها بهذا اللعب).

فانظر إلى هذه النية الصالحة في اللُعب وكان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة، وكان رحمه الله متبعاً للشريعة وأوامرها، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فمن ذلك:

أنه كان يوماً يلعب بالكرة بدمشق فرأى شخصاً يكلم غلامه، أعني الملك العادل فأرسل الملك العادل يسأل عن حاجة الرجل، فأخبر أن فلان بن فلان قد جاء ومعه غلام القاضي، وذكر أن له مع الملك العادل حكومة، فرمى بالجوكان من يده وسار إلى القاضي.

وقال له: إني جئت مُحاكَماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري، فساوى بينهما وتحاكما، فلم يثبت على الملك العادل شيء، وكانت الحكومة في مِلْكٍ.

فقال نور الدين للقاضي ولجميع من حضر: هل ثبت له عندي شيء؟

قالوا: لا. قال: اشهدوا أني وهبت له هذا الملك وهو له دوني، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يُظن أني ظلمته.

واستدعى مرة أخرى إلى مجلس الحكم بحلب، فأجاب إلى ذلك.

قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظن والتهمة، وكتب إليه الشيخ عمر المُلّا وكان رجلاً صالحاً كبير الشأن: (إنّ المفسدين وقطاع الطريق قد كثروا، ويحتاج في هذا الأمر إلى نوع سياسة من قتل، وصلب، وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يشهد له).

فكتب نور الدين على ظهر الكتاب: (إن الله تعالى قد خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة ومصلحتهم تحصل فيما شرّعه على وجه الكمال، فلو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى الزيادة على ما شرعه الله تعالى).

قال: فجمع عمر المُلّا أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال: انظروا كتاب الزاهد إلى الملك العادل، وكتاب الملك إلى الزاهد. وقد صنف الناس في سيرة الملك العادل مصنفات عديدة، فلنقتصر على ما ذكرناه.

وذكر شمس الدين ابن خلكان أن الحصون التي افتتحها من الإفرنج تنيف على خمسين حصناً، مثل: بهشنا، وبانياس، ومرعش، وحارم، وغير ذلك، وكان قد ملك مصر والشام وأعمالها وحلب وأعمالها، والحجاز واليمن، وكان يخطب له مع الخليفة على سائر منابر تلك البلاد، وكان مولده رحمه الله في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ووفاته في سنة تسع وستين وخمسمائة.

وأما الملك الناصر صلاح الدين فسيرته مثل سيرته، لأنه انتشى بين يديه فتخلق بأخلاقه، وتأدب بآدابه، وكان نور الدين أكثر اجتهاداً في العبادة منه، وأكثر ورعاً وتقشفاً، وكان صلاح الدين أحسن منه أخلاقاً وأكثر حلماً وصبراً على ما ذكر، وقيل: إنه كان أكرم منه وأجسر منه على الدخول في المهمات الكبار، وكان محبباً إلى الرعايا أكثر من الملك العادل، وكان في الجهاد أعلى درجة منه، ولو لم يكن له إلا فتح القدس لكفاه، وكان فتح القدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وكان استيلاء الفرنج عليه في سنة

اثنين وتسعين وأربعمائة، وكان الحاكم على القدس يومئذ العبيديون، وكنا قد ذكرنا بعض فتوحاته.

وأما أوقافه وصدقاته فتكافيء ما فعله الملك العادل ـ رحمه الله ـ أو تكاد، وهو الذي ثبت قاعدة الخدام في الحرم النبوي، وأوقف عليهم الأوقاف، وكتاب الوقف موجود عندهم إلى اليوم، وكان الموقوف عليهم نحو العشرين خادماً بأعيانهم، ثم من بعدهم على خدام الحرم النبوي.

ثم أوقف عليهم الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون وقفاً آخر، ولهم اليوم منذ تقرروا في الحرم بالجامكية نحو مائتي سنة.

ومن العجائب أن أوقاف صلاح الدين في مدارسه أكثرها مشهورة باسم غيره من سكانها أو نظارها، أو المشدين على عمارتها، وهذه صدقة السر بعينها، ومن أعظم حسناته محوه لدولة العبيديين، وطمس معالمهم ورسومهم وآثارهم.

وكان بنو عبيد قد أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون، فملكوا البلاد، وقهروا العباد، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنَّ نسبتهم غير صحيحة والمعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي.

وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حداداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه فاطمي، وادعى نسباً غير صحيح، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبنى المهدية بالمغرب، ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثاً، عدواً للإسلام متظاهراً بالتشيع تستراً به، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم، فيتمكن من إفساد عقائدهم، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، ونشأت ذريته على ذلك، وانبثت الدعاة لهم في البلاد يضلون الضعفاء من الناس، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة.

وفي أيامهم كثرت الروافض واستحكم أمرهم، وكثرت المكوس على الناس، فاقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال بثغور الشام وغيرها، وظهرت النصيرية وغيرهم من طوائف المعتزلة، وهم إلى الآن.

وكانوا أربعة عشر مستخلفاً[1] ثلاثة منهم بأفريقية، وهم الملقبون: بالمهدي، والقائم، والمنصور.. وأحد عشر بمصر وهم الملقبون: بالمعز وهو أولهم، وإليه نسبت المعزية، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظاهر، والفائز، والعاضد. يدَّعون الشرف ونسبتهم على الحقيقة إلى يهودي أو مجوسي كما تقدم، واشتهر ذلك عند العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية، وكانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ويكتبون على جدران المساجد، ومثالبهم كثيرة، ومخازيهم عديدة.

ولكن لا بد من ذكر نبذة يسيرة ها هنا من أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وأباد أمتهم، وأطفى جمرتهم.

كان المهدي يرسل إلى الفقهاء والعلماء من يتسور عليهم ويذبحهم في فرشهم، وأرسل دعاتهم إلى الروم وسلطهم على الناس فمن وجدوه يفهم شيئاً. قالوا له: هو المهدي ابن رسول الله، وحجة الله. ويقولون لطائفة أجهل من هؤلاء: هو الله الخالق الرازق - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - ولما هلك قام ابنه المسمّى بالقائم وزاد شره على شر أبيه، وجاهر بشتم الأنبياء، فكان ينادي في أسواق المهدية: العنوا عائشة وبعلها، العنوا الغار ومن حوى.

وبعث إلى أبي طاهر القرمطي أمير البحرين وحضّه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف، فقدم إلى مكة وقتل الحجيج، وحمل الحجر الأسود، وأقام عندهم في البحرين نحو ثمانية عشر سنة وأزيد، ثم ردُّوه بعد قصص كثيرة يتعذر شرحها هنا.

---

(١) ذكر السيوطي في: «تاريخ الخلفاء» ص٤٨٢، أخبار هذه الدولة الخبيثة، فقال: فصل في الدولة الخبيثة العبيدية. وختم هذا الفصل بقول الذهبي: فكانوا أربعة عشر متخلفاً ولا مستخلفاً، انتهى.

وأما المعزُّ فكان يسرُّه ما ينزل بالمسلمين من الفرنج، واحتجب عن الناس بمصر، ثم ظهر وأوهم الناس أن الله تعالى رفعه إلى السماء، وأخبرهم بما كان يصدر منهم في أيام تحجبه بما يخبره به الجواسيس، فامتلأت قلوب العامة والجهلة منه، واستدعى فقيه الشام أبا بكر بن محمد الرملي ويعرف بابن النابلسي، فحمل إليه في قفص خشب فأمر بسلخه فسلخ حياً، وحشا جلده تبناً وصلب رحمه الله، وكان يقول وهو يسلخ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وأما المسمى بالحاكم فأمر بكتب سَبّ الصحابة على حيطان الجوامع والقياسر والشوارع، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسَبّ، وفي أيامه طوف برجل مغربي ونودي عليه: هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ثم ضربت عنقه، وأمر بقطع لسان أبي القاسم الواسطي أحد الصالحين بسبب أنه أذن في بيت المقدس وقال في أذانه: «حيَّ على الفلاح»، وكانت ولايتهم على الناس محنة من الله تعالى.

وكان ضرر هؤلاء على الإسلام أشدُّ من ضرر الكفار، وفي أيامهم استعاد النصارى القدس الشريف من المسلمين وبقي بأيديهم نحو ثلاث وتسعين سنة، حتى فتحه الله تعالى على يد السلطان صلاح الدين رحمه الله، وكان ظهوره منّةً من الله تعالى على العباد والبلاد، محا الله به هذه الدولة الخبيثة.

وكان قد دخل مصر مع عمّه أسد الدين شيركوه، وكان عمّه أسد الدين قد بعثه الملك العادل نور الدين المتقدم ذكره، فلما رأى أسد الدين مصر وأهلها طمع في استمالتهم وعلم أنهم ليس لهم صحبة، ولا للعاضد منهم نجدة، فلما رجع إلى نور الدين أخبره بذلك فجهزه بالجيوش والأموال، فبلغ ذلك العاضد ووزيره المسمى شاور، فاتفقا على منعه من الدخول إلى مصر، وعلما أنه لا طاقة لهم به، فاستنجدوا بمن قرب منهم من النصارى، وكانت السواحل كلها للنصارى، فأنجدوهم ومنعوا أسد الدين وصلاح الدين من الدخول، ولهم في ذلك قصص عجيبة لا يسع ذكره هنا.

فلما أدخلوا النصارى إلى مصر ورأوها، طمعوا فيها كما طمع فيها أسد الدين، فلما انصرفوا إلى بلادهم تجهزوا لذلك وحملوا عليه، فلما تحقق العاضد ما عرضوا عليه، بعث إلى نور الدين يستنجده عليهم، فسيّروا إليه أسد الدين وصلاح الدين، ومعهما الجيوش، فسبقوا النصارى إلى مصر، وحموها منهم فرجعوا خائبين، وأقام أسد الدين في مصر ومعه صلاح الدين، وصارت لهما يد على العاضد يدلان بها عليه، وعلما أنهما لن يصلا إلى مقصودهما مع وجود الوزير.

وصار أسد الدين يأمر في البلد وينهي مدلاً عليهم بما فعله معهم، ويظهر لهم نصحاً وصداقة، ويريد أن يصل إلى مقصوده بالاستدراج، وكان رأي صلاح الدين غير ذلك، فلم يزل صلاح الدين يتوقع قتله لوزير العاضد حتى ظفر به في الطريق في خلوة، فقبض عليه ولم يكن ذلك بأمر عمه أسد الدين وقيّده، ثم قتله بأمر العاضد، وتوزر أسد الدين للعاضد أشهراً يسيرة، ثم توفي إلى رحمة الله.

فقام صلاح الدين مقامه واستمال قلوب الناس بالسخاء والبذل حتى قويت شوكته، ونفذت كلمته، وتمكن من الخزائن والذخائر، فصار ينفقها في الأمراء والجند ووجوه الناس، فلم ينتبه العاضد لنفسه حتى وجد نفسه وحيداً فريداً، فكتب الملك العادل إلى الملك الناصر يحضه على قطع اسمهم من الخطبة، وأن يخطب للخلفاء العباسيّين، فحاول هذه القضية أياماً حتى وجد عليها مساعداً، وأمر أن يخطب للخليفة المستضيء بأمر الله فخشي الخطيب من ذلك، ولم يمكنه المخالفة، فخطب ودعا للخلفاء المهديين، فبلغ ذلك العاضد.

فقال: هل سموا في الخطبة أحداً؟ قيل له: لا. قال: سيسمون في الجمعة الآتية. ولم يمكنه مقاومة صلاح الدين فسكت، وانقطع في بيته وتمرض، فخطب في الجمعة الآتية للإمام المستضيء بأمر الله.

فقيل: إنه كان عنده خاتم تحته سم فامتصه، وبقي أياماً ثم هلك، وذلك في سنة سبع وستين وخمسمائة.

فقبض السلطان صلاح الدين على أولاد العاضد وملك القصر وما

فيه، وأباد تلك الدولة وأهلها، وأزال الله تعالى عن المسلمين الذلة، وأعقبهم بعد خوفهم أمناً، فلله الحمد وله المنة.

وهذا الذي ذكرته قطرة من بحر، فإن قصص صلاح الدين أمر عجيب، واستيلاؤه على هذه أمر غريب، ومن يومئذ ملك صلاح الدين مصر وأعمالها وأظهر العدل فيها، وكثر من الأوقاف والمدارس وأنواع القربات، ولم يزل بها حاكماً حتى توفي الملك العادل، فملك دمشق وكثيراً من أعمالها، وهو الذي افتتح اليمن للملك العادل، بعث أخاه إلى اليمن فملكها، وكان أخوه فيها نائباً من جهة الملك العادل.

ثم في آخر الأمر ملك السلطان صلاح الدين جميع ما كان يملكه الملك العادل، وخطب له في مصر والشام وحلب، وجميع تلك الأعمال، وكذلك في مكة والمدينة واليمن. ومع اتساع هذا الملك لم يخلف في خزانة ملكه بعد وفاته غير دينار واحد، وستة وثلاثين درهماً. ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا بستاناً ولا مزرعة، فإنه كان مغرماً بالجهاد والنفقة فيه، وبذل المكرمات على أمر الجيوش، وكان يجلس في كل يوم وليلة مرة لِبَثِّ المكارم، وكشف المظالم، ويجود قبل حصوله، ويُقطعه الناس قبل وصوله.

وكان يهب الأقاليم، ولما فتح «آمد» طلبها منه ابن قر أرسلان فأعطاه إياها، ولما فتح القدس جميع ما حصل له من الأموال فرقها على الأمراء وحَبَا بها الفقهاء، والعلماء والزهاد، ولم يرحل من القدس ومعه شيء لنفسه، وكان الذي أنفقه يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، ثم جاءه وفود ولم يبق معه درهم واحد، فباع فرسه من بيت المال وفرق ثمنها عليهم، وكرمه أظهر من أن يسطر، ومع ذلك فما سمع يقول: أعطينا فلان كذا، وما منعه من الحج إلا اشتغاله بالجهاد، وضيق ما في يده مع المملكة الواسعة، لكنه كان قد أسقط جميع المكوس والأعشار من البلدان.

وكان ـ رحمه الله ـ حسن العقيدة، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع المشايخ أهل العلم، وكان يُقرئ تلك العقيدة أولاده الصغار ويقرؤنها عليه من حفظهم، وكان شديد المواظبة على الجماعة، وإذا مرض

طلب الإمام إلى عنده حتى تحصل له فضيلة صلاة الجماعة، وكان يتكلف الصلاة قائماً في مرض موته، رحمه الله.

وكان شديد الرغبة في سماع الحديث، وسماع القراءات ممن له صوت حسن، وكان كثير التعظيم لشعائر الدين مبغضاً لجميع طوائف المبتدعة، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه، وكان معظماً للشرع منقاداً لأوامره، وقد جرى من المحاكمة نحو ما جرى للملك العادل، رحمهما الله تعالى.

وكان من أعظم الشجعان قوي النفس شديد البأس على الكفار، عظيم الثبات لا يهوله أمرهم، ولا تهمه كثرتهم أصلاً، وكان منصوراً عليهم في الغالب.

وكان شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد تبتله للجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد ترغيباً في الجهاد، لصدق وبر في يمينه، والذي وهب من الخيل في مرج عكا عشرة آلاف رأس.

وكان المسلمون في تلك الوقعة بالنسبة إلى النصارى مثل الشامة فيهم، ولقد وصل إلى النصارى على كثرتهم نجدة جاءتهم في البحر فَعُدّ ما وصل إليهم في ليلة واحدة فكان نيّفاً وسبعين مركباً. وهو لا يزداد إلا قوة نفس، وثبات قلب، ولقد انهزم المسلمون في ذلك اليوم الميمنة والميسرة والقلب، ووقع الكوس والعلم، وهو ثابت في نفر يسير من المسلمين قد انحاز بهم إلى الجبل، وهو يريد الناس ويخجلهم، ولم يزل يجمع الناس حتى ردوا على العدوّ وقتلوا منهم سبعة آلاف ما بين راجل وفارس، ولم يزل مصابراً لهم حتى ظهر له ضعف المسلمين، فصالح النصارى ففرحوا منه بذلك، وكان هذا دأبه إذا رأى الغلبة له استأصلهم، وإذا رأى الغلبة عليه صالحهم، كل ذلك ليتوفر جيش الإسلام ويقوى.

وكان ـ رحمه الله ـ سلطاناً عادلاً رفيعاً حليماً ناصراً للضعيف على القوي، وكان حسن الأخلاق لطيف العشرة حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها، وكان طاهر المجلس لا يذكر بين

يديه أحد إلا بخير، طاهر اللسان من السب والشتم، لم يكتب بقلمه أذًى لمسلم قط.

ومناقبه قد صنفت فيها مصنفات عديدة، ولا شك أن سيرته وسيرة الملك العادل حجة الله تعالى على من بعدهما من الملوك والأمراء وغيرهم، ولهذا ذكرت هذه النبذة اليسيرة ليتنبه بها من يقف عليها، والله الموفق.

وفي أيامه رحمه الله ركب الفرنج من الأمر العظيم فِكراً، وافتضّوا من البحر طريقاً بكراً، وذلك أنهم عمروا مراكب حربية وشحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ووجهوها إلى سواحل الحجاز، فبعضهم توجه إلى عيذاب، وأذاقوا أهلها العذاب، وأسروا تجار اليمن ونهبوا ما معهم، وبعضهم توجه إلى أرض الحجاز.

وكان الذي فعل ذلك الإبرنس(*) صاحب الكرك، وذلك أنه لما صعب عليه ما يواليه من ممالك السلطان صلاح الدين، أعمل الحيلة فبنى سفناً وأتقنها، ثم نقل أخشاباً إلى الساحل ثم ركب المراكب هناك وعمرها. فلما توجهوا إلى أرض الحجاز، أشرف أهلُ المدينة على الخطر، ووصل إلى مصر الخبر، وبها الملك العادل أخو صلاح الدين نائباً عنه. فاشتد حزن المسلمين لثناء بيت الله الحرام، ومقام خليله الأكرم، وضريح نبيه الأعظم، فجهز الملك العادل مراكب في البحر وشحنها بالمقاتلة أهل النخوة للدين والحمية، البائعين لله تعالى أنفسهم، فقصدوهم، وكانوا قد افترقوا فرقتين كما تقدم، فألفوا المراكب التي توجهت إلى الحجاز في أرض رابغ، ومن جهة ينبع في أرض الحوراء، والآخرين في عيذاب، فواقعوهم وأوقعوا بهم فظفرهم الله بجميعهم، وتبعهم في الجبال والشعاب وحصروهم حتى أمكنهم الله منهم ولم يَقِهِم منهم أحد، وعادوا إلى القاهرة بالأسارى، فأمر السلطان صلاح الدين بضرب رقابهم حتى لا تبقى منهم عين تطرف، ولا أحد يخبر عن طريق ذلك البحر ولا به يعرّف.

وكان الذي دل الإفرنج على ذلك الطريق وأخبرهم بعورات الساحل

(*) في (أ): «الأبرش».

ناس من العرب أشبهوهم في الكفر، ثم أن السلطان صلاح الدين توجه بهمته إلى جهادهم، ففتح الله تعالى عليه الكرك وأعمالها، وطهر الله تعالى الناحية منهم، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكانت وفاة السلطان صلاح الدين رحمه الله في سنة تسع وثمانين وخمسمائة. ومولده في اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

واتَّفَقَ في سنة سبع عشرة وسبعمائة أن خرجت طائفة من النصيرية القائلين بقول العبيديين، القائلين بقولهم في بلاد الشام، وكان أكثر أتباع العبيديين القائلين بقولهم ظاهراً وباطناً في ثغور الشام، فخرجت هذه الجماعة النصيرية عن الطاعة وأقاموا شخصاً ادعوا أنه المهدي، وقاتلوا الناس، وادعوا أن المسلمين كفرة وأنّ دين النصيرية هو الحق، ورفعوا أصواتهم بقول: لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد. وبسب أبي بكر وعمر، وخربوا المساجد، وجعلوها خمارات، فخرج عليهم عسكر المسلمين فكسروهم، وقتلوا منهم جماعة واضمحل أمرهم، ومزقهم الله كل ممزق.

انعطافٌ على ما تقدَّم
من ذكر الأمير قاسم بن مهنا وذريته

وكان الأمير قاسم بن مهنا منفرداً بولاية المدينة المشرفة من غير مشارك ولا منازع، فلما توفي تولى موضعه أكبر أولاده، وهو جماز جدُّ الجمامزة، واستمر فيها إلى أن توفي، ثم استقر في موضعه ولده قاسم بن جماز بن قاسم بن مهنا، واستقر فيها إلى أن قتله بنو لأم.

وكان الأمير شيحة نازلاً في عربِه قريباً منه، فلما بلغه قتل قاسم توجه إلى المدينة مسرعاً حتى دخلها وملكها، وذلك في سنة أربع وعشرين وستمائة فاستقر فيها، ولم يتمكن الجمامزة من نزعها منه ولا من ذريته، وأقام شيحة في الولاية مدة طويلة، وكان يَستَنِيبُ في الولاية على المدينة إذا غاب ولده عيسى، فقدر أن الأمير شيحة توجه إلى العراق فظفر به بنو لأم فقتلوه، وكان ولده عيسى في المدينة، فطمع الجمامزة في المدينة فجاء منهم جماعة على غفلة قاصدين الاستيلاء على المدينة، ففطن بهم الأمير عيسى فقبض عليهم، وقيل: إنه قتلهم، والله أعلم.

واستقر الأمير عيسى على الولاية مدة، ثم إنه أظهر لأخويه منيف وجماز الكراهية لإقامتهما معه في المدينة فأخرجهما، ومنعهما من الدخول.

فاتفق رأيهما على خلعه من الولاية، وإعمال الحيلة في ذلك، فكاتبا وزيره في ذلك، وكان من العنانيين فأمرهما بالقدوم عليه، واحتال لهما إلى أن أدخلهما الحصن العتيق بالليل، ولم يكن يومئذ للإمارة حصن غيره، فقبضا على عيسى وقيداه، وأصبح حاكم المدينة الأمير أبو الحسين منيف بن شيحة، وذلك في سنة تسع وأربعين وستمائة، ولم يزل حاكماً بالمدينة وأخوه جماز يوازره ويساعده إلى أن توفي في سنة سبع وخمسين وستمائة،

فوليها من ذلك التاريخ الأمير عز الدين جماز بن شيحة، ولم ينازعه أخوه الأمير عيسى بن شيحة.

ثم إن ابن أخيه مالك بن منيف انتزعها منه في سنة ست وستين وستمائة، فاستنجد عليه الأمير جماز بأمير مكة وبغيره من العربان، وسار إلى المدينة، فلم يقدروا على إخراجه منها، فلما أيسوا رحل صاحب مكة وغيره من العربان، وبقي الأمير جماز مع جماعته. فأرسل إليه الأمير مالك بن منيف يقول له ما معناه: أراك حريصاً على إمارة المدينة وأنت عمي وصنو أبي، وقد كنت له معاضداً ومساعداً ويجب علينا أن نحترمك ونرعى لك حقوقك، وقد استخرت الله تعالى ونزلت لك عن إمارة المدينة طوعاً لا كرهاً، فسُرّ بذلك الأمير جماز وحمد الله تعالى على حقن الدماء وبلوغ المقصود، واستقل بالإمارة من يومئذ، فلم تخرج عن يده إلى أن مات، واستقرت بيد ذريته إلى الآن.

وكان الأمير جماز ذا رأي مصيب وكرم عظيم على إخوته وبنيهم يؤلفهم بالعطاء الجزيل، حتى استمال قلوبهم، وقوي أمره بينهم وعضده أولاده، وكان إخوته ثمانية، منهم: منيف وعيسى ومحمد جد الفواطم، وأبو رديني جدُّ الردنة، وكان أولاد جماز أحد عشر ولداً، وعاش الأمير عيسى إلى أن توفي في سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وأقام جماز في الولاية مستقلاً بها من غير منازع من يوم سلَّمها له مالك بن منيف إلى سنة سبعمائة.

فلما كان عام سبعمائة خلع الأمير جماز نفسه من الولاية ونزل عنها لولده الأمير منصور، وأمر أن يخطب له على المنبر، وحالف الناس على طاعته ونصرته وذلك لأنه كان قد أضر في آخر عمره وشاخ وضعف، وكان ولده منصور أبرّ أولاده به، فحسده إخوته، وتقدم أنهم كانوا أحد عشر، منهم: منصور وسند ومقبل وودي وقاسم ومسعود وراجح ومبارك وثابت وآخرون.

وكان للأمير منصور أيضاً أحد عشر ولداً، وهم: كبيش وكبش وطفيل وجماز وريان وعطية وكوير وحقان ونعير ونجاد، وشخص آخر لعله نُمي،

فوقع الحسد والتباغض والتدابر بين الأمير منصور وإخوته إلا القليل، وطلع الأمير منصور إلى القلعة الموجودة اليوم، وكان الأمير جماز قد بناها لنفسه ليتحصن فيها ويكشف منها ضواحي المدينة، فلما خلع نفسه عن الولاية نزل إلى داره التي في عرضة السوق المعروف بدار حرثمة، واستقر فيها إلى أن مات في سنة أربع وسبعمائة.

ثم إن أولاد الأمير جماز انفردوا وأمَّروا عليهم أخاهم مقبلاً، وصاروا يحاصرون المدينة ولا يقدرون عليها، ثم إنه اتفق في سنة تسع وسبعمائة أن سافر الأمير مقبل إلى الشام لبعض مصالحه، فلما عزم على السفر إلى إخوته استعمل سلماً طويلاً مفصلاً يتركب بعضه في بعض، وهو اليوم موجود في الحرم الشريف.

فلما حاذى المدينة ساروا إليها مع جماعة يسيرة من أصحابه ونصب السلم على الحصن ودخله على غفلة، وذلك في ليلة السبت ثامن عشرين شهر كذا من السنة المذكورة وكمن في الحُصن إلى الصباح، ولم يكن بالمدينة غير كبش بن منصور، فظن مقبل أن أهل المدينة لا يواجهونه بالمقاتلة نهاراً، وأن كبشاً ينجو بنفسه من الذبح هارباً، فلما علم بهم كبش استصرخ بأهل المدينة فأصرخوه وقاتلوا معه، فقتل الأمير مقبل وقتل أيضاً أبناء أخيه جوشن وقاسم أبناء قاسم بن جماز، فعظمت الواقعة على أولاد مقبل وإخوته، فقدموا عليهم الأمير ودي بن جماز وقاموا في طلب الثأر، واستحكم بينهم الفساد، وكثرت بينهم الحروب، وعظمت على منصور النفقات للجيوش.

فلما كان في سنة ست عشرة وسبعمائة حصل له ضيق وشدة، فطلب من الخدام المَخبزين ألف درهم من كل واحد، فامتنعوا وقالوا: لا نفعلها سُنَّة أبداً، فأنزل منهم جماعة في الجُبِّ، فجاءه بعض المجاورين وقالوا: نحن نتقدمهم في النزول، ووقع في ذلك كلام كثير، ثم فرج الله عنهم.

فبلغ ذلك السلطان، فأمر أمير الحاج المصري بمسك منصور، فلما قدم أمير الحاج مسك الأمير منصور وولده كبش وسار بهما معتقلين إلى مصر، فلما دخل الركب إلى القاهرة رسم عليهما في دار الضيافة نحو شهر،

ثم استدعاهما السلطان الملك الناصر، وتهددهما على ما فعل منصور، وشرط عليه شروطاً أنه لا يؤذي المجاورين والخدام، وأنَّ ولده كبش يحمل عياله إلى مصر ويقيم عند السلطان، ثم أخلع عليهما وخلّا سبيلهما.

واتفق في أول يوم من المحرم بعد مسك منصور ورحيل الحاج من المدينة، أن الأمير ودي وأولاد مقبل أغاروا على المدينة، فخرج إليهم جماز بن منصور فقاتلهم، فقتل من أهل المدينة نحو سبعة أنفس، ورجع جماز إلى المدينة، ثم بعد ذلك بأيام أغاروا مرة ثانية، فملكوها وخرج جماز بن منصور منها، فوصل الخبر إلى السلطان ومنصور عنده، فسير معه عسكراً عدتهم تسعون فارساً تُركاً وعرباً، فوصلوا إلى المدينة في شهر ربيع الأول من سنة سبع عشرة وسبعمائة، فامتنع أولاد مقبل من الخروج ساعة، ثم رأوا أن لا طاقة لهم بالحاضرين فخرجوا على خيولهم هاربين، فأرسل منصور خلفهم فمسك مبارك بن مقبل، ثم منَّ عليه وخلا سبيله، وبقي العسكر في المدينة يومين أو ثلاثة ثم رحلوا منها، فجمع ودي وأولاد مقبل عرباً كثيرة وساعدهم قتادة صاحب ينبع فحاصروا المدينة، فخرج منها منصور هو وولده كبش وتوجها إلى السلطان، فوجدوا في طريقهم عسكراً، وجهه السلطان إلى مكة ومقدمهم سيف الدين أيدمش، فسألهم المساعدة على ودي، وأن يمكنوه من المدينة. فاستمهلوه وكتبوا إلى السلطان بذلك، وساروا إلى مكة، فبعث إليهم السلطان يأمرهم بنصرته، فقدموا معه إلى المدينة، فخرج إليهم ودي وأولاد مقبل وجرى بينهم قتال، وقتل ماجد بن مقبل، وكانت الواقعة في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، وانكسر ودي وجماعته، وتسلم منصور المدينة، ودخلها العسكر فنهبوها حتى القلعة وبيوت الشرائف، وأقاموا نحو ثلاثة أيام، ثم رحلوا، واستمر ودي وأصحابه يغيرون على المدينة إغارة بعد إغارة.

ولما استقر الأمير منصور في المدينة نزل من الحصن وجلس في وسط الحرم، وقال: اجمعوا كل من في المدينة من المجاورين والخدام فجمعوا. وكأنه تخيل أنَّ ما جرى عليه من المسك والاعتقال كان عن مكاتبة من الخدام والمجاورين.

ثم قال لكل من الحاضرين: ما اسمك؟ فإذا عرفه قال له: ما بلدك؟ فإذا أخبره قال له: دونك بلدك، فإن تخلفت حل مالك ودمك. وتبعهم بهذا الكلام واحداً واحداً، ثم قام فحصل للناس هَمٌّ وغَمٌّ، وبقوا في شدة عظيمة خصوصاً من له عيال.

فقال لهم شيخ الخدام الحريري: لا يهمنكم ما وقع، من كان معه شيء فليكتر لنفسه، ومن كان فقيراً فأنا أحمله وأحمل عياله حتى تبلغوا مأمنكم، وبعث لبني سالم وغيرهم من العربان يأتونه بالجمال، وكان للأمير منصور زوجة صالحة.

فقالت له: يا منصور هَبْ أنك تسلم من الملك الناصر، ألا تخاف من يسمع بذلك من العربان كآل فضل وخالد وبني لأم، فإنهم يرون هذا منا كفراً. ولم تزل به حتى أرسل إلى الجماعة بأنهم يستقرون على أنهم لا يكتبون فيه، ولا يشهدون عليه. وكان بعض الشياطين أشار عليه بأن يأخذ الخمس من الناس، فوكل بذلك شخصاً من أهل الشر يزعم أنه من كبار المجاورين الناصحين لهم، فكان يأتي الرجل الصالح في رباطه والمرأة الصالحة في رباطها فيقول: كم جاءك يا فلان في هذه السنة من الصدقة؟

فيقول له: كذا وكذا. فيكتب ما قيل له ويزيد عليه، ويتتبع الوظائف كلها فيأخذ منها الخمس من كل خمسة دراهم درهم، وضاق الناس من ذلك واستمر ذلك ثلاث سنين، ثم قطعه الله تعالى.

واتفق أن طلع عليه والدي ـ رحمه الله ـ لما طلب منه ذلك، فلما رآه الأمير منصور قال له: ما اسمك؟ فقال له: فلان. فقال له: كم لك في المدينة؟ فقال له: نحو عشرين سنة. فقال له: أنت عندنا هذه المدة ولا نعلم بك ما أظنك إلا رجلاً جيداً.

ثم قال له: أشهدك الله هل تعلم أن الذي أطلبه منك حق عليك أم لا؟ فقال: اللهم لا. فقال الأمير لغلمانه: لا تتعرضوا له.

وكان له اعتقاد حسن وفيه شفقة ورحمة، كان رحمه الله يحضر ميعاد

محمد بن إبراهيم المؤذن بعد العصر فيستدنيه فيقرأ قريباً منه، فلا يزال يبكي حتى تبلَّ دموعهُ ثيابه، رحمة الله عليه.

ولما كان في سنة خمس وعشرين وسبعمائة في شهر رمضان، كان الأمير منصور نازلاً في عربه في أعز ما يكون، وآمن ما يكون، وكان حرّيثه بن قاسم بن جماز أخو فضل بن قاسم نازلاً معه، وكان آمناً من جهته، فخلا به يوماً فضربه بالرمح فقتله، وظن أنه ينجو على فرس كانت هناك، فأدركه بعض أصحاب الأمير فمسكوه وقتلوه في تلك الساعة. وكان مولد الأمير منصور رحمه الله في سنة خمس وخمسين وستمائة.

ثم تولى إمارة المدينة كبيش بن منصور وكانت ولايته نحو سنة وخمسة أشهر، ولم تصفُ له تلك الأيام.

ولما كان في سنة سبع وعشرين في صفر جاء ودي وولده عسكر وجماعة من أصحابه، فدخلوا المدينة على غفلة في وقت السحر من ناحية ذروان، وكان في المدينة طفيل نائباً عن كبيش، فالتقاهم في ذروان(١)، فقتل هاشم بن علي وسنان، وانكسر طفيل وجماعته، فخرج من درب البلاط ونجىٰ بنفسه وأصحابه، واستقر ودي في المدينة وتوجه طفيل إلى السلطان فأخبره الخبر وأقام في مصر، فطمع ودي في مرسوم السلطان، فجهّز خيلاً وهدية وتوجّه إلى السلطان في شهر رمضان من السنة المذكورة، فلما دخل على السلطان قبل الخيل والهدية، واستمهله حتى انسلخ شهر رمضان.

فلما كان ليلة العيد مسكه وقيده وحبسه، ورجع طفيل إلى كبيش عند العرب فجهز كبيش خيلاً هدية وبعثها مع طفيل إلى السلطان، فوصل بها في الثاني عشر من شهر شعبان سنة ثمان وعشرين، فقبلها السلطان.

فلما كان في الحادي والعشرين من الشهر المذكور، وصل الخبر إلى مصر أن أولاد مقبل بن جماز قتلوا الأمير كبيش في يوم الجمعة سلخ شهر رجب من السنة المذكورة، فأعطى السلطان إمارة المدينة للأمير

---

(١) تحرف هذا الاسم وأصبح يعرف بـ«ضروان»، وهو موضع البئر التي ألقي فيها سحر النبي ﷺ.

طفيل بن منصور وأخلع عليه وكتب تقليده، وتوجه إلى المدينة، فوصلها في الحادي عشر من شهر شوال من السنة المذكورة، وخرج منها عسكر ودي وأصحابه.

واستمر طفيل ـ رحمه الله ـ في المدينة حاكماً مدة ثمان سنين وثلاثة عشر يوماً، واستمر عسكر بن ودي وأولاد مقبل يشنون الغارات على المدينة، ويرعون زروعها ويحرقون نخيلها ويجدون ثمرها، وفي تلك الغارات قتل علي بن ودي، وعجاجة وغيرهما، وذلك في سنة تسع وعشرين. ثم خرج إليهم القاضي شرف الدين والخدام وصالحوهم على خمسة عشر ألف درهم، وعلى ثمرة أملاكهم، وأملاك من يلوذ بهم.

فلما تم الصلح بينهم وبين الأمير طفيل، استنجد طفيل بصالح بن حريث من آل فضل، وبعمرو بن وهيبة من آل مُرّا، وبعَسّاف بن متروك الرزاق، فجاؤوه في جموع عظيمة، وكانوا ألفي فارس وخمسمائة راحلة، وباقيهم رجال، وجمع طفيل من بني حسين ما أمكنه، وخرج بالترك الذين كانوا معه في المدينة وساروا جيشاً عظيماً، وأغاروا على عسكر بن ودي وأولاد مقبل، وكانوا ثمانية عشر فارساً وقيل خمسة عشر، وقيل ستة عشر، فكسروا هذا الجمع العظيم، وخلصوا منه سالمين بقدرة الله تعالى، وذلك بسبب الغدر بهم عقيب المصالحة.

وأما ودي فاستمر محبوساً من التاريخ المتقدم إلى خامس شهر رمضان من سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، فكانت مدة حبسه نحو أربع سنين، ثم فرج الله تعالى عنه.

ولما كان في سنة ست وثلاثين وسبعمائة، توجه طفيل إلى مصر واستخلف في المدينة ولده المسمى عجمي، وكان وزير طفيل يومئذ علي بن مبارك الحسامي، فلما كان في شهر رجب جاء ودي وجماعته إلى المدينة وحاصروها، فلما كان في بعض الليالي دخلوا المدينة على غفلة في وقت السحر من الحديقة التي في زقاق قريش، وكان في المدينة الأمير عطية والأمير زيان أبناء منصور وغيرهم، فأدركوهم في الحديقة المذكورة، ووقع بينهم قتال شديد، ثم رجعوا من حيث دخلوا من السور وأقاموا محاصرين المدينة.

ثم اتفق أن جاء كتاب من عند السلطان إلى الأمير ودي بأن لا يتعرض للمدينة، ولا يقربها فرحل عنها، ووقع من القاضي شرف الدين الأميوطي ما تقدم ذكره في ترجمة الشريف يعقوب، وأمر الوصية التي بعث بها الشريف يعقوب من العرب، فغضب السلطان على طفيل.

فلما كان في شهر شوال من السنة المذكورة وصل جحيدب بن منيف بن قاسم بن جماز، وسعد بن ثابت بن جماز من مصر ومعهما كتاب من السلطان إلى القاضي شرف الدين، مضمونه أن نحن قد سلمنا إمارة المدينة إلى الأمير بن مزروع ودي بن جماز، وقد كتبنا له بذلك تقليداً، فيمكن نوابه من المدينة، ويمنع آل منصور أن يتعرضوا لأذيَّة الناس، وأن يمسكوا شيئاً من جمال السواني فيرتحلوا عليها.

فخرج آل منصور من المدينة، ولم يتعرضوا لجمال السواني. وتحمل الوزير المذكور بأهله وأولاده وماله على البقر. ثم وصل الأمير ودي إلى المدينة في شهر ذي القعدة، وقرأ منشوره على دكة المؤذنين العليا، وحبس الأمير طفيل نحو أربعين يوماً، ثم أخرج من الحبس، وأنعم عليه بأخباز يستعين بها، ورسم لهم بأملاكهم التي بالمدينة، واستمر الأمير ودي حاكماً في المدينة.

فلما توفي الملك الناصر في شهر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة توجه ودي إلى مصر فقرر على ولايته، ورجع إلى المدينة واستمر حاكماً إلى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

فلما كان في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، توجه طفيل إلى المدينة ومعه جميع آل منصور بأهلهم وأموالهم، ونزلوا تحت جبل سلع مما يلي المدينة، وكان نائب المدينة عن ودي جحيدب ومعه قلاوون بن حسن بن مقبل، فلما كان في السحر تلك الليلة التي قدموا فيها، نصبوا سلماً على السور ودخل المدينة من آل منصور فلم يقاتلهم أحد، ثم داروا على الدروب فكسروا أقفالها، وفتحوا أبوابها، ودخلوا المدينة جميعهم ونهبت في تلك الليلة بعض الدور، وكسرت العرب جميع دكاكين السوق ونهبوا ما فيها، فلما طلع النهار نادى الأمير طفيل بالأمان، فأمن الناس

وخرجوا إلى الأمير طفيل وهنوه بالنصر والولاية، وقبض طفيل على جحيدب وقلاوون وقيدهما في بعض دور المدينة، فأقاما نحو ثمانية أيام، ثم قتلا خنقاً، والعياذ بالله.

واستقر الأمير طفيل في المدينة، فكانت مدة ولاية الأمير ودي سبع سنين وشهراً وأربعة أيام، ثم إن الأمير طفيلاً بعث إلى مصر أخاه جمازاً مع الركب المصري، فأنعم عليه السلطان وقرر طفيلاً على إمارة المدينة، وكتب له بعد تقليداً، وبعث إليه بالخلعة والتقليد، وكان السلطان يومئذٍ الملك الصالح إسماعيل بن محمد، ثم توجه طفيل إلى مصر فأكرمه السلطان وقرره على ولايته، ومكث الأمير ودي عند أهله وأقاربه إلى أن توفي رحمه الله في سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

وكان أميراً رئيساً محتشماً مهيباً معظماً، ذا عقل ورأي، ودهاءٍ وشجاعة. وكان ولده عسكر أعظم منه في هذه الأوصاف كلها. توفي رحمه الله في حياة والده بالمدينة المشرفة في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، ومولده سنة تسع وتسعين وستمائة.

ولما توفي الأمير ودي قدّم آل جماز عليهم فضل بن قاسم، فلما كان في شهر المحرم سنة تسع وأربعين، جاء الأمير فضل مع جماعة من أصحابه إلى المدينة وتسور السور ودخلوا المدينة، وجاؤوا إلى الساحة وكسروا قفل درب الغنم، ودخلوا بخيلهم ورجلهم ولم يشعر بهم أحد، ثم قصدوا القلعة ودقوا بابها، فلما عَلِم بهم من كان بالقلعة، صاحوا واستيقظ أهل المدينة وفزعوا إلى القلعة، فالتقوا مع آل جماز، وجرى بينهم قتال، ثم انتصر أهل المدينة عليهم، وأخرجوهم من الدرب فرجعوا إلى أهلهم ولم يحاصروا المدينة، واستمر الأمير طفيل رحمه الله حاكماً على طريقة حسنة، ومآثر مستحسنة، إلى سنة خمسين وسبعمائة، فصدرت منه أشياء عن تدبير بعض الوزراء لا تليق بمثله، فكتب فيه القاضي شرف الدين الأميوطي، وقد ذكرنا ذلك.

في أثناء تلك السنة جاء الخبر أن السلطان قد ولى سعد بن ثابت بن جماز إمارة المدينة. فلما كان في شهر ذي القعدة جمع الأمير طفيل جميع

آل منصور وخلقاً كثيراً من العرب، وعزم على منع سعد بن ثابت من دخول المدينة. فقدم سعد مع الركب الشامي، فبلغه ما عزم عليه الأمير طفيل، فطلب المساعدة من أمراء الركب الشامي، فامتنعوا. وقالوا: لابدّ من إذن السلطان لنا في ذلك، فرحل سعد من البركة، وبعث إلى السلطان يستأذنه في ذلك، ودخلت الحواج جميعها دفعة واحدة، وهم خائفون مما يحدث عند تغير الدول ـ والعياذ بالله ـ وأقاموا في المدينة يومين، ورحلوا جميعهم دفعة واحدة في صبيحة اليوم الثالث، وأودعوا في المدينة ما جرت عادتهم في ذلك.

فلما كان في اليوم السادس عشر من ذي الحجة جاء قاصد الأمير طفيل من مكة، وأخبر آل منصور بما أزعجهم وهو مرسوم السلطان لجميع أمراء الحواج أن يمكنوا سعداً في المدينة.

فلما كان في ليلة الجمعة ثامن عشر الشهر المذكور، اتفق رأي آل منصور على نهب المدينة، وكان الأمير طفيل لذلك كارهاً ثم غلب على رأيه، ونهب آل منصور وأتباعهم، ومن معهم من بني حسين، ومن حضر المدينة من الخيابرة وغيرهم، جميع الوضيع الذي للحاج الشامي، ولم يسلم لهم إلا النادر في بيوت معدودة كما تقدم، ونهبوا دور الخدام والمدارس، واستمر النهب من عشية الخميس إلى آخر نهار الجمعة، وخرج آل منصور جميعهم من المدينة في ليلة السبت.

وجلست هيمان بنت مبارك بن مقبل في القلعة في شباك الإمارة يوم السبت، وتسلمت مفاتيح الدرب وحكمت في المدينة يوم السبت ويوم الأحد إلى الظهر. ثم وصل محمد بن مقبل بن جماز وغيره، ودخل الأمير سعد بن ثابت يوم الثلاثاء مع الركب المصري، وقُرئ منشورهُ يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

وفي سنة إحدى وخمسين ابتدأ الأمير سعد في عمل الخندق الذي حول السور، ومات ولم يكمله، وأكمله الأمير فضل في ولايته، ولما كان في شهر شوال من السنة المذكورة جاء آل منصور على غفلة، ودخل المدينة منهم ثلاثة أمراء من سور باب البقيع، وحاولوا كسر قفل الدرب، فأعجلهم

بعض الترك من المدينة، فرجعوا من حيث دخلوا وأصبحوا محاصرين المدينة، ورعوا الزرع وقطعوا الأشجار.

ولما كان في أول سنة اثنتين وخمسين، توجه الأمير طفيل إلى مصر فغضب عليه السلطان وحبسه في القلعة، وكتب السلطان إلى الأمير سعد يأمره يُحضِر ما أخذ طفيل للحاج، ولأهل المدينة، فحضر بعض ذلك، وكتب به محضراً وسير به إلى السلطان وكثرت شكاوى التجار على طفيل، فغرم للبعض وصالح البعض، وندم على ما وقع، واستمر محبوساً إلى أن توفي في الحبس في شهر شوال من السنة المذكورة.

وكان ـ رحمه الله ـ خليقاً للملك، سلطاناً مهيباً معظماً محبباً إلى الرعية، عالي الهمة، كامل السؤدد، جم المناقب، يوالي المجاورين، ويحسن إليهم ويقبل شفاعتهم، ووالانا بأحسن الموالاة، ونصرنا في مواطن عديدة، وكان بينه وبين أخي علي صحبة أكيدة قَلَّ أن يرد شفاعته، تغمده الله برحمته.

وفي هذه السنة توجه الأمير سعد لقتال آل منصور، فانهزم عنه أصحابه، وجرح ورجع إلى المدينة في شهر ربيع الآخر وهو مريض، فتوفي من ذلك الجرح في ثامن عشر، فكانت ولايته سنة وثلاثة أشهر وستة وعشرين يوماً.

وكان في دولته من أحسن الأمراء سيرة، شجاعاً وافر الحشمة، ناصراً للسُنّة قامعاً للبدعة، متخلقاً بذلك مستجلباً به رضى السلطنة.

ولما توفي الأمير سعد رحمه الله اجتمع آل جماز وأجمعوا على تقديم الأمير فضل بن قاسم بن قاسم بن جماز، وحالفوه على الطاعة والنصرة، وخطب له على المنبر، وتوجه مانع بن علي إلى السلطان يستنجز له مرسوماً، فأجابهم السلطان إلى ذلك، وبعث إليه بالتقليد والخلعة، ووصل بهما مانع بن علي في شهر جمادى الآخرة، وقُرِئ منشوره على دكة المؤذنين، واستمر في الولاية إلى آخر السنة سنة أربع وخمسين وسبعمائة، فمرض مرضاً شديداً وتوفي في السادس والعشرين من ذي القعدة، ودفن في

قبة الحسن والعباس، كان رحمه الله شهماً شجاعاً، مقدماً مهيباً، سايساً ذا رأي صليب، وغور ودهاء ومعرفة بالأمور.

ولما توفي الأمير فضل، أجمع رأي آل جماز على تقديم الأمير مانع بن علي بن مسعود بن جماز، وحالفوه على الطاعة، وتوجه إلى مصر محمد بن مقبل بن جماز يسعى لمانع في تقرير الولاية، وسافر معه محمد بن مبارك بن جماز، وقيل: إنه قصد السعي لنفسه في الولاية، فولى السلطان الأمير مانع وبعث له بالتقليد والخلعة مع محمد بن مقبل.

وكان الأمير مانع قبل ولايته متعبداً متديناً، سليم الباطن، فلما تولى إمارة المدينة ضعف رأيه عن تدبيرها، وكثرت الفتن في أيامه، وتتابعت الغارات على المدينة من آل منصور وضعف عن دفعهم، فكان يستعين عليهم ببني لأم، ويجزل لهم العطايا، فنفد ما بيده وطلب المساعدة من أهل المدينة، فساعدوه مراراً، ثم طلب المساعدة من الخدام والمجاورين، فساعدوه وتكلفوا ذلك مراراً، ثم حصل منه جور على المجاورين وأهل المدينة، فبلغ السلطان ذلك، فبعثوا إلى الأمير جماز بن منصور، وكان مقدماً على جماعته من بعد وفاة الأمير طفيل، وولوه إمارة المدينة، ووصل إلى المدينة مستصحباً للتقليد والخلعة في الحادي عشر من شهر ربيع الأول من سنة تسع وخمسين وسبعمائة، ولم يكن الأمير مانع يومئذٍ بالمدينة، وكان فيها نائبه محمد بن مقبل. وقد تقدم ما جرى للأمير جماز معهم في ذكر ولاية القاضي تقي الدين الهوريني.

ولما استقر الأمير جماز في المدينة جرى في أحكامه على الشدة، حتى خرج عن الحد، ودَانت له البادية والحاضرة، وكان خليقاً للملك، شهماً شجاعاً وافر الحرمة، عظيم الهيبة ظاهر الجبروت، هذا وغالب أيامه كان مريضاً، وكانت ولايته ثمانية أشهر وعشرة أيام، وقتل شهيداً في اليوم الحادي والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، قتله فداويان قدما مع الركب الشامي لذلك، وقتل وهو في أعز ما يكون وأنصاره بين يديه رافعون.

وذلك لما قدم الركب الشامي، خرج لتلقي المحمل السلطاني على

عادة من تقدمه من الأمراء، فلما وصل إلى المحمل، ترجل عن فرسه وأظهر الطاعة للسلطان، وفرش له بساط، وأخرجت الخلعة السلطانية، فلبسها وأعطي العمامة، فاشتغل بلفها، فخرج عليه رجلان أشقران خبيثان فضرباه بخنجرين، فأنفذا مقاتله واختفيا من حينهما، فلم يعلم لهما خبر.

وظن آل منصور أن الأمر أشد من ذلك، وأن الأمر غير قاصر، فلم يتعرض له أحد غير أن نهبت جُميلات يسيرات من أطراف الحاج، فلما تراجع آل منصور هموا بإقامة فتنة، وسفك دماء وما لا خير فيه، فعصم الله الناس من ذلك بالأمير هبة بن جماز بن منصور، فظهر منه يومئذٍ من الاحتساب في مصيبته، والصبر على رزيته، ما يعجز عنه الأئمة الأعلام، فأمَّنَ الناس وطيَّب قلوبهم، ونادى فيهم بالأمان، فاطمأن الحاج وجرى على عادته في البيع والشراء، جزاه الله خيراً، وساعده على ذلك عمه الأمير زيان بن منصور، المتحلي بحسن الأخلاق والشيم، والصيانة والشجاعة والكرم.

ولما وقع بالأمير جماز ما وقع أُجتمع الناس على الأمير هبة بن جماز، وسألوه أن يقبل الولاية، فامتنعُ.

وقال: أنا أجلس في القلعة لحفظ المدينة وأهلها، وحفظ الأحواج، فانظروا لهذا الأمر غيري، فسألوا الأمير زيان في ذلك، فامتنع.

وقال: لا أتقدم على أخي عطية، وهو خيرنا وأديننا.

فاتفق رأي الناس على تقدمته، وكان غائباً عند العرب، فكتب إلى السلطان شفاعة في أن يولي عليهم الأمير زين الدين عطية بن منصور، وذكروا أن آل منصور قابلوا ما وقع للأمير بالصبر والاحتساب، وحفظ الحاج والطاعة للسلطان، وتوجه الأمير نعير بن منصور إلى مصر ساعياً للأمير عطية في الولاية، واستمر هبة بن جماز حاكماً إلى رحيل الركب المصري من المدينة، ثم خرج من المدينة وتوجه إلى عَرَبه، وطلع الأمير زيان إلى القلعة وحكم في المدينة.

ولما وصل نعير إلى مصر حبسه السلطان أياماً، ثم طُلب وأُخلع عليه، وكتب للأمير عطية تقليداً بإمارة المدينة، وبعث بالتقليد والخلعة مع الأمير

نعير، فوصل إلى المدينة في يوم السبت الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ستين وسبعمائة، ووصل في تلك الأيام الأمير زين الدين عطية فلبس الخلعة وقرئ منشوره على دكة المؤذنين.

وكانت ولايته من الله تعالى كاسمه، لما انطوت عليه سيرته من الخير والصلاح والتوكل على الله تعالى، والزهد في الدنيا والكراهة في الأمر والنهي، وسعيه في مصالح دينه، قانتاً لله خائفاً منه منيباً إليه، أوقاته مقسمة في الطاعة ما بين خلوة في عبادة، أو نظر في مصالح رعيته، دائم الصمت، كثير الخشية، يجلس في النادي فلا يخوض معهم ولا يضحك لضحكهم، قد لزم السكون واشتغل قلبه بذكر معاده، إذا صلى الصبح جلس في مصلاه ولا يتكلم حتى يصلي الضحى مع حسن توجه وإقبال على الله تعالى.

وانصلح بصلاحه جميع قرابته، ورد المدينة إلى حالة يُغبط أهلها على سكناها من العافية والأمن العظيم، وسلامة الناس في أنفسهم وأهلهم وأموالهم، وكان في الولاية كارهاً لولا ما يخاف من خروجها عن آل منصور لو تخلى عنها، ولم يزل يشكو من المكس والعشور، ويمنع وزيره أن يدخله في مطعومه أو مشروبه، حتى طهره الله بحسن نيته، وصلاح سريرته، وعوضه عنه خيراً منه من جهة السلطان الملك الأشرف شعبان، بإشارة الأمير الكبير، ذي الحسنات العديدة، والمآثر الحميدة، أتابك الدولة المنصورة سيف الدين يلبغا، فسرَّ بذلك وحمد الله تعالى عليه.

ومع هذا فما كان أمير المدينة ولا يظهر بولايتها عزاً ولا فخراً، ولم يقم فيها سنة متوالية منذ ملكها إلى الآن، بل يقيم فيها إخوته وولده كراهية من مباشرة الأحكام، وخوفاً من الوقوع في مظالم العباد، ويوصي كل من استنابه في المدينة بحسن السيرة، وصفاء السريرة، ولا جرم أن أخاه وولده، جدد الله سعدهم، ساروا في الناس أحسن سيرة، وتخلقوا بأخلاقه الحميدة، جزاهم الله عن الناس خيراً.

ولمَّا نهب آل منصور وضيع الحاج، كان الأمير زين الدين حاضراً معهم، فلم يتدنس بشيء من ذلك، وتورع عنه، ومن شأنه التورع عن المواريث التي يعلم أن أهلها غيب، ويحفظها عليهم، وينفذ وصايا الأموات

الذين لا وارث لهم، ويخرج الزكاة من ماله على المستحقين، ويحسن إلى أرامل الشرفاء وأيتامهم من صلب ماله، ومناقبه كثيرة، ومحاسنه عديدة، وفَّقه الله لفعل الخير، ووقاه كل ضير.

ولا شك أن ولاية هذا الأمير وحسن سيرته، حجة لله تعالى على من عاصره من الأمراء وعلى من يأتي من بعده، كما أن سيرة الملكين العادلين، نور الدين الشهيد وصلاح الدين بن أيوب حجة الله تعالى على من خلفهم من الملوك والسلاطين، فإنه لا يعجز أحد عن التشبيه بمن عاصره، أو قربت أيامه من أيامه، وخلفه من محل ولايته، إذا حسّن نيته وسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

فيجب على أهل المدينة الدعاء لهذا الأمير، وإخلاص الطاعة له، ونشر محاسنه، فبالشكر تدوم النعم، فلا زالت سعادته طالعة في برج سيادته، وسيادته محفوظة بحفظ الله تعالى وكلاءته.

فصل

ولنختم الكتاب بذكر شيء من أحوال والدي وأخويّ رحمهم الله.

فأما والدي فهو أبو عبد الله محمد[1] بن أبي الفضل بن أبي القاسم فرحون بن محمد بن فرحون اليَعْمَري، الأُبّدي المحتد، ثم الجيَّاني التونسي المولد والمنشأ، واليعمري نسبة إلى يَعْمَر (بفتح الياء المثناة من تحت والعين المهملة الساكنة والميم المفتوحة والراء المهملة بلا شك) وهو يعمر بن مالك بن بُهْثَة بن حرب بن وهب بن جُلَّي بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

قال ابن حزم في كتاب «جماهر الأنساب»: ومن بني يعمر الأبديون بالأندلس، وهم ناقلة من ناحية مَنْبَج، وهم بنوا بكر بن عبد الحميد بن معمر بن الطفيل بن جعفر بن صالح بن الحشرج بن ضبيع بن دويب بن يعمر بن مالك بن بُهْثَة.

وقيل في يعمر: إنه بضم الميم، والأول أصح وأشهر.

ويعمَر بفتح الميم مضارع قولهم: عَمِرَ الرجل، بفتح العين وكسر الميم: إذا عاش زماناً طويلاً، وإنما سمي بذلك تفاؤلاً بطول العمر.

والأُبّدي؛ بضمّ الهمزة وتشديد الباء الموحدة، وبعدها دال مهملة نسبة إلى بلدة الأندلس من كورة جيّان، وجيّان بفتح الجيم وتشديد الياء المثناة من تحت بعدها ألف ونون لأجل صحة الصلاة.

كان ـ رحمه الله ـ قد اشتغل بالعلم على شيوخ بلده، وبرع في الفقه والأصول والعربية، وشارك في علوم عديدة، وسمع الحديث على الحافظ

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٥٦٢ (٤٠٧٤)، نقلاً عن ابن فرحون؛ «المغانم المطابة» الورقة ٢٦٠/أ.

جمال الدين أبي بكر محمد بن يوسف بن مسدي، وصحب الشيخ أبا محمد المرجاني، وخرج في صحبته للحج من تونس، فلما وصل إلى مكة لحقه مرض فقال له الشيخ أبو محمد: هذا إشارة إلى الإقامة.

فأقام بها ولم يتعرف بأحد من الناس، ولم يكن معه من النفقة غير ما أعدَّه للطريق، فبنى على التوكل على الله تعالى، فعرف مكانه من العلم، واشتهر بحسن الخط مع الضبط والصحة. فسأله بعض الناس في نسخ (الروضة) للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، فنسخها له جميعاً واستعان بما حصل له.

ثم انتقلت تلك النسخة مع بعض الشافعية إلى المدينة، وهي اليوم في المدينة موقوفة في المدرسة الشهابية، مع نسخة أخرى نسخها بعد إقامته في المدينة.

ثم حج ورجع إلى تونس، فوجد الشيخ أبا محمد المرجاني قد انتقل إلى رحمة الله تعالى. فحمل ما له من الكتب، وكانت كلها أو غالبها بخط يده، وكانت كتباً كثيرة جليلة، فلما وصل إلى الإسكندرية باعها، حتى لم يبق معه إلا ما هو محتاج إليه من خطه وخط والده.

ثم قدم المدينة فسكن المدرسة الشهابية بين تلك الجماعة الذين تقدّم ذكرهم وفضائلهم، وكانت نيته أن لا يشتغل بشيء غير نفسه، ولا يتعرض بأحد من أبناء جنسه، فألزموه حضور الدرس لأجل المسكن، فلما حضر مع الطلبة اشتهر بينهم بعلمه وفضيلته.

وكان متفنناً في عدة علوم، فعظم عند الجماعة وأحبوه ولزموه، واشتغلوا عليه بالفقه والعربية، واشتغل عليه جماعة في علم الهيئة، فأبان عن فضيلة تامة فكثر عليه المشتغلون في علم الميقات.

قال لي رحمه الله: كنت قد قطعتُ وقتي مع المشتغلين بعلم الميقات، وحرت في الخلاص منهم، حتى سمعت شخصاً من العوام يقول يوماً لجلسائه: ما رأيتُ أعلم من هذا المُنجم.

قال: فقلتُ في نفسي: لقد أسأتُ باشتهاري بهذا العلم، حتى يطلق عليَّ هذا الاسم، فتركت الاشتغال به.

وكان له اختلاط بالجماعة الذي تقدم ذكرهم؛ كالشيخ أبي محمد البسكري وأصحابه، والشيخ أبي الحسن، والشيخ عبد الواحد الجزولي، والشيخ أبي العلاء الأندلسي، والشيخ أبي إسحاق. وجماعة من الصلحاء الخدام، وخلائق لا يحصون كثرة. فعرضوا عليه الزواج فامتنع من ذلك، فكثروا عليه ورغبوه في والدتي، وكانت الكبيرة من أربع بنات شرائف، كان والدهن يقال له: الشريف عبد الواحد الحسيني، ثابت النسبة، وكان يتناول من وقف بلقس بعد أن أثبت نفسه في القاهرة.

ولما حج نقيب الأشراف شرف الدين أوقفه على تلك النسبة، فلما رأى عليها خطوط القضاة المصريين، أثبت اسم بنته مباركة في الشرفاء الذين يصرف إليهم وقف بلقس، واستمرت تقبضه إلى أن توفيت إلى رحمة الله تعالى.

وكان زواجه لوالدتي من بِرّه بنا، إذ ألحقنا بنسب النبي ﷺ فجعلنا من ذريته إجماعاً، وشرفاء عند أكثر العلماء. وبذلك أفتى ناصر الدين المسدالي وغيره ممن هو مثله في العلم. وكمل برُّه بأن علّمنا فأحسن تعليمنا كما ترى، وأدبنا فأحسن تأديبنا، درى بذلك من درى، وكان من أسباب تزوجه وتأهله في المدينة بعد تبتله وكراهته لذلك.

اتفق في بعض الأيام أن الجماعة سألوا والدي أن يقرأ عليهم شيئاً من كتب الرقائق فأجابهم إلى ذلك.

قال لي رحمه الله: وكان من جملة ما قرأته أن رجلاً كان يسأله جاره أن يزوجه إحدى بناته فيقول له: لا حاجة لي بالزواج فرأى ليلة في منامه أن القيامة قد قامت، وأنَّ الناس في شدة حرٍ عظيم، وعطشٍ شديد. وكان بينهم ولدان معهم إداوات يتخللون الناس.

قال الرائي: فقلتُ لولد منهم: يا ولدي أنا عطشان فاسقني. فقال له: اذهب فما لك فينا ولد. قال: فاستيقظ الرجل وبه رجفةٌ عظيمة، فدقَّ الباب على جاره وقال: زوجني إحدى بناتك الآن، فلي قصة عجيبة. فزوَّجه ولم يأت عليه الصباح إلا وهو مع زوجته.

فلما قرأ والدي هذه الحكاية، رغَّب الجماعة والدي في الزواج،

فأطاعهم وتزوج والدتي ـ رحمهما الله ـ وكان بناؤه بها ليلة الاثنين الثالث عشر من شهر صفر عام اثنين وتسعين وستمائة، فولدت له خمسة ذكور توفي منهم في حياته اثنان. وكان يقول: عندي مسرة بمن قدمته أكثر من مسرتي بكم رجاء ما وقع في تلك الحكاية، نفعه الله بهما، وكنت أول أولاده، وكان مولدي يوم الثلاثاء السادس من جمادى الآخرة عام ثلاثة وتسعين وستمائة.

كان ـ رحمه الله ـ لا يزال مشغولاً بنفسه وبذكره وقراءته واشتغاله بكتب العلم، ليس مع الناس في شيء من أحوالهم الدنيوية، ولم يصده العيال عن شيء من الأوراد والأفعال الصالحة التي كان عليها، وكان ذا عيال كثيرة، لم يمسه منهم قرابة لكن أصهاره قد جمعه معهم في بيت وفي نفقته، ومع ذلك لم يكن يهمه شأنهم ولا شأن أولاده. بل قدم اشتغاله بالآخرة على كل شيء حتى كأنه خَلِيٌّ من التعلقات رحمه الله، وكلما نظرتُ إلى حالي وسعة مسكني وضيق خُلُقي وقلة صبري مع ما رأيته من ضيق مسكنه وسعة خلقه وطول صبره صغرت عند نفسي، وأيست من خيري، وأنىٰ لي بحسن أخلاقه وحفظ لسانه!!

حكى الشيخ محمد الخراز رحمه الله والشيخ عمر الخراز رحمه الله، أنه لما حج والدي معهما مع جماعاته المباركين الذي تقدم ذكرهم كانوا رفقة واحدة، مع عدة جمالين.

قالا: فلما حججنا ورجعنا وكنا قريباً من المدينة المشرفة، اجتمع الجمالون يتحدثون ويذكرون سيرة ركابهم معهم، فقال جمّالُ والدي لأصحابه: يا جماعة أمّا رفيقي الذي أركبته فأخرس، لم يتكلم منذ صحبته بكلمة، فقال رفيقه: بل والله سمعته يوماً يتكلم مع أصحابه، وكانت هذه طريقته سفراً وحضراً، لا يراه أحد جالساً في طريق ولا في حلقة فضول، ولا يتكلم إلا جواباً، وإن جاوب لم يفتح للفضول باباً.

كان القاضي فخر الدين محمّد بن محمّد بن الحارث المعروف بابن المسكين الفقيه الشافعي إذا لقيني يقبل عليّ ويسلّم، ويقول: رحم الله والدك الشيخ أبا عبد الله، ما كان أحسنه وأكثر أدبه وخيره.

وحكى لي أنه اتفق له معه قضية.

قال لي رحمه الله: كنت إذا صليت صلاة الصبح، أجلس في مصلاي حتى تطلع الشمس وأصلي الضحى وانصرف، وكان يومئذ في الروضة المباركة جماعة من الأشياخ المباركين، قال: وكنت أرتقب بصلاتي ارتفاع الشمس، وأرى الناس ينتظرون الشيخ أبا عبد الله ويقومون لقيامه، وكان يقوم إذا وصلت الشمس في الحائط الغربي إلى تحت الشبابيك الصغار.

قال: فقلت: لا أقدر أقول للجماعة كلها: أخِّروا صلاتكم حتى ترتفع الشمس، ولكن أجتمع بهذا الشيخ الذي يؤمُّهم في هذا الوقت.

قال: فاجتمعت به وكنت به جاهلاً، فقلت له: رأيتك تقوم لصلاة الضحى قبل وقتها، وقد نهى النبي ﷺ عنها حتى ترتفع الشمس وتبيض، وهذا وقت تكره فيه الصلاة، وكثرت عليه من الأدلة وأنا في اجتهاد وحدة حتى فرغ ما عندي.

فالتفت إلي، وقال: بعد اليوم نُؤخِّر كما قلتَ، وسكت عني، واشتغل بما كان فيه، فانصرفت عنه وسألت عنه، فقيل لي: هذا الشيخ أبو عبد الله بن فرحون، فندمت وقلتُ: أيُّ حاجة دعتني إلى التعرض لهذا الشيخ، قال: فرحتُ إليه واعتذرت فتبسم وقال: ما قلت إلا خيراً. فأنا أدعو له كلما ذكرته.

قال لي الشيخ أبو عبد الله محمد بن الغرناطي، كنت جالساً في المسجد الشريف مع الشيخ أبي القاسم القبتوري ـ وقد تقدم ذكرهما ـ فقال لي: يا محمد رأيتَ قط الكبريت الأحمر الذي لا يتغير أبداً ولا يتحوَّل؟ فقلت له: لا. فقال: انظر إلى عبد الله بن فرحون منذ دخل المدينة لم يتغير حاله.

قلت: كان ـ رحمه الله ـ قد ترك الاشتغال بنا، فكنا نغيب فلا يسأل عنا، ونمرض فلا يهمُّه مرضنا، بل يسأل الله لنا ويدعو لنا، فنحن نتقلب في بركته وبركة دعائه.

أخبرني أنه يوماً خرج في الموسم عند قدوم بني عقبة يريد شراء

نفقته، وكان غالب عيش المدينة من زرعها وزرع السوارقية، لا يأتي من الشام إلا قليل، حتى كان السعيد يدخل بيته جمل أو جملان، وكان للدارب على من يشتري شيئاً مُكس كثير، وخراجٌ عظيم.

قال: فاشتريت حِمل قمح، فلما دنوت من الدرب، قال لي صاحب الجمل: أنا ما أدخل به أخاف أن أطالب بخراجه.

قال: فقلتُ له: سُقِ الجمل وأنا أتكفل بما يريدون منك، ففعل، فلما أردت الدخول قرأت أوائل سورة ﴿يسٓ﴾ وتعوذت ودخلت مع الجمل فلم يرونا، ولا عرفونا، فجاءهم من ذكر لهم أني اشتريت حمل قمح فقالوا: لم يدخل به من عندنا ولا رأيناه، فدفع الله شرهم عنه بصدقه وضرورته لعياله، فمن كان مع الله كان الله معه، توفي رحمه الله يوم الخميس الرابع عشرين من شهر ربيع سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، جدَّد الله عليه الرحمة.

ورآه أخي علي في المنام بعد وفاته، فقال له: يا سيدي ما فعل الله بك؟ قال: أعطاني وحباني، فها أنا في مقعد صدق عند مليك مُقتدر.

وأما أخي نور الدين أبو الحسن علي[1] واسمه من العلو والدين، مع ما حوى من علم الفقه والأصول والعربية والحديث واللغة والمعاني والبيان والأدب، مع المشاركة العظيمة في سائر العلوم، وكان قد بلغ في العلوم الأدبية إلى النهاية.

فإن قلت: لم يكن في زمانه بالمدينة والحجاز من برع براعته، ولا ساد سيادته، مشاهدة حق عليها كل الخلق، ممن جل ودق، وكان يلقي درس الفقه في «مختصر ابن الحاجب»، فيحضره الشيخ حسن الحاحائي، والشيخ عبد السلام بن غلام، وكانا من الفقه بمكان، لم يلحقهما في علمهما وعملهما مثلهما وقد تقدم ذكرهما، وكانا يدققان معه في البحث المتين فيظهر بذهن ثاقب وحفظ معين.

وله تواليف مفيدة في العربية والحديث واللغة والتصوف، وله «ديوان»

---

(١) ترجمته في: «التحفة اللطيفة» ٢/ ٢٩٥ (٣٠٧٦)، «المغانم المطابة» الورقة ٢٥٢/ب، «الدرر الكامنة» ٣/ ١١٥ (٢٦٣)، «شجرة النور الزكية» ٢٠٣/ ٦٩٩.

كبير في مدح النبي ﷺ، وفي مدح غيره، وله مجلدات من جمعه مشتملة على فوائد وغرائب.

وكان الشيخ الإمام العلامة حجة العرب، وترجمان الأدب، سراج الدين الدمنهوري قد جاور في المدينة في سنة خمس وأربعين وسبعمائة، فكان إذا جلس في درس يقول للطلبة: إذا حضر الفقيه نور الدين فأحضروا معكم الدواة والورق، حتى تقيدوا من فوائده ومن أشعاره واستشهاداته، فكان كذلك.

وكان هذا الشيخ سراج الدين الدمنهوري من العلماء الأستاذين الذين انفردوا في زمانهم عن أقرانهم بعلوم جمة، كالقراءات والعربية واللغة، مع الفقه الغزير، والمشاركة في كثير من العلوم، ولكن كان في تلك العلوم في أعلا درجاتهم من الحفظ والذكر.

عرضت عليه شرحي وإعرابي «لبانت سعاد»، المسمى بـ(**شفاء الفؤاد من بانت سعاد**)، فوجدته في مذاكرتي له بحراً زاخراً، وكان أخي علي أحياناً يأتيه فيتعجب من حفظه وذكره ويقول لي: قلَّ أنْ رأيت مثله. توفي رحمه الله في ثاني شهر ربيع الأول في سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة.

وكان لأخي ميعاد وعظ يقرأ في كلّ جمعة بعد الصلاة على كرسي عال بالروضة المشرفة بصوت حسن وأداء حسن، لا يمل السامع من قراءته بل يتلذذ بإطالته، وكان وعظه من كلام ابن الجوزي في (التبصرة)، فكان بعض الناس يقول: عاش ابن الجوزي للناس.

وكان ـ رحمه الله ـ هو أول من اتعظ بقوله وانتفع بوعظه، فصار يلازم الصيام ويسرده ويقوم من الليل أكثره، ورقَّت نفسه ودرَّت دمعته كأنه يقرب الأجل، فبادر للعمل. كان رحمه الله يقول: والله ما ندمتُ على ما أفنيت فيه عمري من الاشتغال بعلم الأدب، يا ليته كان في الكتاب والسُنّة.

كان يرى لي أكثر ما يرى الولد لوالده في التعظيم والحِباء والإكرام، وأما الغيرة علي والانتصار لي، واهتمامه بحالي وما يعرض لي من عدو شافي فلا يوصف قدره، فلله دره، وبلَّ بالرحمة قبره.

توفي رحمه الله في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وسبعمائة. ومولده ليلة الجمعة العشرين من ربيع الأول عام ثمانية وتسعين وستمائة.

وأما أخي محمد ـ رحمه الله تعالى ـ فكان على طريقة والده من العزلة، ومحبة الوحدة والخلوة، وقلة الخلطة. كان بي حفياً، وفي دينه قوياً. صبر على مجاهدة النفس في العبادة، حتى صارت له سجية وعادة.

كان ـ رحمه الله ـ من عظم شفقته عليَّ يجلس دائماً على طريقي إلى الصف الأول، فلا يمر يوم حتى يقف معي ويسألني عن حالي ويدعو لي بقلبٍ صافٍ، وودٍّ وافٍ، ومتى فقدني في وقت صلاة، وقف علي في بيتي وسأل عن حالي.

خلفه ولده محمد فسلك طريقته، وزاد بصحبة المشايخ والفقراء والأخذ عنهم، له اشتغال في الفقه والنحو واللُغة، ومع ذلك تراه كأنه أحد الترابية، أعانه الله ووفقه.

وكانت وفاة أخي محمد رحمه الله في شهر جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وسبعمائة، ومولده ليلة السبت سلخ شوال سنة سبعمائة، تغمده الله برحمته، وأسكنهم فسيح جنته، كما نقلهم من لين المهود، إلى ضيق اللحود، فما أعظم مصيبة فراق الإخوان، وقولي كان فلان وفلان، رب ارزقني صبراً فلم يبق إلا القليل، ومتعني بسمعي وبصري وكلاهما عليل، والله تعالى هو الباقي بعد كل خلٍّ وخليل.

لو أنَّ ما أبقت الأيامُ من جسدي ... يكونِ فوقَ حُبَابِ الماء ما غَرِقا
أو كان في مقلةٍ نامت لما انتبهت ... أو كان في لَهواتِ الماءِ ما شَرِقا

يا رب اعترتني أسقامي حتى نحلت، وكرَّ عليَّ الجديدان[1] حتى ذبت، وازددت وهناً وضعفاً لما طعنت، فإن سألتني: ما حالك؟

---

(١) الليل والنهار.

قلت:

ـا حالُ من أَبلَتِ الأيامُ جِدَّتَه ... وخانه ثقاتُه السمعُ والبصرُ

وقلتُ أيضاً:

تفكرت في خمس وسبعين قدِّمت ... من العمر لو مرت على حجر فنى

ذهبن بعيش أخضرٍ غير يابس ... شبابٍ وشيبٍ واستلابِ محاسن

.... (١) ... زهت يا لها في وقتها من محاسن

وقد سلبت عني صَفِيَّ أحبّتي ... وغابت ولم تقبل فدًى من خزائني

سلامٌ على الدنيا سلامَ مودِّع ... فكم جرَّعتني مترعات الغبائن

ولما كان في سنة ثلاث وستين وسبعمائة في شهر شعبان تحامل عليّ الأعداء، وقصدوا إتلافي وإعدامي، وكمنوا لي في السَّحَر عند خروجي لصلاة الصبح، ورصدوني عند رأس الزقاق تحت دار سلطان بن نجاد، وكان في أيام الصيف والمدينة خاليةٌ من أكثر الناس، فخرجت على عادتي وبيدي مصباح، وقدر الله أن الغلام تأخر عني في البيت فكنتُ وحدي.

فلمَّا خرجت من زقاقنا وتوجهت إلى السوق سمعت خلفي عدواً شديداً، فلم التفت إليه، وظننت أنه مارٌّ، فعدا علي وضربني في ظهري بسكين ضربة شديدة عظيمة، وقعت بها على الأرض، ثم رجع من حيث جاء وظنَّ أنه بلغ مقصوده، فوقى الله شره وعتوه، لكنه ظلعني ووهنني، فصرت لا أحمل نفسي إلا بكلفة ومشقة، وما دفع الله كان أعظم.

ولما تأخرت بسببها عن الصلاة في المسجد الشريف في شعبان، وأكثر شهر رمضان المبارك، شكوت حالي وقصصته على النبي ﷺ، فقلت:

إليك رسولَ الله من عبدِك الذي ... تعوَّقَ عن مغناك من فتكِ ضربةِ

عبيدُك عبدُ الله جارُكَ عُمرَه ... نزيلُك لم يبرحْ مؤمِّلَ عطفةِ

عليك(*) رسولَ الله أشكو مصيبتي ... وشدَّة أهوالٍ أطافت بمهجتي

---

(١) بياض، وقد كتب في حاشية النسخ (أ): كذا بالأصل.

(*) كذا في جميع النسخ، ولعلها: إليك.

أغاروا على نفسي سُحيراً بِمدْيةٍ | لإتلافِ روحي بل وإذهابِ جُثَّتي
يريدون أنْ يُخفوا لنورِ أتمّه | إلهي فما اسطاعوا فباؤوا بخيبةِ
شكوتُ رسولَ الله ما قد أصابني | على غيرِ ذنبٍ بل على نشرِ سُنَّةِ
أحلُّوا دمي يا ربِّ أنتَ حسيبُهم | فعوِّضهُم يا ربِّ كلَّ بليَّةِ
فإنْ بيدي تأخذْ فتلك عقيدتي | وإلا فيا ويحي وويلي وحسرتي
ألستُ مقيماً في جوارك سيدي | وقبلي أبي سبعينَ عاماً بطابَةِ
أترضى رسولَ اللَّهِ ما قد أصابني | وحقِّكَ ما يُرضيك هاتيك نيَّتي
وحقِّك قد عانيتُ حتفي مع أنني | صريعٌ[1] على وجهي وباهي شيبتي
أُقلِّبُ وجهي في جهات تخيُّلي | وليس سوى بابِ الحبيب لعلَّتي
هو البابُ للداعين إنْ همْ لبابِه | لجوا لم يصبرهم ولا بعضَ ساعةِ
هو البحرُ يجري كلَّ حينٍ ودائماً | لجيرانِه بَرّاً بهم ذا محبَّةِ
دعوتُ دعا عبدٍ ضعيفٍ مُطعَّنٍ | وراء حجابٍ قد ثوى بمضرَّةِ
لتطلقَ أقدامي فأسعى بها إلى | حُبيبي الذي مَنْ جاه فازَ بنعمةِ
ألا يا محبِّين الحبيب محمداً | ومَنْ جاور المختارَ في عزٍّ نعمةِ
عسى أنكم إنْ خلتمُ لي معاهداً | تبوَّأتُها مستجلباتٍ[2] لرحمةِ
ضربتمْ بسهمٍ في دعائِكُم ولا | يُنسيكمُ[3] بُعدي فقلبي بحضرةِ
وقولنا أخو يارب[4] عيق ببيته | وآمننَا فاقبلْه مغنا بمنَّةِ[5]
لئن كنت قهراً قد تأخرتُ عنكم | فقلبيَ فيكمْ شاهدٌ بمودتي
عِرَاص لها نفسي قد اشتدَّ شوقها | وحقَّ لنفسي أنْ تضاعفَ زفرتي
معالمُ وحي منتهي الخيرِ عندها | فلا قطرَ في الدنيا إذاً كالمدينةِ
فإن تذكروني في الدعاءِ فذاكمُ | وإلا سأسْتَجْدِي صِحابي بمكَّةِ

(١) في (أ)، (ج): «صريعاً».
(٢) في (أ)، (ج): «متجليات».
(٣) في (أ): «ينساكم».
(٤) في (ب): «وقولوا أخونا رب. . .».
(٥) في (أ): «بمنية».

سلامٌ عليكم من ضعيفٍ مُضَرّج كسيرٍ غضيبٍ ذي ضنًى وصبابتي
بطيّبِ طيب قد كتبتُ حروفَه ليسري بأخباري إلى خيرِ بلدة
صَلَى الموت قد عاينتُه يا أحبّتي ولكن قضى في العمر تأخيرَ مدَّتي
فلي أسوةُ الفاروق في ضربةٍ قضى وأسوةُ عثمان شهيدٍ بضربة
لفزتُ بها في الفائزين وليتها ولكن بقاء لإنهاءِ لمدَّتي
فلا ملتجا للملتجين كبيتِه سوى المصطفى للملتجين بروضةِ
لئن عاقني عنكم بلائيَ فلم أحج فذاك على قلبي أشدُّ رزيتي
فلا تحسبوا لي سلوةٌ عن جَلالها سأسعى ولو صفحاً على صفحِ وجنتي
وقد زرتها خمسينَ حجَّاً وعمرةً فما زادني إلا حفيل محبتي
فيا ربُّ هلا دعوةٌ في مشاعر أعلُّ بها حيناً محاجر مقلتي
أرى زمزماً بعد الحطيمِ وأهلها وميزاب بيتِ الله حتى بطوفة
فأدعو بقلبٍ مخلصٍ في مقامه وملتزم مستعطفاً لشكيتي
لعلّي أرى نصري قريباً معَجَّلاً بذاك لي أدعو أنتموا لي ذخيرتي
ولي صحتي ربي الكريمُ يعيدُها فتقوى بها رجلي على طيِّ ركبتي
أقاموا ليغتالوا بليلٍ عدمتهم أكانوا فلا كانوا سحيراً بخلوة
على غيرِ ما ذنبٍ أظنُّ أتيته قبلُ لي ذنبٌ إنني حزب شرعة
فأصبحُ مسروراً بما قد أصابني شقيٌّ يعادي أو محاسدُ نعمةِ
لقد لزمتْ نفسي لهمِّيَ لوعةٌ فصارت كأمثالِ للازبِ ضربةِ
وقد سئمتْ نفسي المطاعمَ كلَّها فكالصَّابِ أو كالصَّبر تسري بريقتي
وعن مضجعي تنبو جنوبي كأنها على حسكِ السَّعدان لي طول ليلتي
عليك رسول الله منّي تحيةٌ تفوقُ مدى الأيام كلَّ تحيَّةِ
عليك صلاةُ الله ما حُجَّ بيتُه وما زار ركبٌ مصطفاه بحجرةِ
وآلك والصحبِ الكرامِ فهديهم بأنوارِهِ تُجلي دُجى كلِّ ظلمةِ
أبو بكر الصديق أعظِمْ بشأنه وصاحبُه الفاروقُ شيخُ الصحابةِ
وعثمانُ ذو النورين والعلَم الرضى أخو المصطفى عال عَليّ لنصرةِ

وبـاقـي كـرام عـشـرة بـمـحـمـدِ   أعـوذ بـهـم مـن شـرِّ كـلِّ مـصـيـبـةِ
عـلاؤهـم عـنـدي يـحـلُّ مـضـايـقـي   وحـبُّـهـم ألـقـاه فـي لـحـدِ حـفـرتـي

والحمد لله ربّ العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقلت هذه الأبيات في فضل المدينة المشرفة، والتشويق إلى سكناها والإقامة بها، والدفن في بقيعها، وجمعت فيها ما حضرني من فضلها من الأحاديث الصحيحة التي لا اختلاف فيها، وسمّيتها (**تشويق النفوس إلى نص العروس**).

فقلت الحمد لله ولي التوفيق:

بفضلِ الإله مالك الملكِ غافرِ   مقسّمِ أرزاقِ العبادِ وقاهرِ
تقسّمتِ الأوطانُ بين المعاشرِ   فكان نصيبي كابراً بعدَ كابرِ
مدينةَ خيرِ الرُّسلِ مهبطَ وحيه   سقاها إلهي ماطراً بعدَ ماطرِ
ومدَّ عليها وَبْلَهُ وسيوله   فيغدودق الوادي بأحد وحاجرِ
وتزهو تلاعُ بالعقيقِ وزهوها   وسلع إلى السقيا إلى سفحِ عائرِ
ووادي قناة يا له كم به ثوى   شهيدٌ كعبدِ الله والدِ جابرِ
وبئرِ أريسٍ مع قباء ورامةٍ   بها طبتُ في وقتٍ من الهمِّ شاغرِ
وفي خيفِ بطحانِ السعيد مساجدٌ   ترى بين نخلٍ كالنجومِ الزَّواهرِ
دعا المصطفى فيها ففرّ عداتُه   وكانت قلوبُ القومِ عند الحناجرِ
كريمُ مقاماتٍ تجلَّت بقاعِها   بها أمنُ عاصٍ من مقيمٍ وزائرِ
كَلِفتُ بها حتى ألفتُ جمالَها   وحتى بدا مني خفيّ الضَّمائرِ
وكنتُ إلى الراحاتِ ترتاحُ مهجتي   وتهذي بربات الخدودِ السواجرِ
وألهوا إذا وقتي خلا من مُنغِّصٍ   بإخوان صدقٍ نزهةٍ للمحاضرِ
فبعد الصبا عفتُ الهوى ومزاحه   وقلتُ: أيا نفسي كفى أنْ تكابري
فنكّبْ إذنْ عن عَزَّةٍ وسعادِها   وحاشاك أن تهوى كحيلِ المحاجرِ
ودعْ عنك لبنىٰ واستماعَ غنائها   وأقبلْ على الأخرى بقلبٍ وبادرِ
فلو نظرتْ سُعدى إليَّ تعجبت   وقالت بمن اعتاض عني مسامري

ألم تعلمي أني تعوّضت طيبةً — فلا تطمعي في العود يا أمَّ عامرِ
تبدَّلتُ من كلِّ البلادِ بأسرها — بلادَ رسولِ الله أبرك طاهرِ
فما مثلها عندي شبيهٌ بذاتها — سوى مكَّة سادَتْ بتلك المشاعرِ
فضائلُ صحَّت في الصحاحِ لطيبةٍ — فخذها بقلبٍ واستمعها لآخرِ
شهيدٌ لنا أو شافعٌ سيد الورى — لصبرٍ على لأوائها المتكاثرِ
كذاك لمن وافا بها مثل ذا له — ليهنَ بوعدٍ من صدوقٍ لشاكرِ
وكم صحَّ في أخبارها من فضائلٍ — فمن تُربها للداءِ دفعُ الضَّرائرِ
حباها بمثلي ما دعاه لمكَّة — فجاور وطِبْ نفساً بهذي المفاخر
وذلك ضِعفُ الضِعفِ صدق محققٌ — فكن قانعاً فيها بقوتٍ وصابرِ
وكم من كراماتٍ تجلَّت لأهلها — بلفظٍ رُوينا مسندٍ متواترِ
فمن سعدِكم يا نازلين جواره — بتحويل حُماها ونفي المضاررِ
وطابت فما الدجال يُهدى خلالها — ولا مجرمٌ إلا ابتلي بالدوائرِ
ومَنْ أهلَها بالسوءِ قصداً أرادهم — أُذيب كملحٍ ذابَ ويلٌ لماكرِ
ولمَّا أن اختارَ المهيمنُ حفظها — حماها بأملاكٍ شِدادِ البوادرِ
فمن عزِّها أملاكُه في نقابها — تردُّ دجَّالاً مُحَلا(١) بكافرِ
وطاعنُ طاعونٍ كذاك تردُّه — وإنْ عمَّ تطوافاً فليس بعابرِ
وأمَّنَ من خسفٍ ومن أنْ يصيبَنا — عذابٌ وهو فينا بقدرةِ قادرِ
ومنها لمجذومٍ دواء سِباخُها(٢) — فخذها كراماتٍ أتت ببشائرِ
وكان إذا ليلٌ سجى قام داعياً — لأهل بقيعِ الغرقدِ المتفاخرِ
فيهدي إليهم من حفيلِ دعائِه — ويسأل مولاه بإحضارِ خاطرِ
ووصَّىٰ جميعَ النَّاسِ طرّاً بجارِه — فقال: احفظوني أمتي في مجاوري
وقد قال: ما من ذاك واللَّهِ ابتغي — مكاناً لدفني من جميعِ المقابرِ
سوى هذه يعني بها تربَ طيبةٍ — فأكرِمْ لتربِ للرسولِ مُباشرِ

(١) في (أ): «. . . دجلاً محلى بكافر».
(٢) في (أ): «سباختها».

دَعَا ودَعَا حتى دَعَا في ثمارِها ... فصار بها يزكو كحائط جابرِ
كذلك في صاعٍ ومدٍّ دعا لنا ... فيشبعنا ربعٌ وشطرٌ لصابرِ
وجا أنها تنفي الذُّنوب مُصحَّحاً ... وإطلاقه يحوي عظيمَ الكبائرِ
لها مسجدٌ للمصطفى أيُّ مسجدٍ ... به حجرةٌ فيها الدليلُ لحائرِ
صلاةٌ بألفٍ يا سعادتنا به ... فوائدُ طابت متجراً لمتاجرِ
به روضةٌ مع منبرٍ وسطَ جنَّةٍ ... علت يا لها من روضةٍ لمفاخرِ
ومنبره والحوض تحت رِتاجه ... وهل مثلُه من منبرٍ في المنابرِ
وحول ضريحِ المصطفى قد تعاقبت ... ملائكةٌ سبعون ألف مظاهرِ
ذكرتُ قليلاً من فضائلِ طيبةٍ ... ومَن رام حصراً ما يكونُ بقادر
ألا لا تلوموني فإني أحبُّها ... فكم خوَّلتني ما تمنَّتْ خواطري
فمن طيبِها طيبي وأحمدُ طيبُها ... سوى البيتِ ما يلقى لها من مناظر
أيا عاذلي فيها تأمَّلْ جمالها ... وأنوارُ خيرِ الخلقِ بادٍ وحاضرِ
سألزمُها دهري وأحكي علومَها ... وأدفع عنها طاقتي كلَّ جائرِ
وألزم ذاتي صحنَها ورحابَها ... وحجرتَها والسر خلفَ الستائرِ
حلفتُ يميناً ليس في الكونِ[1] مثلُها ... لأنَّ بها قبرَ الشفيعِ الموازري
فمرِّغْ بها خديك حبّاً لأحمد ... وقل: يا حبيبي يا شفيعي وناصري
جوارَكَ يا خيرَ البريةِ أرتجي ... فكنْ لي مُجيراً عند عدِّ جرائري
لذلي لعصياني[2] تداركْ بنظرةٍ ... فعندي ذنوبٌ أعدمتني بصائري
فظنِّيَ[3] إن حالي إليك شكوتُه ... تجيبُ بيا لبيك لستَ بكاسري[4]
فيا ربِّ عُذْ يا ذا الجلالِ بمنَّةٍ ... فقد رجفتْ مني لخوفي بوادري

---

(١) في (أ): «لا يكون».

(٢) في (أ): «بذلي بعصياتي».

(٣) في (أ): «وظني».

(٤) في (أ): «بكاشر».

وصلِّ على المختارِ من آلِ هاشمٍ وآلٍ وصحبٍ في مساءٍ وباكرِ
أخصُّ أبا بكر حبيبَ محمدٍ وصاحبَه الفاروقَ ماضي الأوامرِ
وليس كعثمانَ الشهيدِ بداره ومَن كعليٍّ في قتالِ العساكرِ
زبيرٍ وسعدٍ وابنِ عوفٍ وطلحة وبعدُ سعيدٌ والختامُ بعامرِ
فعفواً وصفحاً يا كريمُ بحبِّهم فإني غريقٌ في ذنوبٍ غوابرِ
مدحتُكَ لا واللَّهِ غيرُك مقصدي وما هبْتُ تقصيريْ لأنَّك عاذري
عُبيدٌ ضَعيفٌ عاجزٌ بك ملتجي غريبٌ غدت أحبابُه في المقابرِ
وفي دارِ خيرِ الرُّسلِ عندك مولدي وفيها مقامي لم أحلْ دهرَ داهرِ
ولي قد مضى سبعون عاماً مُصانه تنيفُ بسبعٍ طابَ زرعاً لباذرِ
تخلَّلها خمسون حجّاً وعمرةً تنيفُ بسبعٍ حبذا من ذخائرِ
ولي نسبٌ أرجو إليك يجرُّني شريفٌ كريمٌ فاخرٌ بعد فاخرِ
عليك أصلِّي يا شفيعاً مشفَّعاً حنانيك مِنْ مَاحٍ مُقَفٍّ وحاشرِ
عليك صلاةُ الله بدءاً وموئلاً عليك سلامُ الله مدَّ المحابرِ
عليك صلاةُ الله جهدي وطاقتي وبعدُ فأفديه بسمعي وناظري
ويا ربِّ فاغفرْ للجميعِ بجاهِه وباللطف عاملْنا ولطفٍ مثابرِ
على سنَّةِ المختار ثبِّتْ قلوبَنا ولا تخزنا في يومِ كشفِ السرائرِ
وهذا لتشويقِ النفوسِ وسمتُها فسارع إلى نصِّ العروسِ وبادِرِ

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً إلى يوم الدين.

وقد انتهى ما أردتُ إيراده عظةً لمن اتعظ ودان، وتسليةً لمن يُظلم ويهان، وتعزيةً لمن يغرُّه الحدثان بقوله: كان فلان وكان، وختم لنا بخير، وأصلح حالنا، وألَّف بين قلوبنا، وطهَّرها من الكبر والحسد، والبغضاء التي تفرِّق بين الأصحاب، وتفتح من الشرِّ كلَّ بابٍ بمنِّه وكرمه.

* آخر ما ورد بالنسخة(أ):

وكان الفراغ من تأليفه في الحادي عشر من شهر رمضان المعظم أحد شهور سنة أربع وسبعين وسبعمائة(*) والحمد لله رب العالمين.

وتم نسخ هذه النسخة المباركة على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده أحقر العبيد وأقل الورى، أحد ساكني مكة أم القرى، الراجي لطف رب العباد أبي الفيض وأبي الإسعاد عبد الستار بن الشيخ عبد الوهاب الكتبي المكي، بلغه الله ما يتمناه وجعل آخرته خيراً من أولاه بمحض فضله وكرمه آمين.

* آخر ما ورد بالنسخة (ب):

وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة يوم الاثنين المبارك رابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومئتين وألف بقلم كاتبها الفقير إليه عز شأنه جعفر بن السيد حسين بن هاشم بن السيد يحيى هاشم الحسيني المدني غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين آمين.

*أما النسخة (ج) فهي ناقصة الآخرُ.

(*) هذا التاريخ لا يصح، فالمؤلف توفي سنة ٧٦٩هـ وقد ذكر الشيخ عبد الستار ناسخ هذه النسخة في أولها أنه أتم تأليفه ـ يعني المؤلف ـ سنة ٧٧٤هـ. فالله أعلم أن هذا تاريخ نسخ النسخة المنقول منها.

قائمة المراجع

* الجامع الصحيح للبخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، الناشر المطبعة السلفية القاهرة.

* الموطأ للإمام مالك، تحقيق سعيد اللحام، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، الناشر دار إحياء العلوم بيروت.

* الجامع الصحيح للترمذي، تحقيق أحمد شاكر، الناشر دار الكتب العلمية بيروت.

* الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني، الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

* التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ. الناشر دار الكتب العلمية بيروت.

* العقد الثمين للفاسي، تحقيق فؤاد السيد، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت.

* التعريف بما آنست الهجرة للمطري، الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ، الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

* الكامل لابن الأثير، عني بمراجعته نخبة من العلماء، الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ، الناشر دار الكتاب العربي بيروت.

* إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني. الطبعة الثانية (مصورة) ١٤٠٦هـ، الناشر دار الكتب العلمية بيروت.

* إتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد، تحقيق فهيم شلتوت، الطبعة بدون الناشر جامعة أم القرى مكة المكرمة.

* الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسي. الطبعة بدون تاريخ، الناشر دار الجيل بيروت.

* المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزابادي. نسخة خطية مصورة.

* الديباج المذهب في أعيان المذهب لابن فرحون. الناشر دار الكتب العلمية بيروت.

* جامع كرامات الأولياء للنبهاني، تحقيق إبراهيم عوض، الطبعة الثالثة، الناشر مصطفى الحلبي.

* حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ، الناشر المكتبة الفيصلية.

* درة الحجال في أسماء الرجال لابن القاضي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، الطبعة بدون تاريخ، الناشر دار التراث القاهرة.

* ذيل العبر للعراقي، تحقيق صالح مهدي عباس، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت.

* ذيل الروضتين لأبي شامة، عني بنشره السيد عزت العطار، الطبعة الثانية ١٩٤٧هـ، الناشر دار الجيل بيروت.

* رسائل في تاريخ المدينة، قدم لها حمد الجاسر، الناشر دار اليمامة الرياض.

* رحلة ابن جبير، تاريخ الطبعة ١٤٠٤هـ، الناشر دار بيروت للطباعة بيروت.

* سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار الكتب العلمية بيروت.

* صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، تاريخ الطبعة ١٤١٣هـ. الناشر دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

* سبل الهدى والرشاد للصالحي، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ. الناشر دار الكتب العلمية بيروت.

* شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، تحقيق محمود الأرنؤوط، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ. الناشر دار ابن كثير دمشق.

* طبقات الشافعية للأسنوي، تحقيق عبد الله الجبوري، تاريخ الطبعة ١٤٠٠هـ. الناشر دار العلوم الرياض.

* طبقات الأولياء لابن الملقن، تحقيق نور الدين شريبة، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، الناشر دار المعرفة بيروت.

* لسان العرب لان منظور، تاريخ الطبعة ١٤١٢هـ، الناشر دار صادر بيروت.

* معجم الشيوخ للذهبي، تحقيق الحبيب الهيلة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، الناشر مكتبة الصديق الطائف.

فهرس المحتويات